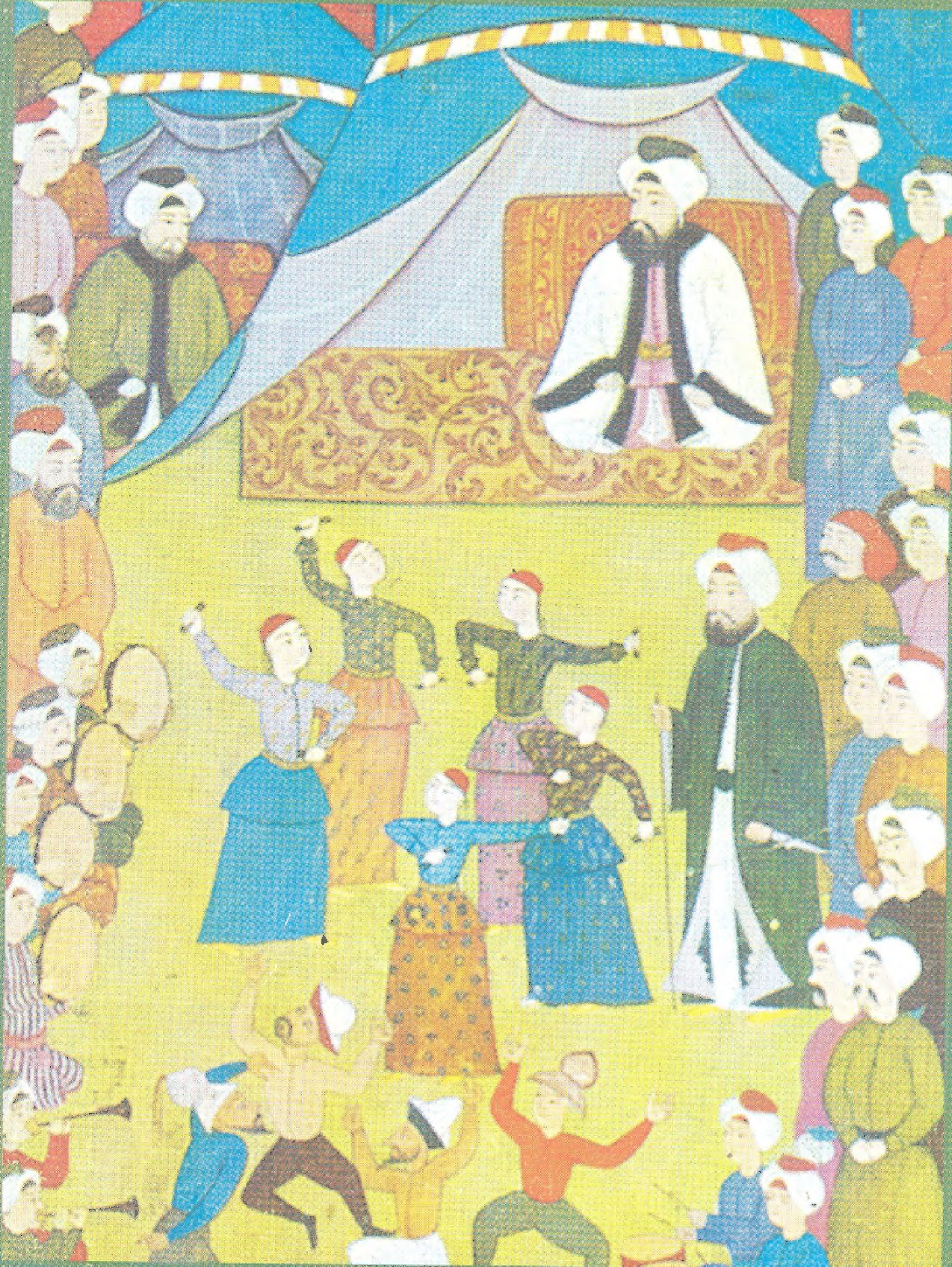
تأليف : زين العابدين المراغى

ترجمة : محمود سلامة علاوى

مراجعة : محمد علاء الدين منصور

المجلس الأعلى للثقافة



سياحت نامه إبراهيم بيك

الجزء الثانى

215

المشروع القومى للترجمة

سياحت نامه

إبراهيم بيك

(الجزء الثانى)

تأليف

زين العابدين المراغى

ترجمة

محمود سلامه علاوى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد والشكر الزائد عن الحد والقياس لله مالك الملك الذى منع عباده عن العوج بأمر واجب الإذعان (**يأمركم بالعدل والإحسان**)، (**وينهى عن الفحشاء والمنكر**)، والثناء أيضًا على السائرين على الصراط المستقيم الذين يسعون دائمًا فى تزكية الأخلاق ويتجنبون التكبر والغرور.

وبعد فإن القارئين المحترمين لرحلة إبراهيم بيك قد انتظروا نهاية أمره، وقد كتب مجد المملكة فى كل مكان رسائل من أجل التعرف على أحوال ذلك الشاب الغيور العاشق للوطن. كما بعثوا بخطابات فى هذا الشأن وسألوا أسئلة عديدة فحواها.

ماذا حدث لذلك القلب المعذب وذلك المغترب عن وطنه بعد سقوط الستارة وإخماد النار[١] حينما أخرج من الغرفة. هل توفى فى تلك الحالة أم مرض أم تماثل للشفاء؟ وهل عاد لأمه الرءوم أم لا؟

ومع أن العم يوسف قد دون نهاية أمر ذلك الشاب الغيور حتى يتضح للجميع ما حدث له نتيجة تعصبه وكم أُصيب من بلاءات حتى يوم وفاته. ولكن لملاحظات عديدة قد صُرف النظر عن طبع رحلة ذلك الشاب المحب لوطنه.

حتى أصر محبو الوطن وألحوا على التعرف على أحوال ذلك الشاب الغيور المبتلى، وطلبوا طبع رحلته ونشرها. فأرسل أحد المواطنين المحبين لوطنهم مبلغ مائتى تومان، واشترط أن يرسل مبلغ ثمانمائة تومان من أجل مواصلة الطبع وقد كان هذا المبلغ جاهزاً، وبذلك فإن هذا المواطن يبذل ألف تومان فى سبيل الوطن أى فى نشر سيرة هذا الشاب الغيور الحمد لله والمنه له أن أبناء الوطن قد أبدوا غيرة واضحة فى هذا المضمار، وبهذا فإن الحمية والغيرة لم تكونا قد سلبت من الأمة الإيرانية. ودائمًا فإن الزعم بعدم الغيرة فى أهل إيران قول باطل وافتراء محض، ولو علم أحد بقوة هذا الرجل المسن الغيور وثروته لزاد تعجبه ودهشته. إذ أنه مع ماله القليل فإنه يضحى بألف تومان فى سبيل تقدم بلاده ووطنه. وهو لا يبغى من وراء ذلك صيتًا أو شهرة، وهو يخاطر ببذل ماله فى جرأة واضحة فى سبيل هذا الأمر، وربما لو نشر هذا الأمر فليس مستبعداً أن يتعرض لأذى أصحاب الأهواء.

والحمد لله فى عهد صاحب الجلالة همايون الراعى للمعرفة والباسط للعدل، جميع طبقات الشعب فى أمن وأمان، كما فتح الحرية الفكرية لجميع الناس من أجل ازدهار المعرفة، والأمل أكثر فى كرم صاحب الجلالة إن شاء الله أن يمنح قسطًا أكبر من حرية القلم حتى يستطيع مثل هؤلاء الأشخاص أن ينشروا أسماءهم

على الملأ فى ظل الحمية، وأن يخلدوا ذلك فى صفحات تاريخ الزمن.

الخلاصة : بعد ستة أشهر أعيدت المائتى تومان لذلك الرجل الغيور إذ اعتذر عن طبع هذا الكتاب.

ومع ذلك فقد وصل إحسان هؤلاء الأشخاص ثانية للإنفاق على هذا الكتاب، وهو عطاء وسخاء لتلك الحمية والغيرة التى اتصف بها مثل هؤلاء الأشخاص الصادقون فى القول والفعل **(يا من يسخو بقلبه ولسانه)**.

النتيجة : أن النسخة التى كتبها العم يوسف من إسلامبول حتى مصر ومن مصر حتى نهاية أمر ذلك الشاب، قد أصر محبو الوطن على طبعها وكان العبد يرفض ذلك ويأبى. حتى لُبى المطلب وحثّتنى الغيرة والحمية أن أطبع نهاية أمر ذلك الشاب الغيور وأن أضمه للمجلد الأول من كتاب الرحلة. ومن المستحب فى هذا المقام أن أشرح سبب طبع الكتاب على القارئين الأعزاء.

كان يذهب أحد أصدقائى سنويًا مرتين من مصر وإسلامبول إلى طهران وكان يعود من هناك إلى إسلامبول ومصر. وعندما عاد فى هذه الأيام من طهران سألنى، أتدلنى على رحلة إبراهيم بيك. دلنى عليها أشتريها؟ فقلت: لمن تريدها. قال : فى طهران منزلى وبالبيت أحد الوزراء، وكانت زوجة ذلك المرحوم تكن

احترامًـا زائدًا لى، وكان الخدم يقرأون كتـابًا قديمًا مهـترئًا خارج البيت فى المساء، وكنت أنا أيضًا أستمع لذلك، وكان من بين هذه الموضوعات موضـوع جديد وعجيب وغريب أسـمعه لأول مرة، وكان العبد مشغولاً بالقراءة والاستماع فلم أدخل المنزل.

وذات يوم سألت السيدة قائلة: يا فلان لماذا لا تدخل المنزل منذ أيام؟ فرد قائلاً فى الحقيقـة أن الحاج أحضر كتابًا ويقرأه وعند سمـاعه شدنى هذا الكتاب وحـرم على النوم والأكل. وذات ليلة أرسلت رجلاً حـتى يحضـر هذا الحاج الكتاب ويـقرأه بالداخل، فأخـذنا الكتاب للسـيدة. . . فقـالت: ينبغى أن تقـرأه من البداية فأخذ المذكـور يقرأه من البداية، وقرأه عدة ليـال. فكانت السيدة المحترمة تضـحك أحيانًا وأحيانًا أخرى كانت تجفف دمـوع عينيها بالمنديل، وهكذا أخـذت تميل إلى سمـاع ذلك الكتاب حـتى أنها كانت تؤخر عشـاءها حتى الساعة الرابعة والخـامسة، وعند عودة الصديق السالف الذكر أكـد على ضرورة أن يأخذ مجلدًا من هذا الكتاب من أجلهم، وقـال: أريد هذا الكتاب من أجل ابنى . . . **(الحسان)** الذى يبلغ من العمر ثمانيـة عشر عامًا وهو يذهب إلى المدرسة، فأضعه فى المكتبة حتى يقرأه عندما يصل إلى سن الرشد والنضوج فإن كان فى إيران الغوغاء فأيضًا كان بها الغيورون الذين كتبـوا الموضوعات ودعوا أمراء إيران إلى تزكيـة الأخلاق وإصلاح ذات البين مثل فلاسفة الغرب.

وهذا الأمر مسلم به فلو مثل هذه الأمور تكون موضع اهتمام جلالة ملك الملوك والذى هو بالفعل يفكر فى راحة الرعية وازدهار المملكة ومراعاة قوانينها بعقيدة صارمة ونية خالصة، فسوف يسير على خطاه الوزراء المخلصون والأمراء المعلمون فى اتباع النيات الظاهرة والأفكار المستنيرة لجلالته، وفى أقصر وقت سوف ينصلح أمر إيران. وسوف يتخلى الخائنون عن سوء سلوكهم وأعمالهم ويخجلون من ذلك.

وفى الحقيقة فقد دهشت لسماع كلمات هذه السيدة المحترمة، وقد سجدت لله شكرًا وقلت: الآن الشكر والثناء لله أن نساء بلادنا لهن هذه الحمية والأفكار، فكيف يكون حال رجالها؟ وفى الواقع فإن الهدف من كتابة هذه الرحلة هو إيقاظ الأفكار وهذا الإحساس الغيور لتلك السيدة المحترمة والفاضلة يفوق آلاف الدراهم والدنانير لدى محبى الوطن. وعند سماع هذا الخبر فقد استنكفت أن آخذ ألف تومان من ذلك الرجل الغيور السالف الذكر، فواتتنى الجرأة بسبب أفكار هذه السيدة العظيمة والثرية، فشحذت الهمة وتوكلت على الله فى طبع هذه الرحلة ونشرها.

وعلى الرغم من أن الهدف من الرحلة ونشرها فى بداية الأمر هو ربما أن يشير قلمى بدون مبالغة أو إسهاب إلى عيب من عيوب هذا الوطن المقدس والتى هى آلاف فتكون موضع نظر

أرباب الحل والعقد، ويعوضون المنصفين والغيورين خيراً عما لاقوه من صعوبات ومشاق، وا أسفاه !

(لقد كان ما ظنناه نحن خطأ).

ولقد اعتبر المغرضون غير المنصفين أن هذه الخدمة لديهم منافية لراحة الدولة والشعب وقد بالغوا فى العقوبة فكان مصير من يُرى فى يده هذا الكتاب أن يجرم ويُحبس.

ومع وجود ذلك فإن عدداً قليلاً من جموع الشعب هم الذين قبلوا كل محتويات كتاب الرحلة وصدقوها، وأنه لم يقابل أحدًا ولم يختلط باستثناء النذر اليسير الذى كتبه لأن إبراهيم بيك لم ير تلك المدينة ولم يعلم بذلك العمل ولم يعرفه، ولكن الغرض الرئيسى لنا هو أن يقرأ العاملون والحرفيون الرحلة ويعلمون أن كل ما كتب حرفًا بحرف هو من المساوئ والمفاسد الموجودة فى المجتمع. وأن ما كتب عن المصالح العامة ينافى النفع الشخصى لبعض الأشخاص وهو لا يبدى إلا العزة والاحترام الوهميين اللذين يجيدونه فى الاستقبال فى الوزارة والإمارة وهى أمور لا فائدة من ورائها، لأنهم لم يسعوا بدأً فى شأن السمعة الطيبة وعزة النفس وتزكية الأخلاق ولم يعرفوا معنى الشرف، فقد فضلوا النفع الوقتى الزائل، وغفلوا عن اللذة والاحترام والعزة الأبدية فى السمعة الطيبة والتى تخلد أسماءهم فى تاريخ الشعب المقدس

(هلك قارون وكان له أربعون بيتًا من الكنوز)

(ولم يمت أنو شيروان والذى ترك الاسم الطيب)

وأقول ثانية، يا أرباب الحل والعـقد. . . وأيها المقربون من البـلاط الملكى ويا رؤسـاء القوم والشـعب ارحـموا أنفـسكم ولا تكونوا ذلك المدفوع من الأفعال والأقوال.

وتجنبوا الأعمال التى ليس فيها صلاحكم، واعلموا جيدًا أن بقاءكم فى منـاصبكم وأعمـالكم هذه لن يستـمر إلى الأبد، ولو تسعون بنفس هـذا القدر فى سبيل النافع من الأمور لـتمنيتم زوال كل هذه الأنواع من الافتـخار أكثـر من ذى قبل، ولتبـوأتم درجة رفيعـة من العزة والعظمة، وعند العزل من الناصـب يزيد فخركم وراحتكم مئـات المرات عن العزة اليومية الوقـتية. وهذا الأسلوب الذى تقدمـتم فيه سـواء فى إيران أو فى سائر الدول فكروا جـيدًا كيف آل مصيرهم وكانت نهايتهم، وقد عُزلوا مذمومين مكروهين ليس لهم إلا الندم. وكان الوزراء الـعثمانيـون السابقون أمـثالكم وكيف تجرعوا الزلة والهوان وهؤلاء الذين كانوا أمناء وصادقين فى أعـمـالهم كم من الاحـترام والإجـلال وجـدوه عند عـزلهم من مناصبهم؟

وقد وجدوا التكـريم الزائد من الدولة والشعب، وعلى كل فهم يأخذون رواتبهم المحـددة ويدعون إلى دوام عز الملك وبقائه.

ولاحظوا أنكم فضلتم ذميم الـرذائل على العزة الدائمة وذلك من دنائة الطبع، وقول العظماء :

(كل ما لا يجب أن يكون لا يجوز التعلق به)

قسمًـا بالله الأزلى ونعمة الملك أن غفلتكـم ومدح أنفسكم سـوف يسىء إلى إيران والدولة الإيرانـية. فـارحـمـوا أنفـسكم والخـمسـة عشـر مليونًا الذين يـشكلون الأمة الإيرانيـة، ولديكم مشكلة عويصة فى المستقبل، إذ أنكم بدّدتم الدولة بهذه الألاعيب الصبيانية الحقيـرة طوال هذه الأعوام الستين. ولو توفر فيكم قليل من العلم والدراية ولو كـان أيضًا لديكم اهتـمام بتنشـئة الرعـية، لكان إمـبراطور إيران الآن مكان الإمـبراطور اليـابانى المالك لكل آسيا.

وبهذا الزهو الأجـوف فقد أضـعتم اسم الوطن المتـمثل فى شأن الأجـداد وشرفهم ونجـابتهم وتخـدعون أنفسكـم بادعاءاتكم الجوفاء وبأفكاركم المعـوجة التافهة والمذمومـة. نظفوا أنفسكم من الدخول الملوثة واغـسلوا أسماءكم مـن قائمة المرتشـين حتى تزيد ثرواتكم ومـكانتكم لا للدخـــول القـذرة والوزر والـوبال، ونعم للدخول المشروعة القائمـة على العزة والجلالة مع التجربة وانظروا لوزراء الغرب الذين يتحدثون عن الملايين.

وهذه الفوضى وغيبة القانون وعدم النظام ليست عيبًا فينا أو فيكم، العيب فى أنكم لم تفكروا فى إصلاح ذلك العيب وأن من يذكر عيـب أمر تقطعون لسانه، ومن يكتب عن المسـاوئ تقطعون

يده، والعيب أنكم حرمتم حرية المعرفة، وهذه العيوب موجودة في كل مكان وفي كل شعب بل وأسوأ من إيران وأمرائها، ولكنهم منحوا حرية القلم للجميع. وقد اعتبر بوشكن الروسي وفولتير الفرنسي وجون إيستيوارت الإنجليزي أن إبراز العيوب والبحث عنها هي أساس كل شيء وليس أي أمر آخر بالنسبة للشعب.

ويكتب جون ايستيوارت الإنجليزي نفسه عن فوائد الحرية في كتابه الذي ألفه:

الإنسان في العالم حيوان ينبغي أن يطلب الرقي باستمرار، وهذا الرقي بدون الحرية الفكرية والأفكار السامية لا يمكن تحقيقه، وينبغي على الإنسان أن يكون في أفكاره حرًا، فينبغي أن يفعل الإنسان ما يريده ويقوله، فلو كان كلامه مقبولاً لدى أهل البصيرة فسوف يكون ذلك مفيدًا ونافعًا لعموم الشعب والجماعة وإن كان غير ذلك فاعرضوا عنه كأنه شيء لم يكن.

ولو أنكم تصورتم أن سائر الشعوب البدائية والبربرية كانوا يخفون عيوبهم عن الذكر، ولم يبالوا بانتشار مساوئهم، فهذا التصور خطأ. ولو أنكم قد رأيتم منذ ثلاثين عامًا هذا التخلف والبربرية للشعب الياباني.

الخلاصة: لقد طالت المقدمة، ولنذهب إلى الموضوع مباشرة، نأمل في عهد هذا الملك الرحيم الراعي للرقي والمعارف والباسط للعدل أن تزول العيوب فلا يبقى له اسم أو رسم في أقل

وقت ممكن كما جاء وأن يقضى تمامًا على المفسدين فى الدين والدولة. وأن يخلد أبناء الدولة اسم الملك الشهير، وبعد هذا فكل ما هو مكتوب هو بخط العم يوسف والذى هو خاتمة أمر إبراهيم بيك ونتيجة تعصبه، ويذكر العم يوسف أولاً شرحًا لسيرته.

شرح سيرة العم يوسف

هذا العبد يوسف بن عبدالله، وها هو يوجز سيرته لقارئى هذا الكتاب مسقط الرأس من توابع تبريز. وعندما سكن عمى فى تبريز، فقد حملنى أبى إليها، وأودعنى فى سن التاسعة عمى الكبير حتى التحق بالمدرسة، وفى كنفه تعلمت العلوم الدينية، وتعلمت ثمانى سنوات فى المدرسة الابتدائية التابعة لإحدى القرى هناك، وقضيت أربعة أعوام فى المدرسة المذكورة بين الطلاب حيث تعلمت جيداً الصرف والنحو وكنت أجيد كتابة خط النستعليق، وفى سن العشرين لم يستطع أبى المرحوم الإنفاق علىّ من أجل التعليم، فجاء وأخذنى من المدرسة وألحقنى بخدمته فى **(تفليس)** وأقمت هناك عامًا واحدًا، وبعد ذلك طلبت من المرحوم أبى أن يأذن لى بالسفر إلى إسلامبول فأذن لى، ووصلت إلى إسلامبول، وبالصدفة قابلت هناك شخصًا من نفس المدينة. وبعد السؤال عن الحال قال: إن إسلامبول لا تصلح لشخص لا يملك مالاً، ومن الأفضل أن نذهب إلى **(مصر)**، فعملت بوصيته وذهبت إلى **(مصر)**، وهناك سعيت من أجل الرزق المقسوم ما

يقرب من شهرين أو ثلاثة، حتى سمعت أن الحاج والد إبراهيم بيك في حاجة لكاتب فذهبت له، وبعد الامتحان قبلنى، وكنت مشغولاً بالكتابة إلى ذلك المرحوم، وكان لا يزال إبراهيم بيك لم يولد بعد.

وبعد عدة أشهر فإن الخالق العالم وهب المرحوم الحاج الابن إبراهيم بيك وكان السيد الحاج يميل إلىّ ويحبنى حتى أنه كان ينادينى بكلمة (مربى)، حتى أصبح إبراهيم بيك فى سن الثامنة فألحق بالمدرسة، وتعلم العربية والفرنسية والإنجليزية، وتكلفت أنا بتعليمه الفارسية وخط النستعليق، حتى وصل الأمر إلى أنه لم يعد لى عمل سوى تعليم إبراهيم بيك وتهذيبه. وقد عين المرحوم الحاج خادمًا خاصًا من أجل خدمتى. وتوفرت لى كل أسباب الراحة والاستقرار، وقد حاولت كثيراً أن أتزوج ولكننى رفضت ذلك.

وكان إخلاصى ومحبتى ينحصران فى تربية هذا الشاب وأزعم أننى قد ربيت إبراهيم بيك وكان هو نفسه شابًا ذا استعداد، وكان الله سبحانه منحه استعدادات كاملة فخلقة ذا استعداد وكاملاً ومؤهلاً، فهو لا نظير له فى حسن الأخلاق، وأدب الحوار والحديث والحياء والتدافع، وكان يوسف زمانه فى الحسن والجمال والقوام والعين والحاجب والحال والسلوك والحديث والملاحة والوسامة.

فهو كـالسروة فى القوام، وفى الحسن كالقـمر، وفى الفهم والفراسة لا يضاهي ولا نظيـر له فى الأصل والنجابة. . وخصال كلها محببة ومرغوبة.

فكان آلاف من النساء والبنات المـصريات مفتـونات به مثل زليخا بجـمال عزيز مصر؟ وقـد كمنّ له جميـعًا حتى إذا سنحت الفرصـة مزقن قميص براءته، فى حـين أن هذا الشاب الطاهر لم يكن يعلم شيئًا بما يدور حوله.

(ذكـر أحـوال إبراهـيم بيـك)

أهل البيت هم إبراهيم ووالدته الكريمة وأخته الصغيرة التى تبلغ الثانية عشر وتسمى سكينة هانم، وفتـاة شركسية اشتروها فى سن السادسة.

والاستعانة بجارية إحدى العـادات المتبعة فى تركيا والبلدان العربيـة، فهم يشـترونهـا فى سن صغـيرة ويربونهـا، وبعد ذلك يزوجونها مثل أولادهم، وبعض منهم يتزوجونها أو يزوجونها إلى أحد أبـنائهم. والاسم الأصلى لهذه الفـتاة غـير مـعلوم، ولكن السيدة الكبيـرة أطلقت على هذه الفتاة اسم (**محبوبة**). وكانت محـبوبة هذه سريعة الفـهم وذات فراسة وذكـية، وقد استـجابت للتعليم فى فـترة قصـيرة، وقد ألحـقوها بمدرسة أخـرى بعد إتمام دروسـهـا، وتعلمت الطبخ وإدارة الـبيت، وتخـرجت من تلك المدرسة مزيـنة مهيأة، وبعد ذلك أحـضرت لها الهانم مـعلمة فى

البيت، وعلمتها علم الموسيقى، كما هى العادة فى ذلك الزمان، وهذا الأمر أصبح ضرورة لازمة بالنسبة للخوانين، وقد حررت الهانم محبوبة وهى فى الرابعة عشرة من عمرها، بل ولقبتها بالهانم، وأصدرت أمرًا لجميع أهل البيت من الأولاد والخدم بأن لا يناديها أحد بدون اسم هانم، أو ينادونها بالهانم الصغيرة.

وكان واضحًا أن الهانم الكبيرة قد رمت من وراء هذا التغيير أن تزوجها لإبراهيم بيك، إذ قلما وجد مثل هذه الفتاة فى مصر؟! بل أنها كانت نادرة من النوادر، ولو زوجت محبوبة هانم بزوج آخر لكان من يليق لها أمير من الأمراء العظام.

ويبدو أن معظم البنات الأميرات من الشركس فى مصر وإسلامبول قد حظين بقسط من التعليم والتربية. ومحبوبة هانم بصرف النظر عن الوجاهة والمعرفة فقد كانت ذات خبرة ممتازة بين طبقات النساء وذات عصبية لإيران، ولعل تعصب إبراهيم بيك قد سرى فى قلبها هى أيضًا، وكانت تحب جميع الإيرانيين، وبينما هى صغيرة كانت إذا طرق الباب أحد، ذهبت خلفه وفتحته فلو كانوا من العجم ظهر ذلك من ثيابها وحديثها فكانت تقول: بسم الله، تفضلوا، وتُدخله وتفتح باب الحجرة إلى الداخل ثم تتحدث معه.

فلو كان تركيًا أو مصريًا، كانت تغلق الباب وتسأله من أنت؟ وماذا تريد؟ حتى تستطلع الأمر، وتخبر من فى البيت،

حتى ولو كان من أحد الباشوات المصريين فإنها تسلك معه هذا السلوك، وكان الجميع يضحك من تصرف هذه البنت الصغيرة.

الخلاصة : أصبح شائعًا بين الناس أن محبوبة هذه ستكون زوجة إبراهيم بيك، لهذا لم يجرؤ أحد على خطبتها، وكانت محبوبة نفسها تدرك هذا الموضوع وأنها كانت تعشقه، ولم أر محبوبة وهى ترى حبيبها قط إلا واحمرت وجنتاها، ولكن إبراهيم بيك بعيدًا عن هذه العوالم. ولا يعلم شيئًا عن هذه الأمور. وكانت محبوبة فى الثامنة عشرة من عمرها حينما سافرت إلى إيران. ومسعود أو الغلام الأسود هو الذى اشتراه المرحوم الحاج عندما ذهب للحج فى مكة وأحضره معه، وقد أخذه معه إلى مكة أيضًا، وكان خادمًا صادقًا وماهراً.

ولعل أصل عائلة إبراهيم بيك والدته العظيمة وأخته الكريمة سكينة هانم، والحاج مسعود ومحبوبة هانم وأنا (**العم يوسف**)، وكان بقية الخدم من امرأة ورجل وبعض الأفراد قد خصص لهم الرواتب، فكان بعض منهم يستبدل والبعض الآخر دائم، وكان كل واحد منهم يحصل على مكافأة نهاية الخدمة وذلك وفقًا للعادة المتبعة.

هذا قدر واف وجيد للتعرف على أسرتهم، ونعود إلى هدفنا الأصلى.

(نهاية أمر إبراهيم بيك)

(ونتيجة تعصبه).

وكما دون فى كتاب الرحلة فى الجزء الأول أنه حدث نقاش حـاد وجدال واسع بين إبراهيـم بيك وأحد الملاك، وكـان الوقت آنذاك يشير إلى الساعة الثالثة مساءً فى منزل مضيفنا المحترم، وقد اصطدمت قلنسوة إبراهيم بالمصباح، وكُسر المصباح.

واشتعلت النار بالـبيت، وبعد سعى ومحـاولات مكثفة تم إطفاء نار بيتنا، وخـرج الملا من المنزل نصف محروق، ولم يُصب إبراهـيم بيك مـن النار بأى أذى، وأخـــرجنـاه مع عـــدد من الأشخـاص، وسرت الجلبـة إلى الجيـران، فتزاحم الـناس وجاء البوليس، وبعد سـاعة وصلت مجموعتـان من رجال الإطفاء فى المحلة، ولكن لم يكن قد بقى أثر للحريق آنذاك.

ويصل خبر الحريق فى إسلامبـول سريعًا، فلو حدث حريق فى إحدى المحـلات أو القرى فى إسـلامبـول، بعد نصف سـاعة يعلم أهل إسلامبول جميعًا، وحيثما يشب حريق فى مكان يعتبره كل شخص فى تلك المحلة بيته وأن الحريق حريقه، ويجرى نحوه ويندفع نحوهم الراكب والماشى على قدميه على حد سواء.

وفى إسلامبول فى عدة أماكن منارة مـرتفعة والتى يسمونها علامـة الحريق وشـيدت لهذا الغـرض، وهى تظهر ليـلاً ونهارًا،

وعليها حارس للمراقبة، وبمجرد أن يرى الحارس الحريق فى مكان ما فإنه يشـد هذه العلامة نحو ذلك المكان إذ أن لكل قـرية علامة خـاصة، وعلى الـفور تطلق سـبع طلقـات من المدفع، ويصـيح الحارس القـريب من تلك العلامة: يوجـد حريق، فيسـمع صوته حـارس الحى أو القرية المجـاورة، وعندئذ يصـيح فى كل القـرية قائلاً: يوجـد حريق فى المكان الفـلانى والمحلة الفلانيـة، وشيـئًا فشيـئًا ينتشر الإنذار على الفور، ويعلم جـميع السكان فى نصف ساعـة فى إسلامـبول بدءًا من بوغـاز البحـر الأسود حـتى الجزر الكبرى (**بويوك آطه**) وهى تبعـد خمسة أو سـتة فراسخ تقـريبًا، ويعلمون أيـن مكان الحريق، وفى أى مركـز توجد وسـائل إطفاء الحريق والتى أعدتها الدولة ودربت عليهـا الأفراد بطريقة خاصة، وجميع وسائل الإطفاء جـاهزة تنتظر صفارة الحريق، وعلى الفور تجهز الخيول بمجرد سماع صـفارة المناجيق وهى تسير، وتتوجه فى نظام خاص بسرعة نحو مـكان الحريق، وأولاً يهدمون عدة أبواب من البيت مما يحيط بالحريق.

ثم يبـدأون رش الماء، وبالإضافة إلـى هذا فيوجـد فى كل قرية أو مـحلة مجـموعـة من الأفراد، والذين يسـمونهم بحـملة الخراطيم، وهؤلاء يحملون خراطيمهم وهم حفاة ويجرون بسرعة فائـقة، ومن وصل منهم أولاً يمنح خـمس ليرات والثـانى ثلاث ليرات، ولا يأخذ الباقون شيئًا.

وغير وسائل الإطفاء فى الحى، فهناك وسائل الإطفاء العسكرية فى كل مملكة أو دولة إلا مملكة إيران التعسة على الرغم من ندرة وقوع هذه الحرائق، ولكن لو شب حريق - عندنا - فسوف تلتهم النار كل المدينة والسوق، فلو كان هناك جمعية لإطفاء الحرائق، إذ ترى النساء والأطفال عندنا يمسكون بالأقداح وأدوات الطعام لكى يرشوا الماء على الحريق. إذ أكثر من مرة تلتهم النار السوق فى مدينة رشت، وفى حريق مراغة مثلاً وأردبيل فى غضون ساعة واحدة أتت النار على ثمانمائة وخمسين دكانًا.

وحكام إيران لا يفكرون قط فى مثل هذه الوسائل الجيدة للإطفاء، بل إنهم يفكرون فقط فى هدم الدولة وسرقة مال الرعية، بل لو حدث حريق على النقيض سوف تتحسن وسائل دخول الحكام ومعاونيهم والسعاة ورؤسائهم.

والأشخاص الذين لم يصلهم الحريق سوف يتهمونهم بالآتى: أنك أخذت الشيء الفلانى وفتحت ذلك الصندوق، وسيفقد مثل هذا الشخص روحه أو ماله بسبب ظلم هؤلاء الظلمة بحجة هذه التهم. والكلام يجر الكلام، وقد طال الحديث، ونعود ثانية إلى موضوعنا وبعد ذلك تجمع البوليس وغيرهم، وقد رأوا الحريق منطفئًا، فلم نعد فى حاجة لمساعدتهم ولكن الملا قد استلقى فى فناء البيت بشكل غريب، وكانوا قد ألقوا إبراهيم بيك

فى الحجرة الأخرى، وقد حُرق الملا فى الجزء الأيسر من جسده من رأسه حتى قدميه. وكأن نصفه الأيسر قد أُحرق بطريقة متعمدة ومقصودة.

ولكن نصفه الأيمن لم يصب بأذى. وكانت الناحية اليسرى من الرأس والوجه والشارب والذقن والصدر واليد والقدم كل هذا قد أصيب بحيث لو نجا من الموت، فلن تنمو له شعرة بعد ذلك. الخلاصة: أن البوليس قد أخذ الملا إلى المستشفى وأغلق الباب وبقينا نحن ثم تجمعنا حول فراش إبراهيم بيك، وكلما نثرنا الماء على وجهه، وتحسسنا يده وقدمه، لم يفتح عينه، وهكذا أغلق فمه بحيث لا يمكن فتحه بأى حال من الأحوال. وفى تلك الأُثناء فتح عينيه ولكنه لم يقو على النطق حتى يفتح فمه، ومكث الطبيب حتى الصباح، ومر من الصباح الجديد ساعة من الوقت فأرسلنا إلى طبيب، وحضر طبيب آخر، وفحصه بدوره قليلاً، ولم يفهم علة مرضه، ولم يكتبا دواء، وقد بقى إبراهيم بيك على هذا المنوال مدة ثلاثة أيام بلياليها. فلم يأكل شيئًا، ولم يشرب قطرة من ماء، وعيناه مفتوحتان دون حس أو حركة ودون نطق أو إدراك.

وفى هذا الوقت لم تكن لدى معرفة كافية لشرح حالته، ولو أحس القارئون الكرام بمصيبتى فسوف يدركون السبب، وكان الأمل مفقودًا فى تحسن هذا الشاب، فقلت لصاحب البيت أى

تراب أضعه على رأسي؟ وماذا أفعل؟ إننى أفكر أن أرسل تلغرافًا لأمه لكي تأتى، فما هو الصواب فى رأيك؟

قال: لك الخيرة، فصممت، ولكننى لا أعرف على أى عنوان أكتب، فلو قلت الحقيقة، فسوف تموت المسكينة قبل أن تأتى هنا.

الخلاصة: لقد أرسلت تلغرافًا: **(بسبب تكاسل إبراهيم بيك فقد فضل الأطباء أن يبقى إبراهيم بيك عدة أيام فى إسلامبول وآمل فى تشريفكم. يوسف)**.

وأرسلت التلغراف وعدت ثم قلت لصاحب البيت، لا شك ينبغى أن نحضر بعض الأطباء المهرة من هذه المدينة، حتى نرى ماذا أصاب ذلك الشاب، سمعت أن فى مستشفى ألمانيا طبيبًا شهيرًا فأخبرنا شخصان وكذلك صاحب البيت عن الأطباء المعروفين، فأرسلنا نسأل عنهم، وبعد نصف ساعة حضر الأطباء الثلاثة، وفحصوا المريض وتشاوروا فيما بينهم، وقال كل واحد منهم شيئًا يختلف عن الآخر، فقال واحد عنده حمى، وقال الثانى: ماليخوليا، وقال الثالث عنده ميكروب فى المخ، والمشكلة أن هؤلاء الأطباء الثلاثة المعروفين والمشهورين المهرة قد وقفوا عاجزين عن التشخيص، وكتب كل واحد منهم روشتة مختلفة عن الآخر، وأخذوا أتعابهم ورحلوا، وقال صاحب المنزل أنا لا أجرؤ أن أعطيه دواء من هذه الأدوية، لأنها كلها متناقضة، ولما

أنهم لم يعرفوا المرض فقد اختلف تشخيصهم، فلنصبر حتى تأتى أمه، ولكن ينبغى أن نجد حيلة حتى نجعله يأكل شيئًا حتى يتقوى قليلاً، إذ أنه منذ أن حدث ما حدث منذ أربعة أيام لم يأكل شيئًا ونخشى أن يموت جوعًا.

فأرسلنا إلى الطبيب الأول فحضر، وحيثما سأله لم يسمع إجابة منه، وفى النهاية وبأداة مخصصة لذلك فتح فمه، ووضع فنجانين من اللبن البقرى، وبعد نصف ساعة تحرك إبراهيم بيك فقال: **(يا حق يا مدد)**.

وأخذت فى بكاء الفرح، فتأثر صاحب المنزل أكثر منى وأخذ فى البكاء، وبعد نصف ساعة أخرى أشار المريض بيديه وكان يريد ماءً أو لبنًا، فأعطيته فنجانًا من الشاى باللبن، فأراد أن يأخذه فكانت ترتعش يده فلم يستطع، فأعطيته أنا وشرب، فاستراح قلبى قليلاً، وذهب الطبيب، فقال أعطوه ما يريد باستثناء المسبك والطرشى.

الخلاصة : أن التلغراف الذى أرسلته وصل أمه، وبعد الاطلاع على مضمون التلغراف أغمى عليها، وفى تلك الأثناء تصل محبوبة هانم، لتطلع على التلغراف، فأخذت تبكى حتى غرفتها لتسقط هناك بلا حراك، حتى جاء حاجى مسعود ورأى حالهما، فتجمع الجيران، وحاولوا تهدئتها بشتى الطرق، فقالوا

فى كلمات مواسية، لا يوجد فى التلغـراف موضوع يثير الخوف، فلماذا هذا الفزع والجزع؟ ولديه بعض البـرد وقد منعه الطبيب من المجىء، وقد هدأوا من روعهم بعض الشىء.

ردوا على التلغراف: **(غداً سوف آتى)**. وأعد الحاج مسعود لوازم السفر ليلاً ومن هذه الناحية فإن مـحبوبة المتشوقة كانت تعد النجـوم، وكانت تنتظر المعـشوق، وبلغ الشـوق بها أشـده، وقد تفاءلت خيراً فى التلغراف الأول، فـيا لها من صدقة وقد أعطيت لمحتـاج، ويا له من طيف جميل يكـتحل به العين، وحـتى يعود الحبيب من السفر، ومرة واحدة تبدلت كل هذه الفرحة بهذا الحزن والغم، فحالها معلوم وقلبها ملىء بالحزن.

(إن العشق يجعل أفلاطون مجنونًا)

(ويجعل جوف نهر جحون معبداً للنار).

(فلو سقطت لفظة شفة من قدح العشق)

(على جسد لمزقت أستار أسراره)

وحتى هذا اليوم لم تبح محبوبة المسكينة بسر قلبها لأحد، وكانت تحترق بنار الهجر، ولكن فى هذا الوقت فقد طفح الكيل، ولم تعد تستطيع كتمان هذا السر، وفى هدوء دعت الحاج مسعود إلى منزلهـا، وعلى غيـر العادة أمـسكت بيديهـا الناعمـتين الـيد السمـراء للحاج مسـعود، وأخذت تقـبلها بشفـتين أرق من ورق

الورد بقلب محروق وعين باكية وأخذت تبكى بكاء شديد، ثم قالت وهى فى قمة العجز والضعف: يا حاج مسعود لى فى هذا البيت أربعة عشر عامًا، وحتى اليوم لم أطلب من أحد شيئًا، ولم أشكو لأحد، الآن:

لى عقدة صعبة جداً
وأصبحت لى مانعًا كبيراً
فلو يقبل التماسى
فإننى أعترف بهذا السر.

يا حاج مسعود، إننى فى مقابل أن قبلت يدك فعليك أولاً إذا قبلت يد سيدك، فقبلها مرتين وأعرف أنت نية هذه الزيارة، فهو لا يعلم أننى أنبتك عنى فى الزيارة.

ثانيًا: خذ هاتين الليرتين، وابعث تلغرافًا لى ولا تخبر أحدًا، فلو وصل تلغراف السلامة، فسوف أعطيك عند عودتك خاتمى الماسى كبشرى.

وأرسل تلغرافًا خفية، وأخف هذا السر، ولا تبح به، وسامحنى، ولو كان الأمر بيدى، لما تجرأت وتوقحت فماذا أفعل.

(فلو نزل جبريل فى حق العشق لذل)

والآن، أستودعك الله، وبالله عليك لا تفشى هذا السر، واكتم هذا الحديث ولا تقل للبيك نفسه شيئًا عنه، وعلى الرغم

من أن الحاج مسعود كان غير متأكد من عشق محبوبة هانم لإبراهيم بيك، ولكن الآن تأكد وتيقن من ذلك الأمر، ومع كل هذا فلم يفش هذا السر حتى لإبراهيم بيك فى حياته ولم يخبر أحدًا آخر.

وفى الرابع عشر من الشهر فى الساعة . . . تحركت والدة إبراهيم مع الحاج محمود مسعود من القاهرة، وفى الصباح وصلوا مدينة الإسكندرية، وكتبوا تلغرافًا بهذا المضمون.

إسلامبول - يوسف - إنى آتية على متن السفينة الروسية.

وأخذت التلغراف وذهبت إلى مضيفنا وقلت: من الأفضل أن أظهر هذا التلغراف لإبراهيم بيك فربما يتكلم من شوقه لأمه، واستحسن صاحب البيت ذلك وقال، لا عيب فى ذلك، وذهبت أمام إبراهيم بيك وقلت: يا بيك نفسى فداؤك، هناك بشرى وهى أن والدتك ستأتى ومعها الحاج مسعود، ولعله قد أدرك حقيقة الأمر، فسقطت دمعتان من عينيه، وقال كلمة واحدة (**يا حق يا مدد**) وصمت. وفى تلك الأثناء كان صاحب المنزل قد أرسل من داخل المنزل بعض الماء، كلما حاولنا فتح فمه، لم يستجب، وفى النهاية صببنا الماء فى حلقه بالقوة، وفى وقت العصر جاء الطبيب الأول، ومعه طبيب آخر مشهور، وفحصا جسمه لمدة ساعة كاملة، ولم يعلموا شيئًا بعد فحصه، وفحصوا بوله، ولم يحددوا نوع مرضه، وطوال أربعة أيام كاملة كانوا يطعموه فقط بعض

اللبن والحساء بالقوة. ويوم الأربعاء وهو يوم مجىء سفينة الإسكندرية، ذهبت للميناء، وأخذت زورقًا وذهبت إلى السفينة وكنت فى غاية الحيرة، فماذا أقول للعجوز السيئة الحظ؟ فليتنى مت قبل هذه الحادثة.

الخلاصة : قد رآنى الحاج مسعود من بعد، وأخرج والدة إبراهيم من القمرة، ورأيت أنها كانت تصيح بصوت عال: أين ميرزا يوسف؟ أين ابنى، أين، هل هو ميت، تحدث؟ فنهضت وقلت فى صوت عال: بالله لم يحدث شىء من هذا فاهدئى حتى آتيك، وفى النهاية: وصلت السفينة، وصعدت السلم، وانحنيت وقبلت قدمها، وقلت لا تقلقى ولا تبكى، فهذا هلاكى وقسمًا برأسك المبارك أنك سوف ترين إبراهيم بيك بعد نصف ساعة. وقد ظل لمدة أسبوع مريضًا ولم يصرح الأطباء لأحد بالزيارة له، وقد هدأتها بعد أن أقسمت لها وأغلظت فى القسم، وخرجت فأخذت العربة وركبناها وسرنا نحو البيت، وقد استقبلنا صاحب البيت أمام الباب.

ولم تر الأم القلقة ابنها، وبعد قليل من السؤال عليه صاحت قائلة، أين ولدى، أين قرة عينى، فقالوا لها: فى الفراش يستريح، ولم يهدأ قلبها، فدخلت الغرفة على إبراهيم بيك، فصاحت ووالده، فأبكت أهل البيت جميعًا من رجل وامرأة.

فقالت أنت إبراهيم؟ ليس والله، ابنى ذو القد الجميل والقامة الهيفاء، والوجنة الحمراء والقوام الممشوق والشعر المسكى والعين الغزلانية، يا ولدى يا إبراهيم أين أنت فلو أنت إبراهيم فلماذا لا تحضن أمك. فأين نضرة وجهك؟ ولماذا أنحنى قدك الصنوبرى يا ولدى يا نور عينى، فأين حديثك الحلو؟ ولماذا لا تقف؟ ولماذا لا تسلم على.

(لماذا انطفأت نضرة شبابك)

(وأين وردك الأرجوانى)

(ولماذا انحنت قامتك الهيفاء؟)

(ولماذا أصبحت فى يد المجنون؟)

(ولماذا جف فمك؟)

(ولماذا هربت الحرارة عن جسدك؟)

وأخذت تتحصر عليه وهى تضرب وجهها ورأسها، واحتضنت الابن لحظة، ووقفنا جميعًا مكتوفى الأيدى وفى حيرة من أمرنا، وأخذنا نبكى ونحن لا نشعر، وأخذ إبراهيم ينظر إلى أمه حائرًا وكان الدمع يتساقط من عينيه كحبات اللؤلؤ، ولكن دون حركة أو كلام وبعد نصف ساعة جرت على لسانه كلمة **(يا حق يا مدد)**.

وأخذت تقرأ أمه عدة أبيات تركية وفارسية، وتضرعت رافعة يدها إلى قاضى الحاجات تقول: يا إلهى . . يا إلهى:

(يا عالم السر والخفايا ...... يا خالق جميع الأشياء)

(أنت معين الضعفاء ...... وملبى حاجات العبيد)

(وفى خضم الحوادث يتجلى .... عطاؤك طريقًا للنجاة)

(فـابنى أسير فى هذه الورطة الكبـيرة .... نجـه من هذا العذاب)

وأخـذت أم إبراهيم بيك تنوح وتعـدد كـما تفـعل النســاء المصــريات فى المآتم. وهكذا بدأت فى الـبكاء الحـزين الذين يلين الحجر ويذيب حجر الجرانيت.

وتحدثت وتحـدثت حتى سقطت مغـشيًا عليـها، فتجـمعنا حولها حتى تستـعيد وعيها وتعود إلى حالتها الطبـيعية، وقبل أن تنظر الأم إلى ابنها متـحسرة عليه، كان هو ينظر إليـها وكان ذلك يحزننا كثيراً.

وبعـد قليل من الوقت رفـعت أم إبراهيم رأسـها من فـوق صـدر ابنها، وأمـسكت بيـده وقـالت: إبراهيم يا روح أمك، أنا أمك تحدث إلى، فإنى مشتاقة للحديث معك، فلماذا وصلت إلى هذه الحـالة، فأين أمـك، فأنا فـداء لسـانك الحلو، لماذا لا ترحم أمك؟ وكلما بالغت معه فى هذه المناجاة لم تسمع جوابًا.

وتقدم نحوه الحـاج مسعود وألقى بنفسه عند قـدمى سيده، وأخذ يقبل قدمه، ويضم قدمـه إلى صدره، وبعد ذلك أخذ يقبل

يديه، وحمل يده ثانية وراح يقبلها **(وكان معلومًا أن القبلة الثانية نيابة عن محبوبة هانم)** ثم أخذ يبكى بحرقة. وبعد الهدوء، اختلت بى والدة إبراهيم بيك وقالت:

ميرزا يوسف: لماذا مرض هذا الولد وصار طريح الفراش ووصل إلى ما وصل إليه؟ قلت: منذ ثمانية أيام وقد حكيت لها كل شيء مما دار بين الملا وإبراهيم بيك من نقاش وجدال. وقلت لم يمرض فى إيران سوى يومين أو ثلاثة ولكن لم يصب بأذى، وقد لاحظت فى مشهد أن هذا السفر غير مناسب لطبيعته، ولن يكون خيراً علينا، ثم قلت كان هدفنا أنا والبيك الزيارة وقد قمنا بذلك ورجعنا منها، ولكن إبراهيم بيك لم يصغ إلى طلبنا ولم ينصاع لمقترحاتى، فأطعته أنا مضطراً، وذات يوم وجدته عابثًا، قال بعد المرض هات الطبيب من أجل العلاج؟ وقلت كل يوم يتردد علينا ما بين خمسة أو ستة أطباء، ولكن لم يستطيعوا تشخيص المرض فكل منهم قال شيئًا، فواحد يقول لديه حمى، والثانى يقول عنده ماليخوليا، وقال الثالث به عشق وهوى، وكل واحد يريد أن يعالجه وفقًا لرأيه، وأنا لم أجرؤ قط أن أرسل تلغرافًا لكم.

وسألت عن الغذاء والشراب قلت: يوميًا يأخذ فنجانين أو ثلاثة من اللبن وبالأمس أعطيناه قدراً من الحساء بشق الأنفس.

قالت: أرسل للأطباء لكى يأتوا حتى نرى ماذا يقولون.

قلت: يـا أم إبراهيم أرى أنه من الأفـــضل أن نـذهب إلى مصـر فوراً، فنحن نعـرف أطباء هناك، وأيضًـا فإن لتـغيـير الماء والهواء أثراً، ولكن الطبـيب الخاص سوف يأتى بعد سـاعة، وفى تلك الأثناء أتت زوجـة صاحب الـبيت وقـالت من وراء الستـارة تفضلى بالدخـول يا أم إبراهيم، أخرج يا آقا مـيرزا يوسف بعض الوقت حتى يقوموا بالخدمة.

فنهـضت وذهبت ودخلت عـدة نساء، وبعـد مراسم كـرم الضيافـة والاستقبال تحـدثن فى كلمات مواسيـة، وجاء الطبيب، ولكن يا له من طبـيب هو مثل عـدمه مـثل الحسـاء والقدح وأذن للعشـاء، ولعل إبراهيم بيك سـمع بعض الأشيـاء أو أحس بها، وعندما سمع صوت الله أكبر، قال **(يا حق يا مدد)**.

وفى اليـوم السادس أنهـينا التذاكـر وأخذنا تذاكـر السفـينة الخديوية، ويمكن القول إن الاحتـرام الذى رأيناه فى بيت مضيفنا وأولاده لا يمكن وصفه.

وكم كـان والد إبراهيم بيك أو إبراهيم نفـسه مـحظوظًا أن كان لهـما مثل هذا الصـديق، فالصـديق الحقيـقى نادر الوجود، خـــاصـة فـى هذا الوقت الذى هو زمـن السـاقطين، وناســه مضطربون. وهم قليلون فى الصداقة لمكرهم وحيلهم، كثيرون فى الشقاوة، معدومون فى الأمانة، معجونون فى الخيانة.

سئل حكيم، الصاحب أم الأخ؟ قال الأخ أفضل لو كان صاحبًا، وبديهى أن الصاحب الصادق غير المغرض أفضل من الأخ.

وأبرقنا تلغرافًا يوم الأحد: **(أخبر يا ميرزا عباس البيت أننا قادمون على متن السفينة الخديوية)**.

وكانت والدة إبراهيم عند السفر إلى **(مصر)** قد أوصت عددًا من الجيران والمقربين منها، حتى لا يتركوا محبوبة وحيدة لحين عودتهم. وكان يأتى عدد من بنات الجيران كل يوم من الصباح حتى المساء عند **(محبوبة)** ويسلينها، ولكن قلب محبوبة كان عند محبوبها، وهى غافلة عن الجميع تمامًا.

(هى وسط الجميع وقلبها فى مكان آخر)

وكانت تسيطر عليها أفكار حزينة مضطربة، وأحيانًا كانت كعادة النساء ترى الطالع وأحيانًا كانت تبكى بكاءً شديدًا، وفى بعض الأوقات كانت تقرأ مثل المجانين الأشعار العربية والفارسية، فسيطر عليها العشق والهوى، وتخرج عن حالتها السابقة، وأيقنت البنات أن داخل محبوبة نارًا مؤججة قد غيرت حالها، فلم يعد لها شهية للأكل ولا تستطيع النوم، فهى كانت ذلك الشخص الذى يعيش وسط أترابه يلهو ويلعب ويعزف على البيانو الآن يتأوه حسرة بدلاً من ذلك اللهو واللعب، وحينًا أخرى كانت تبكى فتتساقط دموعها مثل حبات اللؤلؤ من عينيها.

وقد أدركت إحدى البنات والتى كانت أذكى من جميع صويحباتها وأقرب منهن لدى محبوبة أدركت هذا الأمر جيدًا أن محبوبة يسيطر عليها العشق والهوى. وقد فطنت لطهارة محبوبة وبراءتها وكانت تعلم جيدًا أيضًا أن محبوبة سوف تتزوج إبراهيم بيك.

ويعد عيبًا بين العرب وأيضًا العجم التصريح من جانب البنت بهذا الهوى والعشق، ولهذا تقدمت وطلبت أن تنصح محبوبة بمودة، قائلة لها : لا تتعجلى فتكونى مذمومة فى أنظار النساء، وأمسكت بهدوء بيد محبوبة واختلت بها، وقالت:

(تعلمين أننى منذ الطفولة كنت زميلة الدرس والمدرسة، وما زلنا على هذا الحال حتى الآن، وما زالت المحبة والمودة موصولة بيننا، فأريد أن أسألك سؤالاً أجيبينى فيه صراحة).

وعلى الفور تغير لون محبوبة وأدركت أن سرها قد شاع فقالت: ماذا تقولين يا صديقتى قالت: وإنى أرى فيك علامات غريبة، ولو صدق ظنى، فهذا ليس فيه صلاحك، فقد كنت قبل ذلك مثل الوردة المتفتحة ومبتهجة والآن أنت مثل العليل النائح وحالك متغير، والآن نحن من أجلك نتجمع حولك، وذلك حتى لا تؤثر عليك الوحدة أو تشعرين بها. وقد جعلت الجميع قلقًا عليك فما سبب ذلك؟ وماذا فى قلبك، فلا تخفى عنى شيئًا، وسوف أحفظ سرك مثل روحى ولن أفشيه لأحد.

فقالت محبوبة دون أن تدرى وهى تتأوه :

(لن أصرح بهذه القصة لأحد والتى هى مثل دم كبدى)

(ولا تسألينى أنت طالما لن أخبرك بها).

فقالت رفيقة : إن لم تصرحى بها أقول لك أنا أنك تفكرين فى إبراهيم بيك، وأرى أنه فى كل وقت تذكرين اسمه.

(إن لونك يخبر عن سرك الداخلى).

ربما أصبحت مـجنونة، فالناس جميعًـا يعلمون أن إبراهيم بيك لك، وأنت له، وإن عـاجلاً أو آجـلاً سـوف تتزوجـين به، فلماذا كل هذه العجلة، فلا أحد يفكر فى الارتباط بإبراهيم بيك، وهو لن يقبل واحـدة لنفسه بديلاً، ثم لماذا تخسريـن نفسك بهذا الشكل، ويقينًا أن هذا السر سينتشر بسببك وسوف يكون هذا عاراً عليك إلى يوم القيامة.

وا أسـفـاه لو تفـتح ورد هاتين الوجنتـين قـبل الأوان فلن يندمل جرح هذه الفـضيحة لفـترة طويلة، تخلى عن هذه الأوهام الفاسدة والماليخوليا ولا تتصورين أن سرك غير معلوم.

(العشق ماء روض القلب ولونه)

(وهو الهادى والمرشد لكل منزل)

(الصدر فانوس وشمعه للعشق)

(القلب صدف العشق والجوهر داخله)

أنت تعلمسين أن فى مصر كم يكون اللوم والتوبيخ إذ يقولون إن الفتاة كذبًا عشقت، فمن الظلم أن يكون لك مثل هذا الحسن والملاحة والعقل والدراية والفهم والفراسة وأنت مشهورة فى المدينة بل وفى الآفاق ويقولون إنك عشقت.

وكلما تحدثت رفيقة فى مثل هذه الأحاديث، سمعت محبوبة ولم تجب، وبعد إصرار عنيد أخذت فى البكاء، لكن هذا السر بعد إبراهيم قد شاع.

الخلاصة : أننى حملت إبراهيم بيك من بيت المضيف ووضعته فى العربة وذهبنا إلى الميناء ودخلنا السفينة بصعوبة شديدة، وبعد ساعتين تحركت السفينة، وفى اليوم الثالث دخلت السفينة الإسكندرية، وأتى ميزرا عباس وعدد من الأصدقاء القاطنين بالإسكندرية إلى السفينة، واحتضن بعضهم بعضًا وتصافحنا وتعانقنا، وسألوا عن إبراهيم بيك، وقلت للحاج مسعود أن يخبر والدة إبراهيم بيك أن تخرج، فخرجت، وسلم الضيوف عليها ورحبوا بها، وذهبنا إلى قمرة إبراهيم بيك، فماذا كان إبراهيم بيك. قامة منحنية ولونًا مخطوفًا، وجسدًا بلا دم، وجلدًا على عظم، فاقترب منه الضيوف وهم يبكون واحتضنوه وقبلوه.

ولم يبد إبراهيم بيك أية علامة للمعرفة السابقة سوى النظرة المتحسرة، فاحتار الجميع وتعجب، وسألوا عن الأحوال، قلت الآن الفرصة ليست مهيأة.

قلت أحتاج لشهر كامل حتى أحكى لكم سيرتنا.

وسألت متى يتحرك القطار، قالوا بعد ساعتين، قلت لأم إبراهيم أتمكثين هذه الليلة تستريحين، أم نذهب اليوم، فقالت لا فائدة من وراء البقاء، وكلما أسرعنا كان أفضل، وبقينا ساعة فى السفينة، وذهبنا إلى القطار مباشرة، وحمل إبراهيم بيك كل من ميرزا عباس والحاج مسعود وسرنا هكذا حتى محطة القطار، وأخذنا التذاكر، وجلسنا به، وتحركنا مع الحاج محسن آقا وميرزا عباس، وبقى على غروب الشمس ساعة ونصف الساعة حين وصلنا محطة مصر.

وتجمع أناس كثيرون هناك من أجل استقبال إبراهيم بيك، وكان أغلبهم من الإيرانيين، وتوقفت العربة، ولوح المستقبلون بأيديهم لنا وسألوا أين إبراهيم بيك؟ قلت موجود، وخرج المسافرون من القطار، وأخذ بيد إبراهيم ميرزا عباس من جهة والدكتور محسن بيك المصرى من جهة أخرى.

. وبمجرد رؤية إبراهيم بيك أخذ المستقبلون جميعًا فى البكاء، وكأنه غريب عنهم لا يعرفونه والمصريون الذين كانوا واقفين ويعرفون إبراهيم بيك بمجرد أن رأوا قامته المنحنية ووجهه

المخطوف، قال أحدهم دون أن يدرى ما هذا؟ وأخذ الثانى يتمتم مستعجبًا أهذا إبراهيم بيك! وقال الثالث فى كلمات يائسة لا والله لا يشبهه أبدًا، وحدثت ضجة فى المحطة فواحد كان يحتضنه وآخر يأخذ بيده وثالث أخذ يقبله، وأخذ المريض المسكين ينظر بعين حزينة وهو لا يحس أو يتحرك جسد بلا روح بل وروح بلا جسد.

ولمدة نصف الساعة أخذ يتجمع الناس كالفراش حول الشمع المحترق حول إبراهيم بيك. وكانت وسيلة ركوبهم جاهزة، فجلست والدة إبراهيم بيك، إذ أرسل جلال أفندى **(حنطوره)** وحملوا إبراهيم بيك بالقوة، وأجلسوه به، وسار الآخرون خلفه اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، حتى وصلوا إلى حافة البيت، فنحروا خروفين فداءً له وأخرجوا إبراهيم بيك من الحنطور، وأمسك ثانية ميرزا عباس ومختار بيك المغربى بيد إبراهيم بيك ودخلوا به صحن البيت.

وعندما رأت محبوبة مثل هذه الحالة من غرفتها، ألقت بحجابها دون أن تدرى جانبًا على الحائط، ونثرت ضفائرها وراحت تصرخ يا حبيبى . . . يا حبيبى يا مولاى . . يا مولاى، وألقت بنفسها على قدم إبراهيم بيك وسط هذا الجمع الغفير وأشاح البعض بوجوههم وعاد البعض الآخر إلى منازلهم.

وكلما صحنا أنا ووالدة إبراهيم هذا كاف يا بنت، ارجعى، استحى، لكن ماذا يفعل الحياء فى سوق العشق؟ وكيف يجرؤ الحاجب أن يمنع العشق عن ثورته؟!

وهكذا أمسكت يداها بساقى إبراهيم بيك، وأخذت تصرخ فى حرقة: يا حبيبى، يا قلبى، وكانت قد لونت حائط المنزل بغزير دموعها، وراحت تتحسر: يا حبيبى يا رجائى من فعل بك هذا؟ وأنت سيدى، لا والله لم يكن سيدى مثل هذا، وكل من سمع صوت هذه الفتاة فى الحى والمدينة. لم يستطع أن يمنع نفسه من البكاء، وتجمع كل النسوة من الجارات، وكلما حاولن أن يبعدن محبوبة عن حبيبها، فشلن فى ذلك، وفى النهاية تغير حالى وقلت لها فى حدة وغضب، أيتها السيدة الصغيرة، هذا عيب، ووقف الناس جميعًا وإبراهيم بيك ينظر ولا يقوى على شيء وهو لا يستطيع أن يتحمل هذه المشقة، وأومأ إبراهيم برأسه ولعلها كانت تنتظر هذه الوساطة.

وفى النهاية قالت والدة إبراهيم بيك: يا محبوبة ولدى مريض وفاقد الوعى، أتريدين هلاكه؟ دعيه وشأنه يا للعجب لقد كنت بلا حياء، وأخيرًا قالت: هاتوا لها الحاجب وضعوه على رأس محبوبة هانم، وفصل بعض الأشخاص بالقوة يدى محبوبة عن قدم إبراهيم بيك.

ودخلنا البيت، وسقطت محبوبة دون حراك، ويقول واحد أنها ماتت، ويقول آخر أغمى عليها، وشخص ثالث لم يقل شيئًا سواء ميتة أو حية، وهنا أصبحت المشكلة اثنتين، فأدخلوا واحدًا، وأخرجوا الآخر، وتجمع الرجال فى مكان والنساء فى مكان آخر،

وحتى اليوم لم يفهم أحد أفكار محبوبة ولم يعرفها، وقد أضاعت هذه المسكينة نفسها بهذا التصرف، ولم تستطع الحديث عن والدة إبراهيم بيك، واليوم قد أقدمت على هذه الجرأة وإذا ما عادت إلى وعيها قليلاً فإنها تبدى الندم على فعلتها، وهى تؤذى نفسها بمثل هذا البكاء، وعلى الفور أتى طبيبنا الدائم وبمجرد وصوله قال: إن هذا الجمع الغفير حول المريض ليس فى صالحه، وعليهم الذهاب إلى غرفة أخرى، وأخذنا الضيوف إلى الصالة الكبيرة، وذهب الطبيب إلى إبراهيم بيك، وكان هذا الطبيب يدرك حالة صحته وقوته وطبيعة أعضائه، وكان قد عالجه لمدة سنوات فى صدره، وقد أبدى مهارة منذ طفولة إبراهيم بيك. وكان يتفهم مزاجه بدقة ورأى الآن.

(هكذا طحن الجسد المسكى من الحزن)

(حتى أن الهم يتساقط من فمه إذا تحدث)

وأخذ الطبيب يمعن النظر فى إبراهيم بيك مرة واحدة، وعاد ونظر إلىّ، ورفع كتفه دون أن يدرى وسأل بالإشارة والإيماءة، ما هذه الحالة، وتقدم وألقى السلام، وسأل عن الأحوال، فلم يُجب، وقاس نبضه، ولم يفهم شيئًا، وفحص درجة الحرارة، فوجدها طبيعية، ووضع أذنه على صدره وظهره، فأدرك سلامة كل الأعضاء، قال سبحان الله: أربعون عامًا فى

الطب ولم أر مثل هذا المرض وهذا المريض، وسألنى عن بداية المرض، قلت لم يمرض فى إيران، وقد شرحت ما حدث فى إسلامبول من البداية حتى النهاية، وبعد أن فكر مليًا عاد وجلس على وسادة المريض. وسأل إبراهيم بيك أتعرفنى؟ أنا الطبيب صالح، ولكم عالجتك؟ والآن إن شاء الله سوف تتحسن وتسترد عافيتك بعد ثلاثة أيام، وآمل أن توفق وتتحسن جميع الأمور.

(ليست هناك مشكلة معضلة قط)

وهنا تأوه إبراهيم بيك وقال : **(يا حق يا مدد)**، ووقفت المسكينة والدة إبراهيم ساعة كاملة وأخذت تبكى فى صمت. وقال الطبيب لا فائدة من البكاء يا أم إبراهيم، ولا خوف على ابنك من الموت، ولكنه مرض عجيب فلو أنه لم يمرض ويهزل لكنت أقول أنه يكذب وليس لديه أى مرض. وعندما يتجمع الأطباء غدًا يوم الأحد، وسوف أحضر ثلاثة أو أربعة أطباء والذين أعتمد عليهم فى مهارتهم حتى نرى ما ينبغى أن نفعله.

وسأل عن الطعام؟ قلت لا يأكل شيئًا سوى اللبن، كتب شيئًا وقال امزجوا ملعقتين باللبن وأعطوها له، وشرب الشاى وطلب أن ينصرف.

قلت: متى تفحص المريض الثانى، وقد أدرك أننى أقصد حالة محبوبة، فقال مخاطبًا والدة إبراهيم بيك، لن أدخل، فالنساء يتجمعن ويدخلن ويخرجن.

وقلت للحاج مسعود أن يخبر النساء أن يخرجن، فقد خرج الجميع، ودخلنا ورأينا محبوبة، أهذه محبوبة أنها جسد بلا روح، وأخذ الطبيب يتفحصها، وهى لا تشعر بأى شىء، وأخرج إبرة ووخز محبوبة بين عظمتى الكتف، وتألمت على الفور وارتعشت، وفتحت عينيها مرتين أو ثلاثًا وأخذت تهتز مثل شجرة الصفصاف.

وضحك الطبيب وقال: كيف حالك أيتها السيدة الصغيرة، وماذا يؤلمك. وأخذت محبوبة فى البكاء حيث وضعت يديها على وجهها.

قال الطبيب: بسم الله تعال يا إبراهيم بيك، تفضل، فنظرت محبوبة على الفور هنا وهناك بعد أن رفعت يدها من على وجهها.

الخلاصة : إن الطب لم ينفع فى هذا الحالة، وكان الفضل للطب العملى والحيلة.

قال: هاتوا الماء وأخذ الطبيب بنفسه وقال: خذى أيتها السيدة الصغيرة واشربى فرفضت، فنثر كل قدح الماء مرة واحدة على وجه محبوبة، وضحك الطبيب، وبكت محبوبة وأخذنا نتفرج ونحن فى حيرة من أمرنا.

وقال الطبيب بعد أن خرج: هذا مرض ليس خطيرًا، لا تتركوها جائعة حتى بعد غد وكتب لها حساء ورحل.

وصل عدد الرجال والنساء إلى أربعين أو خمسين فرداً **(فى فندق ليس له صاحب)**. وعلى الرغم من أن أغلبهم كـان وحيداً إلا أن كلاً منهم قد نسى نفسه وصار مشغولاً بمصيبة أهل البيت.

قلت: يا حـاج مـسعـود ألا تخـبـر والدة إبراهيم بيك أن تذهب إلى المطبخ، فانظر ماذا يوجد هناك حتى يعدوا الشاى.

قال: سألت كل شىء مُعد، ويكفى مائة رجل.

واستأذنت من والدة إبراهيم بيك، وصعدت إلى الضيوف، وبعد كثير من الأعـذار جلست ولكن أى ضيوف هؤلاء، لقد بدا الحزن على الجميع، وسـألونى عن الأحوال قلت: لدينا متسع من الوقت وسوف تسـمعـون، واتجهنا إلى السفـرة مبـاشرة، ووضع الطعام عليها.

وبعد العشاء: ألقى كل واحد السلام ورحل.

ومر من الليل ثلاث سـاعات، واسترحنا قليـلاً، وفى الغد قالت لى والدة إبراهيم بيك:

يا ميرزا يوسف اذهب إلى محبوبة فهى تخجل منى وتحدث معها حتى لاتفضحنا، فالناس يظنون أن لها ماضياً.

قلت: يا أم إبراهيم، لا تخافى، فطهرهما وبراءتهما أوضح من الشمس، والجميع يعلم ذلك.

الخلاصة : اختلينا وذهبت إلى محبوبة، وكان لا يزال لم يمر على مجيئنا أربع وعشرون ساعة. وكانت محبوبة نصف حية، لونها مخطوف، وعيناها ذابلتان، وحالتها يرثى لها، فالقلب ينفطر والبدن يضطرب ولم تأكل ولم تنم، ودخلت فأشاحت بوجهها عني.

قلت : أشربت الشاى؟ قالت: لا.

قلت : سأحضره لك : فأخذت فى البكاء.

قلت : أيتها السيدة الصغيرة ماذا بك؟ ولماذا تدهورت إلى هذه الحالة، لم تجب.

قلت: بالأمس اختلط أمرك على الناس، ولم يفهم أحد ألمك، وقد أسأت التصرف وهذا لا يليق بك أو بالأسرة الجليلة هذه.

لم يكن يليق بك أن تكشفى نفسك بلا حجاب على الأغراب، وأنت التى لم ير أحد لها شعرة من قبل.

وقد علم جميع الناس أن نار العشق قد دفعتك إلى مثل هذا السفور، فاجمعى عقلك وانهضى واشغلى نفسك بأمر، ولو أن إبراهيم بيك يتفهم حالتك فلن يرضى بهذا بل سيحزن ويتألم لذلك.

ولم يعد هناك مانع من وصالكم سوى مرض إبراهيم بيك، وإن شاء الله قريبًا يُعافى وتحققون مرادكم.

وتعـرف والدة إبراهـيم بيك أنك تخـجلين مـنهـا، لهـذا أرسلتنى، وأنا أقول هذا الكلام وهو كلام الهانم.

لقد بكت مـحبوبة كثـيراً وقالت: عمى العـزيز، لن أعيش لأعذب قلبى بهـذه الأحاديث، وما ظننتـموه غير صـحيح، وهو السـيـد والمولى وولى نعـمـتى، ولا يمكن أن أراه فى مـثل هذه الحالة، فهو مـرادى فلا تتوقعوا منى عقلاً أو وعـيًا، وقد تصرفت على غيـر إرادتى، ومنذ ذلك اليوم الذى وصل فيـه تلغرافكم من إسلامـبول، والدنيـا سوداء فى عـينى، وليأخـذ الله روحى على الفور، كيف أنظر فى وجـه حبيبى، وهو يقول عنه حـبيب الهانم الكبيرة،

قلت: محبـوبة إن سكينة أخت إبراهيم بيك، ولا شك أن محبة الأخت والأخوة أكثر من أى شىء آخر، وهى حزينة وباكية لكن فى حياء وحجاب، وكلما تحدثت فى مثل هذه الأحاديث لم يبد منها شىء سوى البكاء.

(لا تظن أن العاشق سيـقبل النصيحـة ... وأنا لن أستمع لما تقول)

ورأيت أن محبـوبة قد أدركت فحوى هذا البـيت، فنهضت وجـئت، وأخبـرت أم إبراهيم بيك بكل شىء، وهذا الألـم أسـوأ من ذلك الألـم، وقد أثر حال هذه الفتاة فيـها أكثر من حال ابنها،

لأن هذه الأسرة هى الطهارة بعينهـا، ويصل تأثير هذه الأمور حداً أكثر من الموت نفسه.

قلت: اسـتـريحى يا هانم، وهذا ليس عـيبًـا فـيك أو فى أسرتك، لأن أهل مصر صـغيراً وكبيراً يعلمـون أنهما مخطوبان، ولعل جميع الـناس يظهرون مثل هذا العشق ومـثل هذه المحبة فى أمر كهذا.

قالت: مـاذا نصنع، أرسل سكينة لمحبوبة، وأخـبروا بنات الجيران أن يجئن ولا يتركنها وحيدة ويشغلنها.

وصعد الحاج مسعـود ليخبر سكينة والبنات، وارتفع صوت بكاء مـحبوبة مـرة واحدة فـسمعـت المسكينة والدة إبراهيم بيك، وذهبت خلف الباب فرأيتها تقول فى المناجاة: يا حبيبى يا الله لقد شـبـعت من حـياتى أنـنى لن أسـتطيع أن أتحـمل كل هذا اللوم والتوبيخ، وكيف أنظر إلـى وجه حبيبى؟ فهـل ربانى على النعمة والدلال من أجل مثل هذا اليوم؟

(لم ينم فى بستان حظى سوى شوك الحزن)

(ذلك الشوك الذى شاك كبدى المقطع)

قالت والدة إبراهيم بيك : لقـد ابتلينا ببلاء عجـيب، فماذا أفعل يا ربى؟

(لو كنت فى لحظة موجوداً فأين أنت الآن)

ونادت يا سكينة أنزلى، فأتت وقالت: لا تتركى محبوبة. ولا تدعيها وحيدة، وذهبت هى نفسها عند إبراهيم بيك. وفتحت أنا حقيبة الملابس وحاجيات السفر وغيرت ملابسى، وجاء اليوم الأحباء والمعارف الذين لم يكونوا قد أتوا بالأمس، ميرزا عباس، الحاج محسن آقا وتحدثنا بعض الوقت، ورأينا عندئذ آقا تبريزى قد جاء، فنهضنا وتصافحنا، وتعانقنا وجلس وسأل أين إبراهيم بيك؟

قلت: فى حجرته وعنده والدته هناك.

قال: سمعت أنه مريض، فقد وصلنى خطاب من تبريز، وقد أخبرنى عن سفركم ولكنه لم يشر إلى أى مرض قط.

قلت: إنه لم يمرض فى تبريز، بل ساءت أحواله فى إسلامبول، وشكرت أخاه قليلاً، وقلت: حقيقة لقد أبدى كرمًا وحفاوة فى الضيافة، وقد بالغ فى هذا الأمر كثيراً، وكل من يسأل عن أحوال إيران أقول أصبر فسوف أتحدث.

وفى تلك الأثناء أقبل آقا ميرزا أحمد الشيرازى، وبعد التحية والسلام سأل عن الأحوال قلت: سيئة ولا تسر، فتحسر.

قلت: لقد كان كل هذا بذنبك، وكنت السبب فى الذهاب إلى إيران، لقد أتيت أنت وقلت، لا يوجد شىء فى إيران، وبالغت كثيراً فى كل حديث، وقد شجعت البيك حتى يذهب بنفسه ويرى.

قال: ربما كذبت ورأيت شيئًا.

قال أهل المجلس: لقد صدق آقا ميرزا أحمد، لا يوجد شيء فتحدث أنت لنرى ماذا رأيت وماذا كان هناك؟

قلت: كل شيء موجود، الشيء غير الموجود هو القانون، والنظام، وفي هذا الصدد لا تعرف وظيفة الحاكم من المحكوم والمواطن من صاحب المنصب، ولهذا السبب ليست هناك مدرسة، ولا ضرائب وهناك الرشوة والاستبداد والظلم، المدن خربة، الصحراء جرداء، المياه آسنة، ومن عفن المياه يصعب المرور بالأحياء السكنية.

أصبح المتسولون وزراء، وغداً الوزراء شحاذين، والأمور في غير نصابها.

(فالميزان ميزان، والراعي راع، والقطرة قطرة، والبصل بصل).

فضحك الجميع بصوت عال، أتستطيع أن تقول هذه الأشياء عند إبراهيم بيك.

قلت: لا أجرؤ، ولكنني رأيتها بأم عيني، وأي خبر من هذه الأخبار في غير حاجة لأن أتحدث عنه ويقال:

(لقد اندهشت هكذا حتى غاب عني الوعي)

والآن فقد دهش هو هكذا، وأصابته الحيرة حتى غاب الوعي بعد أن أصابه الهزال، وليرحمنا الله، وبعد الغداء تحدثنا قليلاً، وذهب كل لحاله.

وبقى معى فقط ميرزا عباس والحاج محسن آقا، وسألوا عن الأحوال، قلت: كان يومنا الطيب مـعك، وبعد ذلك لم نضحك قط، ومنذ دخول (**باطوم**) حتى العودة حينما وصلنا وحينما ذهبنا وحينما رأينا كان يتعذب هذا الشاب الغيور فى كل خطوة يخطوها ويتحـسر قلبه الملىء بالآلام، والأعـجب من ذلك أن هناك بعض الأشياء التى رأيتها ولم أخبره بها ومنعت الآخرين أن يخبروه بها، وكان هو يخـفى بعض الأمور أيضًا عنى، ولم يعلنهـا إذ أننى قد رأيت ذلك وفهمته فى إسلامبول بعد مرضه فى كتابه (**الرحلة**).

ومن بين ذلك أنه ضرب ضربًا مبـرحًا فى بيت وزير الحربية ولم أعلم عن ذلك شيـئًا وذات يوم أتى إلى المنزل بصحبـة حسن كرمـانى وهو فى حالة من الاضطراب، وقد لزم فـراشه لمدة ثلاثة أيام، وأخفى ذلك عنى، وفهمت فى إسلامـبول ماذا أصابه حيث ذهب إلى بيـوت الوزراء، ودارت أحـاديث بيـنه وبينهم فـسـمع العديد من الشتائم وضُرب ضـربًا مبرحًا، والثناء والشكر لله أنهم لم يقتلـوه وعاد حيًـا. وبعد عدة أيام ذهب وقـضى نصف الليل خارج المنزل، فجاء ضاحكًا تبدو عليـه البشاشة هائمًا وكأن الدنيا قد حيزت له. فسعدت لسعادته كثيراً، وشكرت الله تعالى أن هذا الشاب قد ضحك فى هذا السفر يومًا وأصبح سعيداً ومسروراً.

وسألت عن سـبب سعادته؟ قـال لا تنس يا عم يوسف أن فى إيران رجالاً أكـفاء علماء ذوى خـبرة ويقدسـون الدولة. وقد

بلغـوا درجات رفـيـعة فى علم القـانون وإنجـاز الأعمـال، وهم يتفوقون علـى أساتذة الغرب، وفى هذه الليلة لاح طيف أمل فى الأفق وأن ازدهار إيران سـوف يأتى فى المسـتقـبل، وعن قـريب سوف تتقدم كثيرًا، إنه الشخص المحترم.

سألت مـا الأمر؟ قال الحمـد لله أن القانون معـد وجاهز، لكن ما هذا القـانون الحسن والمقدس؟ عن قريب سـوف نسمع إن شاء الله فى مـصر أن بإيران أربعة آلاف أو خـمسة آلاف مـدرسة من مـدارس العلوم والفنون المتنوعة، وبـعد عـشرة أعـوام سوف يخرج آلاف العلماء الأذكـياء المخلصون من المدارس البناءة، قلت إن شاء الله.

سألوا: كـيف وصل هو بنفسه إلى الوزراء، وكيف عـرفهم فى أقل فترة زمنية، وعن طريق من استطاع أن يصل إليهم؟

قلت : يمكن القـول إن المرشـد والدليل لهـذا السبـيل هو شخص من بين الناس

وخـلاصة الكـلام أن الحاج خـان هو الشـخص الأول فى إيران، وأنتم تعـرفـونه وتحدث عـنه فى كتـاب الرحلة، وسـوف تقرأونه، ودله هذا الشخص على كل منصب.

الخـلاصـة : أنهم تفرقوا بعـد الحديث ورحلوا، ونزلت إلى المريض، فوجدت أن **(والدة إبراهيم بيك)** قد جلسـت وأمسكت بيدها رأس إبراهيم وكانت دموع عينيها تتساقط مثل سحابة ربيع.

سألت: أكل شيئًا؟ قالت لم يأكل شيـئًا، فأحضر قدحًا من اللبن، ومزج به ملعقتين مـن الحساء، وتقدمت وقلت: اشرب يا روح العم بحق اللـه وبسلامـة الوجـود المحتـرم، وضـحكت، فتـساقـطت الدموع المختـمـرة والمخنوقة من عـين إبراهيم بيك، ووضعت اللبن على شفته فشربه، وقال كلمة واحدة :

(يا حق يا مدد)

وناديت سكينة وسـألتها عن حـال محبـوبة؟ قالت: البنات هناك، وهى تبكى باستمرار وكلما تحـدثن لها يواسينها، لا تتكلم وتنظر حائرة، ولا تجيب على شىء، وفى المسـاء انصرف الجميع، ولم يبق منهن سوى رفيقة والصديقة المحبة لمحبوبة، وذهبت أيضًا سكينة لتصلى، ونادانى حـاجى مسعود فذهبت ورأيته قـد استرق السمع من فتحة باب الغرفة وأشـار تعال واسمع حديثها، فذهبت ووقفت خلف الباب وأنصت فرأيت الصديقة تقول لمحبوبة:

محبـوبة: لقد فكرت فى ألمك منذ أسبوع وأخـفيت عنى، الآن هذه الليلة تتـحدث كل البـيوت عن عشـقك وأنا لم أقل أن هذا السر سوف يكون مخفيًا إلى الأبد، وقد أنكرت أنت.

(إن السر الذى كُتم يجعلون منه محافل للحديث)

لماذا يا محبوبة يا حبيبـة القلوب الخاص منها والعام تحجبين نفسك عن القريب والغريب؟ اصبرى

وتمالكى نفسك حتى يتم لك مرادك بعزة واحترام، إن العشق للبنات عيب، وعار عليهن، فلماذا تصمين نفسك بهذه الوصمة، فأنت حسنة التربية وشاعرة وأديبة وقرأت آلاف الروايات، وتعلمين سوء هذا الأمر أفضل منى وأن عاقبته وخيمه يا عزيزتى، يا أختى، أيتها المحبة، لا تفعلى، لا تفعلى فستندمين آخر الأمر.

وعلاوة على ذلك فقد كانت محبوبة ذات حسن وجمال وأخلاق حميدة مستحبة، ولها صوت جميل، وفى شهر رمضان المبارك تتلو النساء المصريات القرآن، وعندما كانت محبوبة تتلو سورة يوسف بنغمة جذابة، كُن يبكين جميعًا عفوًا، وعندما كانت تقرأ الآية الشريفة رقم٣١: " فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئًا وآتت كل واحدة منهن سكينًا وقالت اخرج عليهن، فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن" صدق الله العظيم، كان يغلب على المستمعات الحيرة والدهشة، حتى لو أعطيت سكينًا فى أيديهن لما عرفن اليد من البرتقال.

وفى مصر قراءة محبوبة مشهورة للخاصة والعامة، وهى ذات مذاق خاص لسيدة العجم، فأحيانًا كانت تنشد أشعار الرثاء والأشعار العربية والفارسية، واليوم رأيت أنها اتكأت على الوسادة، وقد نثرت ضفائرها مثل حظها، وعند الاستماع إليها

كان قلب الحجر الجرانيت يتحول إلى ماء رقيق، وكانت تقول لصديقتها:

أختي الغالية : لو كنت أملك زمام نفسي لما تسببت في تلك الفضيحة بالأمس، ولما وصمت نفسي بوصمة العار، ويكفيني ما بي من ألم، ولا تتحدثي أكثر من هذا وأخذت تلقي هذه الرباعيات وتبكي:

لوثت الفضيحة الثوب الممزق
وعاب عليّ ا لأحباب والأعداء عشقي
لقد بذلت الروح في سبيل العشق والجسد أسير البلاء
لا طاقة لتحمل الألم فلا تقل هذه هي العادة
هذا ليس ذنبًا إن أخفيت عن الناس حزني المستتر
لا أحد يشاركني الهم إن أظهرت غمي الذي أخفيه
أنا مكبلة بأغلال السجن وليس لي حيلة في ذلك
لا طاقة لتحمل الألم فلا تقل هذه هي العادة
وجهي الشاحب أصبح وردي اللون بسبب دمعي الدامي
تحترق روحي من نار الهجر والألم الشديد
بلغت آلامي من جفاء الزمان المعوج درجة شديدة
لا طاقة لتحمل الألم، فلا تقل هذه هي العادة

أختى العزيزة اعلمى كل ما تقولينه من باب المصلحة والمحبة، ولو كان لى صديق فى هذا البلد منذ أيام المدرسة وحتى الآن فهو أنت، ولكننى فى هذا الأمر مسلوبة الإرادة، وقد فلت الزمام من يدى، والحيلة فى الخلاص مفقودة غير أن أهلك نفسى وأدفن هذا السر فى التراب، وقد عرف حبيبى حالى، وبعد هذا العار لن أستطيع أن أرفع رأسى قط. آه .. آه كيف أصبحت فريسة لمخالب اللوم، احفظنى يا إلهى، أيتها الخليلة الغالية رفقًا بى فقد انتهيت، ولكننى أرى نعمته سابغة علىّ.

(لو صدر عنك أمر .... فسوق يتسبب فى محنتى ذات يوم)

(فأنا عاجز ولا يجوز التهوين .... وينبغى على أن يكون لى رفيق فى هذا الطريق)

ولكن هذا يتوقف على أن لا يكون حبيبى فى البيت

قال الحاج مسعود : يا آقا ميرزا يوسف لقد تعقد الأمر، وصار قلبى مضطربًا وحزينًا، ومن الممكن أن تذهب والدة إبراهيم لمكان ما حتى نأخذ محبوبة لديه. إذ أنه لا يعلم بها.

وقد رق قلبى لها واحترق قلبى لحالها.

قلت : ينبغى أن تصبر يومين أو ثلاثة، فربما أقول غدًا للطبيب صالح أفندى، ويقول هو نفسه أنه من الأفضل أن تبقى

محبوبة لدى إبراهيم بيك، وتكون ممرضته، والآن لا تقل شيئًا لوالدة إبراهيم بيك.

وذهبت لإبراهيم بيك وكان نائمًا، وكانت والدته تمسح بيدها قدمه، وجلست قليلاً وقلت لها لو تأذنين أن أذهب إلى الحمام لمدة نصف ساعة فأذنت، وذهبت ثم عدت، فأتى عدد من الأحباء يريدون أن تخرج والدة إبراهيم لكى يروه.

وذهبنا إلى إبراهيم، وكان ملقى كغزال فى فخ، وكان ينظر وقلبه ينفطر حسرة، وقد قال مهدى بيك الشاعر:

(ولى الوصال وبقى الهجر فمن الظلم أن يكون العشق فى الروض)

(وصل الشوك المشيب، ومات الورد فى الشباب)

أى عدل وأى ظلم هذا يا إبراهيم بيك، فماذا بقى منك، كيف يتحمل الإنسان مثل هذا الحد من التغيير، وسأل أسئلة ولم ينتظر الجواب.

قال مهدى بيك: الحقيقة أنا لا أستطيع أن أبقى أكثر من ذلك مع هذا الشاب، ونهض ورحل.

وقضينا تلك الليلة، وفى الساعة الرابعة أحضر رجل من طرف صالح أفندى ورقة كان قد كتب فيها فى الساعة الثامنة وعد

الدكتور (**مسيو ولف**) الطبيب الكبير فى المستشفى الإنجليزى وعد كلاً من مسيو هارون والشيخ يوسف بأنه سوف يأتى.

ومن الساعة المحددة دخلت البيت عربتان، وبعد تناول الشاى، قالوا: لنذهب إلى إبراهيم بيك، ووضعت والدة إبراهيم بيك الحجاب على رأسها حيث أتى الأطباء. وأول الأمر طلبوا منى بعض المعلومات، وشرحت أحوال السفر بشكل إجمالى واستفسرت عنه فلم يجيبوا. وقال الدكتور الإنجليزى اخلعوا كل ملابسه، ففعل الحاج مسعود ولم يترك سوى الملابس الداخلية، وفحص كل نقطة من الملابس على حدة. وفحصوا أيضًا بميكروسكوب خاص أنفه وجميع أعضائه وقاسوا له الضغط.

وسألنى أربعة أطباء لمدة ساعة كاملة قائلين: بأى مرض توفى والده، وبأى من الأمراض أصيب؟ وبماذا مرضت أمه، وهل هو نفسه مرض فى الطفولة؟ وما هذا المرض؟ وأى الأدوية أخذ؟ وأجبت على كل هذه الأسئلة تفصيلاً، وتحدثوا مع بعضهم باللغة الفرنسية، وبدت على ألسنتهم المصطلحات الفرنسية ولم أفهم شيئًا.

وفى النهاية اتضح الموضوع حيث لم يفهم هؤلاء شيئًا مثل أطباء إسلامبول، وقالوا: قل لوالدته أن تأتى، فأتت وكانت تعرف (**مسيو هارون**) الإسرائيلى التركى جيداً قال: يا سيدتى لا

نستطيع أن نزعم أن ابنك ليس مريضًا فلو لم يكن مريضًا ما وصل إلى هذا الحالة، ولم نعرف مرضه بعد، فالقلب سليم، والكبد طبيعى، والحرارة معتدلة، وذلك ظاهر تحت الميكروسكوب وقد رأيت الفم، الأنف والأذن والأحشاء والأعضاء الداخلية، وجميع هذه الأعضاء طبيعية وبصحة جيدة، والآن لم نعرف شيئًا عن المرض، فلو تسمحين لى أن آتى الأسبوع القادم وأفحصه؟ واليوم سيكتب (**مسيو وولف**) شيئًا يأخذه فادهنى له مرتين ليلاً ونهارًا، وسوف يكتب دواء للشرب أيضًا، وأسقيه فنجانين كل ست ساعات واحلقى له شعر رأسه، وليحضروا له دهانًا من الصيدلية ورطبوا به الجلد، وقدمى له بشتى الطرق ثريدًا يأكله، ولو كان يريد شيئًا آخر فلا بأس أن تقدموه له، ولكن احذرى من الطرشى، وكتبوا الأدوية وأرادوا أن ينصرفوا، وقلت لصالح أفندى، ليروا محبوبة، قال: فذهبت ورأيتها تبكى ثانية.

قلت: الأطباء أتون. قالت :عمى العزيز لا تفضحنى فلست مريضة، قلت : لو كان الأمر هكذا فلماذا صمت ثلاثة أيام ولم تأكلى شيئًا؟ قالت : أستحلفك بالله يا عمى العزيز، لا تبح بسر سيدى ولا تأتى لى بالطبيب وكلما أصررت قالت: إنك تقتلنى. قلت: يأتى صالح أفندى بمفرده فرضيت وقلت: ليبقى صالح أفندى، ويرحل الآخرون.

وانصرف الشيخ يوسف السيد من الباب وجذب صالح أفندى إلى المقصورة، ونادوا علىّ أيضًا فذهبت، وقال الشيخ يوسف لصالح أفندى، ما رأيك فى إبراهيم بيك؟

قال صالح: أمارس مهنة الطب منذ أربعين عامًا ولم أر هذا النوع من المرض ولم أسمع عنه، وقد رجعت إلىّ الكتب القديمة والجديدة فلم أر مثل هذا المرض.

قال الشيخ يوسف: إننى أمارس الطب منذ اثنين وثلاثين عامًا، وعلى الرغم من أن اختباراتى فى كل إدارة صحية فى فن جديد، ولكننى اليوم أؤمن بفن العشق، وقد جربت ذلك كثيراً واستفدت أيضًا الكثير، خاصة هنا. وأريد أن أستخدم حكمة أبى على سينا فى هاتين الحالتين لتشخيص مرض الماليخوليا أو العشق، وأتبين هل هناك نتيجة أم لا؟ فإذا لم أشخص هذا المرض فسوف أجن.

وسأل صالح أفندى: أتفكر فى تجريب أى علم؟ قال: أولاً مرض أحد الأمراء العظام بمرض الماليخوليا مثل إبراهيم بيك ولم يأكل شيئًا وكان يهذى بهذه الكلمات: أنا ثور سمين .. اقتلونى .. اقتلونى بالسيخ، وكان هذا الهذيان دائمًا يتردد على لسانه، وتوقف عن تناول الطعام فترة من الوقت، وعجز الأطباء عن العلاج، فأحضروا ابن سينا، فسأل الشيخ الرئيس ابن سينا عن بعض الأمور، فشرح الممرضون حالة المريض. قال ابن سينا:

اذهبوا وقـولوا للمريض أننا أخـبرنا القصـاب أن يأتى ويذبحك، وقالوا للمريض ففرح كثيـراً. وبعد ساعة أحضر ابن سينا السكين والساطور وقال فى صوت عال (**أين الثور؟ أحضروه حتى نذبحه**) وكان يصيح الأمير نفسه مثل الثور وظهر خواره.

الخلاصة : أحضـروا الأميـر وأوثق عدد من الأفـراد يديه وقدميه، وكان ابن سينا يسن السكين مثل القصابين، فكان صوت السكين يصل إلى مسامع الأمـير، وبعـد ذلك وضع قدمـه فوق صدر الأمير، وكان يربت على خصر الأمير مثل القصابين، وراح يتفحص أفخاذه حتى توقفت يده عن ذلك وقال: (**هذا ثور هزيل جداً ولا يستحق الذبح قدموا له العلق لمدة أسبوع حتى يسمن وعند ذلك سوف نذبحه**) ثم أطلقوا يديه وقدميه وقال ابن سينا : (**الآن أى شىء ستقدمونه له سوف يأكله بغية الذبح**).

وفى الحقيقة فقد أكل ما أتوا له به حتى شفى شيئًا فشيئًا

والحـيلة الثـانية فى الـعشق، فلو ثبـت أنه عاشق فـينبـغى الاطمـئنان، ومثل هذا المـرض لا يجدى مـعه الأكل والشـراب، ورأيى سترون أن فـيه خيراً كثيـراً. قال صالح أفندى: لو لم تنفع حيلتكم هذه فهى لن تضر بأى حال من الأحوال.

ولا شك أن تجربة أمـر أو حيلة ليس فيـهما ضـرر فى مثل حالة العشق هذه، وبعد ذلك قال الـشيخ يوسف السيد لى: أكان لهذا الشاب تجربة عاطفية مع أى واحدة من النساء؟

قلت : **(العالم كله يشهد على براءته)** حاشا لله، حاشا لله فإن هذا الظن فى حقه ذنب.

قال: أثناء الذهاب إلى إيران والعودة منها أكان على علاقة بامرأة أو فتاة ممن رأيتموهن وزرتموهن فى الأماكن التى نزلتم بها.

قلت أبداً.

قال: لا تدعى هذا فأنت مسن وهو شاب فهو لن يخبرك بسره.

قلت: هو لا يفكر فى هذه الأمور مطلقًا، وهذه التخمينات فى حقه غير صحيحة.

وقال الشيخ يوسف: لقد مرض ولى عهد عز الدولة وعجز جميع الأطباء عن علاجه، وفى النهاية أخبروا الرئيس ابن سينا، فاستنتج ابن سينا علامات العشق عليه، فاختلى به.

إذ أحضر الشخص الذى كان يعرف أسماء جميع أحياء المدينة وبيوتها ووضعه بجانب المريض، وأخذ يمسك بنبضه، وأخذ يتحدث مع ذلك الشخص، فعد له هذا الرجل أحياء المدينة وبيوتها واحداً واحداً، حتى أدرك أنه كان يعشق فتاة فى أحد البيوت بأحد الأحياء وشفى عندما وصلنا للهدف.

والآن لنذهب إلى إبراهيم بيك، فاذكر منذ خرجتم من مصر كل مدينة وقصبة وقرية رأيتموها ونزلتم بها واحدة واحدة، فربما يتعلق بشىء فنصل إلى الهدف.

وذهبت عند إبراهيم بيك واختفى صالح أفندى فى ركن، وأمر الشيخ يوسف بنبض المريض، وسألنى هذا السؤال: يا سيد يوسف من أى طريق سافرتم؟ وماذا رأيتم وشاهدتم؟

قلت: تحركنا من هنا بالقطار إلى الإسكندرية، ومن هناك ركبنا السفينة إلى إسلامبول ومن إسلامبول أخذنا السفينة إلى باطوم، ومن باطوم إلى تفليس ركبنا قطاراً من عربة واحدة، ومن هناك أخذتنا السفينة إلى سواحل رشت وما زندران وعشق أباد حتى دخلنا الأراضى الإيرانية.

وصاح الشيخ يوسف مرة واحدة، لقد تحقق المطلوب، وأدركت المرض، أكمل بعد ذلك.

وذكرت المدن والقصبات والقرى التى مررنا بها حتى نهر أرس واحدة تلو الأخرى بدءاً من مشهد وسبزوار، ونيسابور وسمنان ودامقان وشاهرود وطهران وقزوين وزنجان وتبريز وأردبيل ومراغة ونبات ومرند، ووصلنا حتى روسيا ومن هناك إلى باطوم ثم إسلامبول ومصر والسلام.

قال: هل يوجد اسم مدينة غير كل مدنكم العجمية؟ قلت: لا.

سأل: ينبغى أن يكون؟ ولا شك ليس هناك خطأ فى تحليلى واستنتاجى.

قلت : استنتاجك صحيح ولا يوجد خطأ أو سهو فيه أبدًا، ما شاء الله لقد دلنا نفس اسم إيران هذا على هذا المرض النادر.

قال: ماذا يعنى؟ هل إيران اسم إنسـان؟! قلت: لا يا كبير الأطباء، إن هذا الشاب الغيور عاشق لمملكة إيران.

لقـد ذهب ليرى مـعشـوقتـه إيران، إذ أنه يفـرح لرؤيتهـا ويسعـد، وقد أعطت الزيارة والرحلة نتيجـة عكسية وحـزن حسه المرهف لخراب المـدن واضطرابها، ولكثرة الحـزن والأمل وصل لما هو فيه.

قال: لم أفهم خراب المدن واضطرابها.

قلت : أى لا يوجد نظام أو قانون فى البلاد. وأستاء لهذه الأفكار لدرجـة أنه تنازع حـول هذا الموضوع مـع أحد الكبـراء، فاحتـدت المناقشة واسـتشاط غيظًا، ومنذ ذلك الوقت وهو مـتأثر بهذا الأمر.

قال الطبـيب: بهذا الشكل لـم أخطئ التشخـيص، وليس هناك فـرق بين عـشـق الأفـراد وعـشق البـلاد، وهذا الأمـر له توضـيح، وليس لدينا وقت، وخـلاصة ذلك : يعـتـبر الأطبـاء الإفراط فى الحب عشقًا وذلك قسمان:

قسم فطرى: أى خلقى وذاتى، وهذا العشق موجود فى كل الكائنات والموجودات سـواء الفلكية وسواء العناصـر التى تنجذب لبعضها البعض نظراً لطبيعة الجاذبية بينها.

والقسم الآخر : عشق مكتسب وهو موجود فى الحيوان والإنسان ومنشأ هذا العشق اللذة، أى إدراك النصف الملائم والمكمل والذى به يستقيم المزاج ويعتدل. وهذا العشق المكتسب لا يخرج عن نوعين: وهذا يتم عن طريق قوة الحركة أو قوة الإدراك، ويطلقون على قوة الحركة القوة الجسمانية كأن يميل الإنسان إلى الطعام والمأكل والمشرب وغير ذلك.

أما القوة الروحية فهى مثل الاشتياق إلى النظر فى حقائق الأمور وتميز الحسن عن الدمامة وغير ذلك. وهذه القوة الروحية إما ذاتية، وتلك الذاتية فهى عشق حقيقى مثل حب أهل الحق والروحانيين الذين يحثون عليها. وهى تميل إلى آثار صنعها، وهذا العشق نفعه ذاتى وليس عرضيًا، أما الشق الثانى لهذا العشق فهو عرضى أو عشق مجازى مثل حب أولى العقل للنساء والأولاد والأعمار والآثار وما إلى ذلك.

وعلى كل فالحب المفرط فى العشق وشدته وتفوقه على العناصر الأخرى التى تشكل أساس حياة الإنسان يتسبب فى عدم التوازن، وهو أمر مهلك، وعلاجه والشفاء منه يكون فى إدراك الأمل المتمثل فى المعشوق المستحيل ثم أن صحة هذا الجسد مرتبطة بتحقيق أمنيته.

ولم يخطئ ظنى كثيرًا، وبهذا فعلاج هذا الشاب مرتبط بوجود النظام والقانون فى إيران، فإذا ما أقروا النظام والقانون والمساواة فى إيران، فسوق يتحسن بدون تلقى أى علاج وإلا فلا.

وأوصيك بأن تصل إلى مسامعه الأخبار الطيبة وتذكر عنده، وأخفوا عنه الأخبار السيئة التى تخترق قلبه فيهلك، فإذا أردتم أن تطعمـوه فلابد أن يكون ذلك من شخص يحبـه فيذكره بمعـشوقه مثل علاء الدولة، فمهدوا له حتى تطـعموه بآمال المستقبل، وألقى السلام وانصرف.

ومكث صالح أفندى، وتـوجهنا نحو مـحبوبة، فـسأل عن أحوالهـا؟ وكنت قد أفهمت الطبـيب بألم محبوبة بالضـبط وسأل أكلت شيئًا، فلم تجب.

قلت: هذه الفتاة لم تتناول الطعام والشراب لمدة ثلاثة أيام، قـال الله، الله، الامـتناع عن الطعـام يؤذيك، سـيـدك هناك بلا ممرضة، ما شاء الله أهكذا تسير الأمور؟ على الأقل تناولى الطعام وتقوى واخدمى سـيدك وأرعيه، وترين أن والدته المسكـينة عجوز وعاجزة، ولابد لتمـريض المريض من إنسان قوى، ولن يليق بهذه الخدمة سـواك. وسوف يسترد عـافيته بعد عـدة أيام، وفى النهاية انظرى فإن شـقيقة إبراهيم بيك تكن لك قـدرًا كبيرًا مـن المحبة، وهى التى تقوم على خدمته، وينبغى عليك أن تكون أكثر قوة من أجلهم حتى تخدمى إبراهيم بيك.

وكتب الطبيب أربع زجاجات شراب وقال له اشرب كل يوم واحدة حتى تشفى تمامًا. وخرج وطلب من والدة إبراهيم بيك أن تخرج.

قال: سيدتى، لا يوجـد هنا مريض أو مرض، على الرغم من أن الأطباء وعدوا بأنهم سيعـودون، لكن الشيخ يوسف السيد طبيب مجـرب وذو دراية، وقد أعطيتهم أنا أجـرهم وحاولى قدر المستطاع أن يأكل إبراهيم بيك طعامه، وعينى مـحبوبة على خدمة إبراهيم وذلك من باب المصلحـة، فحينًا تساعـدك محبـوبة وحينًا شقيقته، فاقبلى اقتراحى هذا.

قالت والـدة إبراهيم بيك: ينبغى إطاعـة أمر الطبـيب طالما فيـها خـير للمـريض، ورحل الطبـيب، وأتت والدة إبراهيم بيك ونادت من فوق: يا محبـوبة امكثى هنا ثلاثة أيام، ويقينًا أنك لم تصلى، فانهـضى وصلى، فأنا مشغـولة فوق، وسكينة فى المطبخ وإبراهيم وحيد، فلا تدعيه وحيداً.

وصـعدت والـدة إبراهيم، وفتـحت أنا ببطء بـاب حجـرة محبوبة فرأيتها توجهت نحو الجدار فى فراشها وراحت تبكى.

قلت : اعلمى هذا يا مـحبوبة أننـى عمك والأب الروحى لك، وقد عركت الدنيا وجربتهـا جيداً، أقول لك اليوم بصراحة، لا تخفى عنى شيئًا فى قلبك، فلو احتفظت بالألم داخلك تموتين حزنًا، فاسعدى. ولا تغفلى عن خدمة سيدك، وقد أسندت والدة إبراهيم بيك خـدمته لك. فكلى واشـربى دومًا وأنت فى سـعادة تامة واطعمى سـيدك واسقيه بنفس الروح، وتـضرعى لله بالدعاء

أن يمنحه الصحة وأن يسعدكم. والآن أقيمى الصلاة وأسرعى لخدمة سيدك. ولكن حالة محبوبة أصبحت أسوأ من حالة إبراهيم بيك منذ يوم التلغراف حتى الآن. ولعل رمقًا من الحياة قد بقى مثل السحابة التى تأهبت استعداداً للإمطار.

قالت: عمى العزيز خذنى أولاً هناك بعد أن أصلى، فالصلاة لا تجوز مع قلب غائب، قالت هذا وقبلت يدى.

أين محبوبة؟ وأين تقبيل يدى؟ ولا خجل فى مثل هذا، وليس لى يد البيك، وقد جاء رحمه بى، نعم لقد قالوا:

(أتى العشق فإنى لا أبالى بشىء ... أتى العشق فأين العقل بعيد النظر)

قلت: لا تخجلى منى بعد الآن، على الرغم من أننى فى مقام والدك، ولكنى عبد لك فى الباطن، وأنت ولية نعمتى، تعالى يا فتاة.. تعالى نذهب.

وفتحت الباب ودخلت الحجرة، الله، الله، وفى تلك اللحظة دخلت محبوبة وألقت السلام ووقفت متحجبة فى منتهى الأدب والحياء، ولم تسمع جوابًا وتقدمت وقالت: يا مولاى ... يا حبيبى وألقت بنفسها باكية نائحة فى فراش إبراهيم بيك، واحتضنت قدميه قائلة : يا مولاى .. يا قوة قلبى.

(حتام احترق كالشمعة حزنًا عليك؟)

(واحترق بنار عشقك)

(وإلام أظل كالظل لك منتظرة)

(وبكاء عينى لا ينتهى).

سيدى الحبيب، لقد انتظرت جاريتك الصغيرة تسعة أشهر وعينها على طريق إيران وجلست تنتظرك حتى تشاهدك بهذه الحالة؟! أين كلامك الحلو؟ أين شعرك العنبرى؟ ولماذا انحنت قامتك الصنوبرية. وكيف وخزك شوك الحزن؟ فصب الفلك الدوار تراب المصائب على رأسى.

ونظر إبراهيم بيك نظرة متوجسة وقال: يا حق يا مدد - ولا يخفى على أحد - أن حديث إبراهيم بيك بسبب سماع اسم إيران.

وجذبت محبوبة قدمى سيدها وقبلتهما وأخذت تشمهما وقالت: سيدى: جاريتك جاهزة، وأمر بأية خدمة تريدها، ثم نهضت وجلست حول إبراهيم بيك وقالت:

يا إلهى اجعلنى فداءً لسيدى، واجعل مرضه وبلاءه فىّ، يا إلهى لا تحينى بدون سيدى.

قلت: هذا كاف يا محبوبة، ووقت الصلاة يمر، فاذهبى وصلى، ولا تضاعفى الألم، وبعد الصلاة ادعى بإخلاص، وإن شاء الله سوف يستجاب دعاؤك.

وبعد ذلك قلت لمسعـود: اذهب إلى والدة إبراهيم وقل لها أن تصلى المغرب والعشاء هناك، وأن تأتى متأخرة بعض الشىء.

وذهبت محبوبة، وتوضأت حتى تصلى بنفسها فى غرفتها، وجلست عند المريض، وشيـئًا فشيـئًا أخذت أتحسس قـدمه، وقد طالت صلاة محبوبة، وظننت أنه قد أغمى عليها. وذهبت بهدوء خلف الباب فرأيت أنها تناجى قاضى الحاجات قائلة:

يا إلهى يا رحيم، يا خـالق تعلم أنت أنه - إبراهيم - أعز جاريتك الحقيرة وكان كريمًا للغاية معها، والآن أنا طفلة، وأسيرة ووحيدة وليس لى قريب، وكل أملى وسعادتى متعلقة بهذا الشاب الغيور ذى الحمـية. فلو اقترب أجله الموعود فامنـحه باقى عمرى وذلك عن رضا وطيب خاطر، وقد تصدقت بنفسى عليه.

يا رحـيم يا خالـق، ويا معـبودى الـوهاب أنت تعلم أننى بدونه سوف تحـرم علىّ الحيـاة، وأنت قاضى الحـاجات ومـجيب الدعوات.

(يا ملبى دعوة المحتاجين فى العالم أجمع ... كرمك كافٍ لكل الناس)

(وأنا وحـيد وأنت عـون المحتـاجين ... فـتقـبل شكواى بكرمك فأنى محتاج)

وفى تلك الأثناء طرقت الباب وقلت: تفـضلى فإنى خارج وفى تلك الأُثناء أتى حاجى مسعود.

قال: أتى ميرزا عباس مع شخص لا أعرفه.

قلت: ليذهبوا إلى الحجرة فإنى آت، وبمجرد أن ذهبت، همس ميرزا عباس فى أذنى وقال: يقولون أنّ هذا المصرى مجرب وممن يكتبون الدعاء. وقد رأى إبراهيم بيك وهو يكتب الدعاء، فلعله يؤثر فى شفائه.

قلت: لا بأس وجلسنا واحتسوا القهوة ثم رحلنا.

وقلت لمحبوبة: اذهبى حجرتك فقد أتى ضيف ودخلوا بعد خروج محبوبة.

وقرأ المصرى قدراً من الدعاء والأذكار غير المعروفة محدثًا إبراهيم بيك، ثم كتب دعاء فى شكل حجاب أخضر وربطه على ساعد إبراهيم بيك الأيمن، وقال إن شاء الله سوف تشفى قريبًا.

ونهضنا وخرجنا، وودعناه حتى باب المنزل وعدنا، ورأيت حاجى مسعود يجرى خلفهم بسرعة، فناديت قائلاً، أين تجرى بهذه السرعة. قال يبدو أن محبوبة هانم قد وضعت فى المنديل عدة قروش من أجل قضاء دعاء المصرى وأريد أن أعطيه هذه القروش.

قلت: سوف يعطيه ميرزا عباس حقه، واستعدت المنديل فرأيت به ثلاثة جنيهات إنجليزية وخاتمًا ماسيًا حراً والذى اشتراه المرحوم الحاج بخمسة وعشرين جنيهًا.

ويبدو أن محبوبة نظراً لمحنتها قد اضطرت أن تبذل المال فى مقابل دعاء الحاجة فيكون مقبولاً بشكل أسرع.

قلت للحاج مسعود: خذ الهبة ووضعتها فى جيبه وقلت إن محبوبة بهذا الشكل الواضح سوف تبالغ فى هذه الأعمال الجنونية فخذ أنت كل مـا تعطيه للفقراء والسـادات، أو أحضره لى ودلنى عليه أو قل لأم إبراهيم على ذلك.

وجن الليـل، وذهبت لأنام إذ أننى لم أنم منـذ عـدة أيام، وفجأة أتت محبوبة فى سرور تام.

قالت: هناك بشرى يا عمى العزيز.

قلت : ما الخبر؟

قالت : لقد أعطيته أربعة أقداح من اللبن فشربها.

قلت: كيف؟ وأى شىء شربه؟

قالت : أى والله بداية شـربت أنا فرآنى أشـرب فرغب هو فى ذلك.

قلت: لا شك أن طعامك قوة له، وطعـامه قوة لك، بارك الله يجب أن نأكل وأن نطعم.

سألت: هل نام؟

قالت: أجل نام حبيبى، ولكنـنى لا أستطيع أن أنام دقيقة، ولا يأتى النوم إلى جـفنى قط. عمى العزيز قل للـطباخ أن يطبخ قدراً من الأرز باللبن لكى آكلة فربما أطعمه لسيدى أيضًا.

قلت: لا بأس، وذهبت إلى المريض فرأيتــه نائمًا، وبدا لى أن حالته أفضل من الأمس وقالت والدة إبراهيم لسكينة:

أخبـرى الطبـاخ أن يطهى أرزًا باللبن، وحان وقت الغـذاء وكان قـد وضع إناءً به أرزًا باللبن، وجلست. وأجلست محـبوبة إبراهيم بيـك على كـرسى، إذ تريد المـسكينة أن تعطى الملـعـقـة لإبراهيم بيك وهو لا يستطيع أن يمسك بهـا، وأمسكت هى بيده والملعقة مـثل طفل صغير عمره عـام وكانت يده ترتعش، وكانت تريد أن تضـعها بالقـوة فى حلقة فلم تـستطع، وحينًـا كان يأكل نصف ملعقـة ولعلها كانت تريد أن تفهـمه أن كُل أنت على هذا النحو.

وبدت محبـوبة مثل وردة حمراء وظهر العرق على جـبينها مثل حبات اللؤلؤ، وكانت الدموع تتساقط من عينيها دمعة دمعة. وكان جسدها يرتعش مثل صفصافة فى مهب الريح، ونست الفتاة الخجل والحياء تمامًا وكأنها فى منأى عنه قط.

ورق قلب أم إبراهيم لها وأخذت هى بدورها تبكى وراحت تنظر مبتسمة، واحتارت ودهشت لمحبة محبوبة الزائدة وكانت كل حواس هذه الفتاة المسكينة منحصرة فى شىء واحد وهو أن تطعمه ملعقة من الأرز باللبن، حتى لو أن النار اشـتعلت بمحبوبة أو قطع جسدها لم تكن لتحس بذلك.

وكانت تقـول: كُل يا سيدى الحـبيب، فلم تأكل فى إيران أرزًا باللبن، ووضعت محـبوبة بسرعة الملعقـة بين شفتى إبراهيم، وفـتح إبراهيم فـمه وقـال: يا حق يا مـدد، وأكل الأرز باللبن، وكـانت تضع محـبوبة بسـرعة شـديدة الملعـقة فى فـمه، حـتى اسـتطاعت أن تطعـمه مـا بين خـمس أو ست مـلاعق، وهكذا فرحـت وسُرت ولعلهـا قائد وفـتح قلعة عـدو بشجـاعة وغـيرة فائقتين، وكـانت تجتهد بكل وسعها فى ذلك الأمـر وكانت تشير إلىّ فقلت مبتسمًا.

أحضرى المنديل ونظفى فمه.

وكان إبراهيم بيك ينظر إلى محبوبة دهشًا، وحينًا ينظر إلى أمه.

وإجمالاً فبسبب الفرحة بإطعام الأرز باللبن اعتبرت محبوبة هذا اليوم (**عيد الأرز باللبن**) وتظهر السعادة فى كل سنة فى هذا اليوم ولكن لم تكن تعرف أن اسم إيران هو سبب فتح فم إبراهيم بيك. إذ أكل ما بين أربـع أو خمس ملاعق، وبعـد ذلك حيثـما أكل إبراهيم أم لم يأكل فـقد كـانت محـبوبة فى غـاية السـعادة والشكر من توفيقها، وأتت وقبلت يد والدة إبراهيم.

ورأيت أننى لا أستطيع التحكم فى زمام نفـسى، فتوجهت صوب حجرتى وأخذت أبكى لمدة نصف ساعة. واليوم أدركت ما هو عالم محبوبة.

الخلاصة : مر من الليل ساعتان وأتى الحاج محسن آقا والحاج . . . . التبريزى، وسألا عن الأحوال؟

قلت: الحمد لله مريضنا اليوم أحسن.

قالا: لنذهب إلى إبراهيم بيك.

قلت: استريحا فالسيدات هناك أيضًا.

واتجهنا إلى المقصورة، وبعد أحاديث متفرقة قال الحاج محسن آقا: حدثنا عن أحوال السفر لنرى ماذا قلتم وماذا سمعتم وماذا رأيتم؟

قلت : بالأمس تحدثت وكان الحديث سيئًا قليلاً، وفى (مشهد) المقدسة التمست أن نعود وأن لا تكون نهاية هذا السفر سيئة لى، فبدت سيئة له. وكنت أخشى أن لا يصل بالسلامة إلى مصر. فالحمد لله والشكر أننى أتيت بجسمه الهزيل المتعب وسلمته إلى أمه. وقد ضرب ضربًا مبرحًا فى إيران وقد أخفى ذلك عنى.

وكما تحدثت أننى قرأت هذه الحادثة فى إسلامبول فى الرحلة، واطلعت عليها، وقد تسبب الحاج خان السيئ الحظ فى كل هذه المنغصات.

وسأل ميرزا عباس: ما حكاية الحاج خان؟ فبالأمس قلت أنك تعرفه.

قلت : أجل إنكم تعرفون الحاج خان أى حاج خان . . . الحاج خان هذا الحاج خان هو عقيد إيرانى، صاحب الوسامين، صلوا عليه.

قال: هذا كاف يا يوسف، دعك من العادات القديمة وتحدث لنرى من هو؟

قلت: صلوا عليه ثانية بصوت أعلى مما سبق، فالحاج خان هو نفسه الحاج خان أى الملا محمد على الأعمى والأقرع والذى كان قد أتى منذ عدة أعوام مع الحاج جعفر وآقا تبريزى وثلاثة آخرون واستضافهم الحاج المرحوم لمدة أربعة أيام.

قالوا : يا والدنا من هو الملا محمد على؟

قلت: ذلك القصير القامة والذى كان يضرب الصاجات ويلفها تحت إبطه ويقفز هنا وهناك ويثرثر بكلمات هزلية مازحة.

قالوا : نعم عرفناه، ذلك الثرثار.

قلت (مقاطعًا) : نعم لقد احترمنا كثيرًا، واستضافنا، والآن أصبح صاحب نيشان، ولُقب بالخان، ويكتب إبراهيم بيك فى كتاب الرحلة أسباب لقائه وهو الذى أرسل هذا المسكين (إبراهيم) إلى منازل الوزراء، فضربوه وسرقوا عباءته وساعته. ولم أكن أعرف بذلك أبدًا.

قالوا : عالم عجيب؟

قلت : بل إنه عجب أكثر من العالم. وليس وحده الحاج خان، فالعابثون أمثاله من الدمى كثيرون، ويوجد الكثير من المطربين والراقصين الذين أصبحوا ذوى نفوذ ورأى لدى الأمراء والوزراء، وجميعهم لهم ألقاب الخان والمعتمد وصار كل واحد منهم صاحب ثروة كبيرة. علاوة على أن الخان يحمى خمسين شخصًا. فيعتدون على حقوق الفقراء والضعفاء، وأقل الأذى أن يسيروا وفقًا لهواهم الشخصى ولا يعبأون بشخص ظلموه.

وقد عرف البيك الحاج خان على الفور، وقد علمت أنا بأخبار أخرى ولكننى منعت أخبار مشهدى حسن لتصل إبراهيم بيك، من ذلك ما عرفته من أخبار أصحاب العمم الذين هم سخرية الأمراء والوزراء.

وكنت أذهب أكثر من مشهدى حسن لمشاهدة الدروب والأسواق، وذات يوم رأيت فجأة شخصًا مُعممًا غريب الشكل ذا جسم ضخم، الخصر والبطن عاريان، له سرة كبيرة مثل نبات الجوز، ويرتدى ملابس داخلية مهلهلة رُبطت أسفل البطن، وكان رباط الملابس الداخلية تتدلى حتى الركبة، ووضع يده أسفل قميصه بجوار البطن.

فنظرت له مندهشًا وسألت متحيرًا: من هذا الرجل الغريب الأطوار؟

قال: مشهدى حسن: انظر جيداً لشكله وهندامه.

قلت: تحدث على الفور لنرى ما صورة الشيطان هذه، ومن هذا صاحب الهيكل الغريب؟

قال: اهدأ يا والدى فهذا هو الشخص الأول فى إيران، وتعال لنذهب إلى المقهى لأحكى لك وشيئًا فشيئًا ذهبنا إلى المقهى.

قال مشهدى حسن: هذا الشخص الغريب الأطوار هو من أمثال الحاج خان صديقنا. ولكن اعلم هذا أن الحاج خان لا يبالى بشخص آخر فى هذه المدينة إلا بهذا الرجل.

قلت: ما الموضوع؟

قال: إنه مهرج عجيب ومسخرة ومقلد غريب. فهو يتحدث للصدر الأعظم والوزراء بحديث قبيح وفاحش، ويضحك الجميع فيأخذ منهم على قول السوء من الحديث أموالاً. وقد بلغت ثروته ثلاثين ألف تومان. وهو يقوم بقراءة الروضة إذ أن له تكية، ويأخذ المال من الأمراء ويعطيها للفقراء، إذ أنه يأخذ ما بين ثلاثين أو أربعين ألف تومان بالقوة من أولئك، وهو يعطى جزءاً للفقراء والباقى يضعه فى جيبه، واسمه المبارك الشيخ شيبور، ويعرفه الجميع. وهو لديهم شخص وقح.

وكان قد تفوّه بحديث غير ملائم، وعلى الفور أمروا بقتله، فهرب وتحصن فى مقبرة حضرة الشاه عبدالعظيم والتمس نفس هؤلاء الأمراء والوزراء العفو له، فعفا عنه الملك وخرج من تحصنه، وعلم منذ ذلك الوقت أن المسجد ليس مكانًا للهو، والأساليب التى يمتلكها هذا الرجل لا يحظى بها أحد من المقلدين والمهرجين فى هذه المدينة أولاً فقد حصل العلم بشكل أو بآخر (**ولكنه مثل الحمار يحمل أسفاراً**).

ثانيًا: وهو يجيد تقليد الجمل والخروف والقطة والكلب لدرجة لا يمكن أن نفرق بين هذا التقليد والأصل والشخص الذى لا يستطيع أن يميز الأصل عن التقليد فإنه يستغل هذا الأحمق أكثر من الآخرين جميعًا. وأصبح جميع الوزراء والأعيان مشغوفين بصفاته وخصاله، مثلاً أصبحت خصيتاه السبب الرئيسى لارتزاقه ومعيشته، وكل خصية فى حجم بيضة الجمل، وهما معلقتان بين فخذيه. وهو يبعد قدميه عن بعضهما مقدار أربع خطوات، ويحرك نفسه إلى الخلف وإلى الأمام فتصطدم خصيته الميتة مرة بالبطن ومرة أخرى بمقعده، فيحدث ذلك صوتًا عاليًا، فينهار أكثر الناس من الضحك، وأصبح اسم هذه الدعابة المضحكة (**شاب شوب**) أو (**شلف لف**)، وهو يعيش على هذه الألاعيب المهرجة ويتوقف دخله الشهرى عليها. ووصل ما يمتلكه ثلاثون ألف تومان. هذا هو حساب ميزانية ضرائب إيران؟! وهذا

هو تهذيب أخلاق أهل إيران، خاصة الوزراء والأعيان والأمراء ورجال البلاط الإيرانيين.

وصاحبنا الحاج خان المسكين غير معروف بسبب هذه الأساليب، لذلك لا يمكن للرقابة الاستدلال عليه، وهى لا تستطيع أن تفعل له شيئًا إلا بمقابلة، لهذا فهى تصل إليه بكثير من التملق والنفاق، ولكن عليها أن تنتظر الفرصة، كما قال لى يومًا.

يا مشهدى حسن ينبغى أن تجد حيلة مع الشيخ شيبور هذا.

قلت: يا حاج خان أنت لا تملك وسائل (الشاب شوب)

قال: لا يا والدى إن شهرته ليست بفضل هذه اللعبة ولكن شهرته بسبب أنه يعطى الفقراء والدراويش، فأرسل أنت بعض الأشخاص الذين يذهبون ويحدثون الجلبة فى السوق أرسلهم لكى يأتوا إلىّ، فربما بهذه الحيلة أستطيع أن أفعل شيئًا.

وأرسلت أنا بالفعل إليه بعض الدراويش والدجالين والسوقة غريبى الأطوار، ومنح هذا المسكين تقريبًا مبلغ تسعين تومانًا نفاقًا ورياءً إلى هذا النوع من الأشخاص.

وذات يوم سأل: هل يتحدثون فى الأسواق الأربعة عن إحسانى وإنعامى وسخائى؟

قلت : لم أسمع شيئًا. ومن ثم فقد ترك هذه الحيلة أو هذا الرياء.

الخلاصة : أن هذا النوع من المعممين بالخزى لديهم جميعًا ألقاب عظيمة يلقبون بها.

وكما أشار ذات يوم مشهدى حسن إلى واحد وقال: هذا سيف الذاكرين، الآن يتوجه لكى يقرأ الروضة فإذا ما جن الليل يقوم بالأعمال البهلوانية فى مجلس الأمراء.

قال الحاج . . . التبريزى : أصدقنى القول يا يوسف آقا لأرى هل رأيت فى تبريز أى شكل من أشكال العبث هذه؟

قلت: على الرغم من أننى لم أر أى شكل من أشكال العبث القذرة هذه لكننى رأيت أهل ديبه الذية كانوا يقولون ذلك.

قال الحاج: لا يمكن مقارنتها بهذه الألاعيب قط، فأولئك يمزحون ويداعبون.

قلت: اسمح لى أيها الحاج العزيز لقد أكرمتونا فى بيتكم كثيراً، كما بالغ أخوك فى محبتنا والحفاوة بنا. وأنا شاكر وممنون للغاية، لهذا فإننى أخجل أن أذكر كل شىء. وإلا فهناك عيوب أكثر من هذه. ورأيت علانية أهل ديبه يحطون من شأن الدين والمذهب، وعلى الرغم من أننى رأيتها، فلو كان رآها إبراهيم بيك، فبلا شك كانت قامت الدنيا ولم تقعد، وصنع من ذلك قضية وانعكس خجله وصدمته على أخيك.

قال الحاج: هذا هلاكى تحدث ماذا رأيت؟

قلت: ذات يوم كان قد خرج إبراهيم بيك بصحبة أخيك، وخرجت أنا أيضًا مع الميرزا لكى نتجول، ومررنا بحافة المسجد، فقال ميرزا حبيب كاتبكم، أرغب أن نذهب إلى المسجد؟

قلت : لا بأس

(من الضرورى رؤية كل شىء جدير بالرؤية لم نره).

ولم أكن قد رأيت وضع مساجد تبريز بعد، فذهبنا وجلسنا، فشيئًا شيئًا تجمع الناس وصعد أحد الملات على المنبر وجلس فى وقار تام، فسألت الميرزا عن اسمه.

قال : إن الملا أقا ميرزا حسن أراد أن يبدأ بإلقاء الخطبة، وبمجرد أن فتح فاه ليقول الحمد لله، صاح ما يقرب من مائتى شخص فى صوت عال قائلين اللهم صلى على . . . .

أراد الملا أن يقول رب العالمين فكرروا ثانية ما قالوه أول مرة، وأراد أن يقول بسم الله ارتفع صوت الصلاة والثناء، فأخذت أنظر حولى متحيراً ماذا يعنى هذا؟ يريد الواعظ أن يفتح فمه يمنعه صوت صلواته؟! فهذا لم يقل كلمة واحدة، فهو لا يقول كلمة إلا ويهلل الناس بالصلوات، ونظرت أمامى فرأيت أن الجميع كانوا يضحكون، وفى تلك الأثناء اعتلى المنبر أربعة أفراد، وصاحوا بصوت عال فى وسط المسجد :

أيها السيد طالما أن صوتكم يسمعه جميع الأفراد، فمن الأفضل أن تستقروا فى هذا المكان.

فسألت الميرزا متحيراً ما هذه الجبلة؟ قال إن أهل ديبه ربما يضربون المسجد برءوسهم.

قلت: قم لنذهب، فالشماتة تليق بهذا النوع من العباد وبمقر العبادة، فأى إسلام هذا؟ فقد جعلوا من بيت الله مسرحًا، ولا يوجد بين هؤلاء جميعًا شخص غيور أو مسلم حق. ما قلة الأدب هذه؟ وما هذه الحكومة الشرعية؟ وما ألاعيب العلماء هذه؟

فلو حدثت واحداً من هؤلاء المريدين بشىء من الشدة عن يوم الحساب، فإنهم يتدفقون، ويتضاربون ويتقاتلون وبذلك فإنهم يقللون من شأن الشريعة، وهم يقومون بهذا القدر من قلة الأدب والوقاحة فى بيت الله وفى مدينة مشهورة بالإسلام وهى قبة الإسلام أيضًا، ولا يسأل واحد ما هذا العمل القبيح؟ فلو ظهر واحد من بينهم من البروتستانت فى زى الإسلام ليرى هذا فماذا سيقول؟ لا شك أن انتقاده سوف يزداد قائلاً: من هذا النوع من الدين والتدين الضعيف إنهم يقتلون مذهبهم ودينهم.

إنهم بهذا الشكل يتبعون مذهب الباب الذين يسيرون وراء كل نوع من الحجج والذرائع. فأى حديث سيقولونه هل لن يقول إن قدر محمد (ص) وآله وقيمته وشأنه ومنزلة المذهب الطاهر قد

ساءت كثيراً؟! وإنه بهذا الشكل يصير المذهب حقيراً ولا قيمة لا في أنظار المواطنين والأجانب. وإنكم حزتم الوسائل المضحكة والمخزية؟ فما وضع الموعظة هذا وما أساليب التعزية هذه؟ وأين حرمة المعبد هذه؟ أننا أصبحنا يومًا بعد يوم أسرى هذه الأيام السوداء.

(لو أن الإسلام هو هذا فليحفظنا الله)

(واحسرتاه لو أتى بعد اليوم غد)

(خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين)، وليخبر الله المسلمين بشكوانا، وليرحم الإسلام.

(ازدياد الكفر من اضطرابنا)

(وعمار الخمارة فى خرابنا)

(وليس للإسلام عيب فى ذاته)

(والعيب فى إسلامنا نحن)

وأخذ الحاج يضحك بصوت عال وكان يقول: تحدث يا يوسف آقا لنرى أى شخص آخر رأيته.

قلت: ما أقوله أنت تعلمه أفضل منى فى مساجد إيران ومنابرها خاصة تبريز، فيالها من فضائح؟ ولا أدرى فى أمر؟ فربما

جعل الأهالى المسجد مجانًا، وقد اعتبر رجال الدين مكانًا للبيع والشراء، وبمجرد أن دخل المسكين المسجد، برك جالسًا كجمل لمدة خمس ساعات، فهذان واعظان، وهؤلاء أربعة أفراد من قراء الروضة، وهذه جماعة من التلاميذ، يصعد واحد وينزل آخر، ولو يطلب شخص من أحد الجالسين بمقتضى الطبيعة البشرية مطلبًا كأن يحصل أمرًا فاته فكأنه يرتد عن دين الإسلام والشريعة، فهو يصيح من فوق المنبر بشكل مذر.

(أيها الخبيث لا تعكر المجلس أى اجلس واستمع لما يصدر من فمى من خير أو شر أو من صدق أو كذب، وصدق ما أقوله من قبح أو حسن وفى النهاية أحسن إلىّ بشىء من فضة أو متاع لديك).

فهم لا يفهمون ولا يُرى حسن تمييز فى أخلاقهم لتمييز الصدق من الكذب أو لتمييز الحق عن الباطل.

وكما أنتم تعلمون جيدًا، لا يوجد فى تبريز ثقافة ولا حكومة ولا عقل، ولا مروءة، ولا عدل، وأى مخرب للدين والمذهب يهودى السيرة متظاهر بالإسلام، وأى مخالفات عقلية وشرعية سمعتهم عنها وأنها كتبت على الورق كل هذه النماذج موجودة فى إيران وهم يعتقدون فى هذا ويظهرون ذلك بقولهم أن من لا يعتقد فى هذه الخرافات فهو كافر، وهو برئ من المذهب

والدين. وهم لا يعبئون بشيء قط فأى خيانة عظمى للإسلام والمسلمين، ويعتبرون أن كل ما يقوله قراء الروضة الجهلاء والملات أمثالهم ولا تصدقه أنت فأنت كافر.

والمملكة الإيرانية بهذه العظمة؟ ورائد هذا الحوض بهذه العظمة؟ وفى الحوض أسماك بهذه العظمة؟ وعيون الأسماك حمراء بهذه العظمة وهذه القيمة، وكل من يعطى هذه الملا مالاً سوف يكون مثله.

ولا شك أن القدرة الكاملة للقادر المتعال زيادة عن ذلك وهى تزيد عن الحد والبيان، ولكن ليس لها دخل بتصديق هذا النوع من الخرافات.

وقد بين العلماء الأعلام والفقهاء الكرام رضوان الله عليهم وأكثر الله من أمثالهم أن أحكام الشريعة المطهرة وفروع الدين واجبة على كل مؤمن ومؤمنة ومسلم ومسلمة، فأثاب من يعمل بها ويؤمن بها أيضًا وعاقب من يتركها وجرمه، ومع وجود هذه الأحكام والأوامر النبوية يرون أن الأحاديث ظنية غير مؤكدة، ولا يعتبرون أيًا منها مؤكد.

فى النهاية كيف اعتبر رجال ديننا هؤلاء بجرأة أن ما يكتب الملا بو معلى كاللوح المنزل، واعتبروا أشعار الشاعر الفلانى فى مرتبة بعد أوامر الإمام؟

وأجر تلاوة التعـزية فى حضرة سيـد الشهداء (ع) أكثر من ذلك ويمكن إيضـاحها بذكـرها، ولكنهم يعتـبرون هذا مـثلاً من أقوال ذلك الحضرة: إن كل من يكذب على لسـانى فإن جفاءه لا يقل عن من جفاه (شمر) عليه اللعنة. وهذه الأخبار الكاذبة على ألسنة أئمة (عليهـم السلام) من رواة غـير معـروفين مـثل: أبى الخطاب، محـمد بن أبى زينب، أبى شاكر مـيمون، ومغـيرة ابن سعـيد، والمولى صالح بن عـبد القـدون الأزدى، على بن جمل السمالى، ويحى بن زياد عجز، وحـمل بن محفوظ وفلان وفلان وفـلان والذين كانوا جـمـيعًـا عن علم وعـمد مـخـربين للدين والشريعة عندنا. وهم يقولون للعامة والخاصة هذه الأحاديث دون أن يخجلوا، والواقع أن آلاف الأحاديث المعروفة قد نسبها بنو أمية لعنهم الله لآل الرسول (ص) ظلمًا وعدوانًا، وبهذا الشكل فإنهم يقللون من شـأن آل الرسـول (ص) بالأخذ بأقـوال هؤلاء الرواة المغمورين.

ولا يمكن لأحد أن يقـول لأولئك ما هذه الخـرافات؟ التى تقولونـها على منبـر الرسول (ص)؟ وكل من يسـمع يقول: لا يمكن أن نقول شيئًا فى رحـاب سيد الشهداء، وذنب جرأة هؤلاء فى رقبة رؤساء الشعب ورجال دين هذه الأمة. وإن كل من عصى الرسول وتمرد عليه فـوق منبره فإنه يتجرأ بالخـرافات على الأوامر النبـيلة لقدوة المـقتـدين وأصدق الصـادقـين، والأهالى جمـيعًـا

يستمعـون لذلك، وما الفائدة فإن أمورنا الشرعية اليـوم تعد عدمًا أمام القانون الصحيح الذى هو أساس حياة الملك والشعب.

ولو أخذ بهذا الـقانون لاستفاد منه قـارئ الروضة والواعظ والحكام والأعيان جميعًا.

وضحك الحـاج بصوت عـال وقال: مـاذا فى جعبـتك من تبريز يا سيد يوسف؟ تحدث لنسمع.

قلت: إنك تعلمه أفضل منى، فتحدث أنت أيضًا قليلاً.

قال: إنه هلاكى تحـدث .. تحدث، وكان يضحك الجـميع من إصرار الحاج وأحاديثى.

قلت: يا والدى سـاعـدنى أنت وبـين لنا بوصـفك حـتى نستفيض.

قال الحاج: أنا خرجت من تبريز منذ زمن، ونسيت أوضاع الأقاليم، فلم أر تغيرًا أو تبديلاً جديدًا.

قلت: لقد رأيت تبـريز منذ سـتـة وأربعين عامًـا والآن فإن تجملـها يزيد عن الوصف. البـيوت زاخرة بالمـصابيح التى تشـبه شقائق النعـمان والفوانيس الكبيـرة، والمصابيح الكبيرة والصـغيرة والقاعات الزجاجـية، وما أصفه من عظمة أهل تبـريز وجبروتهم قليل من كثير.

ولكن الوحـدة والمحبـة بينهم مـفقـودة، والنفاق والعـداوة والحسد بينهم موجود.

فكرر الحاج ثانية القول . . تحدث أيضًا.

قلت: ليس بوسعى بعد، وقد أحزننى لدرجة الموت، وهذا القدر من الوصف فى شأن مـدينة تبريز بلدكم لكاف. ومع عظمة هذه المدينة فليس فيها صحيفة واحدة أو مدرسة واحدة.

فإن شرف كل شـعب منوط بهاتين الركيزتـين وهما أساس السعادة، وفكر أنت وكن عـادلاً فقد نظم **(شيبانى)** شعرًا جـيدًا ووصف جميع أهل إيران وأهل تبريز.

وسأل الحاج : ماذا قلت؟

قلت: يا حـاج مسعـود بين الكتب مجلد أخـضر أحـضره واعطه لميرزا عباس لكى يقرأه الحاج آقا.

ذهب الحاج مسعود وأحضره، ففـتحه وأشرت لميرزا عباس أن اقرأ من هنا، فقرأ هذه الأشعار :

(فكر ولا تجلس من أجـل العـمـامـة ... وابحث عن حـيلة لإجازة ذلك).

(قم وارتد نعلك باليد ولكن ... امسك العصا أيضًا)

(ودس بقدمك جميع الناس ... وخذ العاطل بالباطل)

(ولا تخشى من أى شعب وجنس .. خاصة أهل تبريز)

(فلا حـزن بعد ذلك ولا هم قبـل ذلك أصلاً .. من لندن أو باريس)

استسلم للقضاء والقدر، واثبت ولا تنظر إلى شيء آخر

فإذا جاء المصباح الزجاجى من لندن وباريس

(حينئذ علقه بالقاعة إذا ... جاء وتهيأ).

قلت: يوسف إن شاء الله احـفظ هذه الأشعار كلهـا فإننى سوف أقـولها لإبراهيم بيك مخـبراً أن العم يوسف واسع الاطلاع فى مادة تبريز، وقد قال فيها كثيراً. وضحك بصوت عال وقلت: ألا تعلم أن البيك نفسه قد كتب فى الرحلة الكثير من هذا؟

وطلبت أنا من مـيرزاكم أن يخـفى حقـيقـة المسجـد عنه، والبيك نفسه هو الذى أراد أن يذهب إلى المسـجد، وحاولت منعه بحيلة فلم أفلح، وسوف أكـتب كل هذا أنا بنفسى، وإن شاء الله سوف أقـدمه له بعـد أن يتماثـل للشفاء، وقـد أعطى الرحلة إلى المطبعة لتطبع ولكنه لم يطـبعها بسبب مرضـه فى إسلامبول، وإن شاء الله سوف تطبع هنا.

قال ميرزا عباس: أين رحلة إبراهيم بيك.

قلت: لا أعرف وربما يستاء البيك.

قال: ماذا تتصور، أتراه يخفى عنى شيئًا فيستاء من رؤيتى لسياحته.

قلت : أعطيك إياها شريطة أن لا يعرف أحد بها.

قال: سمعًا وطاعة ولكن الحاج محسن آقا هو كواحد منا، ولا أخرجها لأحد غيره.

قلت: يا حاج مسعود احضر مخطوط الأوراق التى فى حقيبة ملابسى، فذهب وأحضرها، وأوصيته ثانية: انظر إن الأرقام السفلى والعليا لن تظل هكذا.

قال: لا استرح، وتحدثنا بعضًا من الوقت فى أحاديث متفرقة، ونهضوا ليرحلوا. قال ميرزا عباس: بعد ليلة غد يأتى عندى الحاج محسن آقا والحاج ... آقا وتعالوا أنتم لنتحدث قليلاً، فقبلت، وذهبوا.

وبعد توديعهم عدت ونظرت بهدوء فرأيت أن النوم قد غلب والدة إبراهيم، فجلست ونامت ويبدو أن إبراهيم بيك قد نام، لكن محبوبة جلست ترقب إبراهيم بيك، وعدت أنا ونمت واستيقظت فى الصباح وصليت ركعتى العبادة، وبعد تلاوة بعض الأحاديث، ذهبت فرأيت والدة إبراهيم مشغولة بالصلاة فى حجرة سكينة، فتوجهت إلى حجرة إبراهيم، فرأيت محبوبة قد جلست بجانب وسادة المريض، فسألت عن الأحوال؟

قالت : لقد نام منذ أول الليل.

قلت: وكيف أنت؟

قالت: لم أنم.

قلت: شيء عجيب أن لا يتأتى النوم لشخص؟

قالت: ماذا أفعل فهو ليس بيدى.

فسأل: أكل شيئًا؟

قالت: أعطيته لبنًا والشكر لله فقد شرب كثيراً.

قلت: يا له من أمر عجيب؟

قالت: لقد بكى حبيبى فقالت لو كنت أعلم بما سيحدث لك، لم أتركك تذهب إلى إيران. قال إبراهيم بيك:

(يا حق يا مدد)

قلت: وماذا أكلت أنت؟

قالت : لقد أحضروا أرزًا لحبيبى، فأكلت مع سكينة هانم.

قلت: قولى يا محبوبة إلى سكينة هانم أن تطهوا قطعتين أو ثلاثة من اللحم المفروم جيداً وامسكى هذا الطعام وقولى كُل من أجل حبيبك الشخص المحترم(*)، ولا ترفض، فبلا شك سوف يأكل لمجرد سماع اسمه. . ولن يرفض.

* ورد اسم هذه الشخصية فى الجزء الأول من الرحلة [المترجم].

سألت محبوبة : من هو الشخص المحترم؟ أهو رجل أم امرأة.

قلت: استريحى إنه رجل، فهو من الأشخاص العظام وهو أيضًا من المخلصين للدولة الإيرانية، فهو يؤمن بذلك ويحبه.

قالت: يا عم يوسف ينبغى أن تسمى حبيبة هذا بالمحترمة وليس المحترم؟

قلت: أيتها الصغيرة هذا الوقت لا حرج فيه، فينبغى أن يأكل المريض بأى شكل وبأية حيلة، ولا مجال هنا للأخطاء اللغوية واللفظية، وفى هذا الموضع الغرض الرئيسى لمحبوبة هانم هو التلميح بالذكور والإناث.

وعلى الرغم من أن تعبيره كان صحيحًا وفى محله **(إلا أنها أرادت أن تعرف إن كان لها عزول أم لا)** لكننى تظاهرت بعدم الفهم، وذهبت للإشراف على شعير الجياد وعلفها فى الحظيرة، وينبغى مراقبة ناظر الحساب على الرغم من أن هذا الناظر هو الموثوق به لدى المرحوم الحاج وإبراهيم بيك، ومع وجود هذا المحاسب فهو أيضًا مشغول بعمله.

وبينما كنت بالحديقة أتى الحاج مسعود ليقول إن الطبيب صالح أفندى قد حضر.

قلت: ليأتى الحديقة، فجاء وأخذ يسألنى.

قلت: نام هذه الليلة جيدًا، وبالأمس أكل بعضًا من الأرز باللبن، واليوم أوصيت أن يعدوا له لحمًا مفرومًا فهو لا يضر.

قال: لا يضر أبدًا، فلا عيب فيما يرغب فيه.

وسأل: أين والدة إبراهيم؟

قلت: عند إبراهيم بيك.

قال: نادى عليها لتأتى إلى هذه الكنبة، فأخبرها الحاج مسعود، فأتت، وذهبنا سويًا، وسأل الطبيب عن الأحوال؟

قالت: البيك بخير ولكن أى خير، إنه لا يتحرك ولا يتكلم، ولو بقى على هذا الحال، فلا أدرى ماذا أصنع.

قال الطبيب: ليس أمامنا سوى الصبر، وإن شاء الله فإن الطبيب الدائم المتعالى سوف يمن عليه بالشفاء بدواء ألطافه، وسيحاول جسمه استرداد عافيته بدفع المرض شيئًا فشيئًا، لكن عليكم بالاهتمام بهذا وهو أن تطعموه بأى شكل من الأشكال ولا تتركوا معدته خالية، وسأعيد كتابة دواء الشراب، فاعطوه له بدون حليب.

واليوم فقد رآنى الشيخ يوسف السيد. وقال: إن **(مسيو وولف)** قال احلقوا شعر رأس المريض، ومن وجهة نظرى ففى ذلك خير، فلو لم يعد ذلك بفائدة، فلا ضرر منه، فلو تأذنوا لى، أرسل لكم حلاقًا حتى يحلق رأسه.

قالت والدة إبراهيم : يا صالح أفندى أنا أريد السلامة والشفاء لابنى، ولن أتدخل فى هذا الأمر، وسوف أكون شاكرة لأى وسيلة يكون بها شفاؤه.

فأرسلنا إلى الدلاك فأتى، وذهبنا إلى حجرة المريض، وقد استلقى المريض على ظهره صامتًا حيث جلست الممرضة المسكينة، وقد وصلت الساعة الرابعة مساءً ولم تنم محبوبة لحظة واحدة ونهضت عندما رأتنا، وألقت التحية على الطبيب (**وكان لسان حالها يشكر الطبيب أنه أسند إليها مهمة تمريض المريض والإشراف عليه**).

وسأل الطبيب محبوبة عن الأحوال:

قالت محبوبة : نام طوال الليل.

سأل: أكل اليوم شيئًا؟ أجابت نعم لقد أعطيته لحمًا مفرومًا وأكل بعضًا منه، فسألت أنا كيف أكل؟

قالت: بداية رفض أن يأكل ثم عدل عن رأيه بعد أن أخذت بمشورتك وحيلتك.

سأل الطبيب: وما هذه الحيلة؟

قلت: إن حضرة البيك يعشق شيئين فقط، فلو كان نائمًا أو مغمى عليه، عند سماع كلمة من هاتين الكلمتين فإنه يقول:

(يا حق يا مـدد)، وأى شىء ترغب أن تعطيـه له يقـبله بدون أى مضـايقة، الشىء الأول: اسم إيران، والثانى: الشخص المحـترم، وفى تلك الأثناء فتح المريض عينيه وقال:

(يا حق يا مدد)

قال صالح أفندى: نعم لقـد أشاروا فى علم الطب إلى هذا الموضوع، وكتب موسيو الإيطالى شرحًا فى هذا المضمار فحواه أن المريض فى مـثل هذه الحالة يكون جـسمـه من أحشـاء وأعضـاء وأعصاب كلها تكون مشغولة بذلك الأمر.

الخـلاصـة : أتى الحـلاق، وبمجرد أن رأت مـحبـوبة هذا الرجل انتفضت من مكانها مذعورة.

قالت : عزيزى الحلاق لماذا جئت؟

قلنا : من أجل حلق رأس البيك، فغلبها البكاء ثم قالت لا تحلق له.

قال الطبـيب: أيتها الهانم الصـغيرة اهدئى، فهذا لمصـلحته ولن يضره، وادخلى أنت حجرتك، فنهضت فى صمت وأخذتها إلى غرفتها، بينما تقف سكينة وأمـها تنظران وأتى الحاج مسعود، ووضعتـه فى مواجهة المريض حيث أمسك بيـديه، وشغل الحلاق بعمله ونظر المريض المسكين فـى استسلام، وأتت محـبوبة خلف الباب فنظرت وقالت:

خفف شعر رأسه ولا تشق على المريض.

قال الطبيب: خذها إلى حجرتها يا ميرزا يوسف ولا تدعها تنظر.

وأتيت وقلت: أيتها الصغيرة لله الحمد أنك تدركين أنه لا يجوز استجواب الطبيب فى علاج المريض، فلماذا هذا القدر من الإلحاح؟ فدعى كل ما يعمله الطبيب يقوم به تعالى لنذهب.

الخلاصة : حلق الحلاق رأس المريض وذهب بالفوطة ليلقى ما بها فى الفناء، فنهضت محبوبة مسرعة وتقدمت الحلاق وأحضرت منديلاً بهدوء وقالت، اسكب الشعر هنا فى المنديل، ضعه واذهب.

وكتب صالح أفندى روشتة الشراب ونهض ورحل، ورأيت محبوبة وقد اقتربت من الطبيب، فظننت أنها أتت شاكرة أو للتوديع، ورحل الطبيب وعاد ثانية وقت الغروب، وظننت أنه أتى لمعالجته وبعد أداء التحية ألقى السلام، وقال: لتأتى والدة إبراهيم بيك إلى المقصورة، فأخبرناها وأتت.

قال الطبيب: أيتها الحاجة أثناء مغادرتى، اقتربت منى محبوبة، فظننت أنها جاءت لتوديعى، وأخرجت علبة من تحت حجابها وقالت خذ هذه الهدية لأولادك، فظننت أن فى ذلك حلوى أحضرها إبراهيم بيك من تبريز. وأخذتها إلى المنزل،

وعندما فتحت العلبة، اتضح أننى أخطأت، وعلى الفور جئت لأخبركم، ومحبوبة مع كل هذا فقد فقدت وعيها وذكاء عقلها، فلو علم ضاربو الودع المصريون والدجالون الأقباط بحالها، لأرسلوا النساء الدلالات العجائز لكى يوهمنها بصيد الطائر من الهواء والأسماك من الماء كدعاء لابد منه للمريض بدلاً من الدواء.

وفى بضعة أيام يخدعنها بإمساك الجن الذين يتخفون تحت الشجرة وأوصلوا المريض لهذا المرض، وأنهن أحضرن ملك الجن وأخذت عليه عهدًا وميثاقًا بأن لا يعود إلى هذا المريض ثانية.

وهذه المسكينة نظرًا لشدة حبها وعشقها سوف تأخذ بهذه الأحاديث الجوفاء لأولئك الدجالين تلك الترهات التى فيها خراب للأسرة، فهى تضيع مالها بغية تحقيق هذا الأمر.

والآن، فإن تلك المسكينة لا تفكر فى أى شىء إلا فى عشقها لإبراهيم بيك وولعها به. فلا قيمة لمال أو آمال فى نظرها، وأخرج العلبة وفتحها، فكان بها خاتم ثمنه ١٨ ليرة، ودلاية للصدر قيمتها ٣٢ ليرة، وضفيرة من اللؤلؤ ثمنها عشر ليرات، بالإضافة إلى خمسة جنيهات مصرية.

(أتى العشق فأحرق كل العالم)

إذ أن المال والمتاع الدنيوى يستويان مع العدم أمام عشق المحبوب، وكان قد كتب بالعربية على نفس هذه الهدية ما يلى بالفارسية:

(صاحب المقام العالى صالح أفندى، لقد تجرأت هذه الجارية لتقدم لسيادتكم هذه الهدية البسيطة وهى من يد صبية ممرضة صغيرة، وأرجو قبول هذه الهدية المتواضعة منى وأطلب من جانبكم أن تهتموا بسيدى حتى يشفى سريعًا، إذ آمل أن لا يضيع أجركم عند الله وعند الناس. وإن شاء الله بعد أن يتماثل للشفاء سيدى ستكون الجارية العاجزة فى خدمة سيادتكم. واطلب سلامة سيدى بحول الله وقوته على يديكم) الفقيرة **(محبوبة)**.

قال الطبيب: إن أول سلمة فى سلمات الطب هى الأمانة والديانة، لأنه يجب على الطبيب أن يصون حرمة البيت الذى دخله وكذلك أهل البيت. فالطب ضد الخيانة فلى معكم سنوات طويلة آخذ أجرى وراتبى. وأنتم لم تقصروا فى حقى فى أى وقت من الأوقات، وأنا لم أهمل فى الوظيفة الموكلة إلىّ قط.

والآن لو كنت احتفظت بهدية هذه الفتاة الصغيرة، فلا شك أن هذا يعد خيانة منى، وبديهى أنكم لم تعرفوا بهذا، وما أعطيته للأطباء من أتعاب ومصاريف أخرى فقد كتبتها تفصيلاً وسوف آخذها منك، والهدف من اطلاعكم على هذا أن لا تغفلوا عن النساء الدخيلات والخارجات فإن الغفلة تؤدى إلى أضرار وخيمة.

ولكن لى مطلب هو أن لا تخبروا هذه الصبية الصغيرة بهذا الموضوع فإن غضبها سوف يؤدى إلى أضرار كثيرة لها وفى ذات الوقت سوف يؤخر من تحسن إبراهيم بيك.

ثم قلت الموضوع الثانى، فبالأمس كان قد أحضر ميرزا عباس مصريًا لكتابة الدعاء وأثناء مغادرته رأيت الحاج مسعود يسرع خلفه، فناديت عليه فرجع وسألت لم تجرى بسرعة هكذا؟

قال: إنه منديل صغير لمحبوبة هانم ويبدو به عدة قروش تعطيها للرجل المصرى كأجر له، وكنت أريد أن أعطيه له، وأخذت المنديل وقلت: اعطه يا ميرزا عباس وقل للهانم الصغيرة: إننى أعطيت، وفى أى وقت تريد محبوبة أن تعطى أحدًا شيئًا قل لوالدة إبراهيم أو لى، واعمل بهذا من الآن فصاعدًا، وفتحت المنديل فرأيت أن محبوبة قد أهدته الخاتم الماسى الذى كان المرحوم الحاج قد أهداه لها مع بعض النقود، فقالت والدة إبراهيم يا للعجب ، لا تتركوا هذه الصبية وحدها، ولا تسمحوا بالدخول عندها إلا لاثنين أو ثلاث من البنات الغربيات من الجيران.

وشرب الطبيب صالح القهوة ورحل، وفى العصر أتى جمع من النساء، فسألت الحاج مسعود من هؤلاء الضيوف؟

قال: من الجيران.

قلت: لا تسمح للنساء الغربيات بالدخول عند محبوبة.

وذهبت إلى حجرة إبراهيم بيك، فرأيت والدة إبراهيم ومحبوبة وسكينة الثلاث موجودات هناك، وسألت من هؤلاء النساء وأين ذهبن؟

قالت سكينة ذهبنا إلى غرفة محبوبة ، فهن من معارفها.

قلت لماذا تركتوها وحيدة؟

قالت سكينة : إنهن صديقاتها، فما شأنى فذلك لا يليق.

قلت: أيتها السيدة الصغيرة، لقد جئن لرؤيتك وتركها وحدها عيب.

فقالت والدة إبراهيم: مثلى انهضى واذهبى، وتحركت من مكانها مكرهة للغاية وذهبت.

فذهبت وراءها خلف الباب، رأيت الأولى رفيقة والثانية من الجارات جلسن يتحدثن.

قالت رفيقة: ما هذا الحال يا محبوبة؟ فلماذا تبدين ضعيفة ومتعبة ولون وجهك مخطوف؟ صديقتى العزيزة إن المجنون هو الذى يهلك نفسه هكذا، إن ورد وجنتيك الذائع الصيت للناس جميعًا قد ذبل وخجل، ألا تنظرين فى المرآة؟ لماذا لا ترفقين بنفسك، فلا حديث للنساء المصريات فى البيوت إلا عن عيوبك، ولا يصح أن تكون قصتك مثل قصة ليلى والمجنون ووامق

وعـزرا، تكثـر الأكاذيـب ويغنيك المغنون فى مـجـالس الطرب، وتعلمين أن البنات العابثات المصريات لا يتورعن عن شيء كهذا، وهذا لا يلـيق بشـأنك وأدبك، ولا يناسـبك أن تلوكـك ألسن الناس. وإخراجك عن دائرة العفـة والطهارة أمر عاقبتـه وخيمة. وخاتمة هذه الحالة هو الفـضيحة. فدعى هذه الأفكار السيـئة جانبًا وكذلك هـذه الأوهام. وبالأمس مررت ببـيت إحدى السـيدات، فرأيت البنات وقد تجمعن وأخذت كل واحدة منهن تحكى ما يحلو لها عنك، وتتـفكه بذكرك، فأخذتنى عـصبية الصـداقة والأخوة، فضقت ذرعًا بالحجرة، ورددت عليهن جيدًا، ونهضت غاضبة.

ذلك قلة أدب. . . . فردت عليّ صاحبة البيت قائلة:

لا تخـشى فلن تصـبـحـين بـأقل مما وصلت إليـه أخـتك المذكورة، وربما سوف تفوقينها، فأنكما نشأتما فى مدرسة واحدة، ولم تلقـيـا الروايات من أيـديكمـا قط. وتسـيـئن إلى الآخـرين بزعمكم أن هذا العـالم والمدنية. غافلات عمـا سوف يلحق بكن من وراء ذلك العلم وهـذه المدنيـة؟ وأى فضـيـحـة سـتكون من نصيبكن؟

وهذا هو آخر قراءة روايات العـشق، ويجب أن نسمع لأذن العـشق ونذوب فى هواه؟ وفى القـريب سنرى أنهم يكتـبـون فى الصحف أن السيدة الفلانية قد قتلت نفسها بسبب العشق؟.

فلا تفعلى بنفسك يا أختى العزيزة .... لا تفعلى فلا يفيد الندم.

فضاقت محبوبة بهذه الأحاديث وقالت: أيتها العزيزة رفيقة، أنا لا أشك فى أخوتك وإخلاصك فلو أن هذا الحديث حقيقى وهذا الظن يصدق علىّ فلماذا الإساءة والتوبيخ وتعذيب القلب؟ إن هذه الكلمات المملة واللائمة تؤذينى كل واحدة منها أكثر من سم العقرب، فهل أنا خالية الهموم حتى تزيدى همى، فأى سوء وأى خطأ فعلته؟ وأى عمل غير لائق صدر منى؟ حتى تخافى منى ويكون لك نفس فضيحتى؟ أختى العزيزة من غيرك تعلمت معه فى مدرسة واحدة؟

ثانيًا : مع أى شخص آخر لدينا صداقة أو علاقة؟! وأخيراً أى شرع أو عرف تمردت عليه؟ ومن الذى يأتى حجرتى؟ ومن ذلك الذى أذنت له بالدخول؟ إلا إنسان يعرف الجميل ويصون الحقوق، فهل فى ذلك عيب؟ وقد رأيت ولى نعمتى مريضًا فاستقبلته دون حجاب وأنا لا أدرى، فلم أعلم أننى افتضحت وسوف أجلب الفضيحة للآخرين. إذ أن المصريين السفلاء الوضعاء الذين جلبوا علىّ السفاهة والثرثرة سوف يذمونك. فما هو ذنبى؟ ألا تعلم هذه السيدة أن البحر لا يصير نجسًا من فم الكلب.

(أنا تلك المرأة التى كل عملها خير)

(وما أكثر العفاف تحت حجابى)

(وليست كل امرأة تطرق الباب امرأة متسولة)

(وعملى ورعايتى أدخرهما عند الله)

ولا شك فلو هو مات، فسوف أقتل نفسى، وتعلم الدنيا أن والده اشترانى بذهب واشترانى جارية وهو ولى نعمتى وسبب حياتى وغيرتى. فلو الصحف تكتب أننى قتلت نفسى فهذا فخر لى وليس عاراً. لأنهم سيكتبون أن الجارية الفلانية قتلت نفسها بسبب عشقها لولى نعمتها وسبب عزتها. وقد كانت جارية وفية وصادقة.

(فالله شاهد على طهارتى ... وقلبى البرىء نقى من كل ما يلوثه)

وآمل من الآن فصاعداً أن لا تنصحينى وتعذرينى، وتتركينى لحالى.

(فلو أنا طيب وأنت سيئ فاذهب لحالك)

(فلن يكتب ذنب آخر عليك)

فلو غبار عارى سيطير على ثوب شرفك من صداقتى فابتعدى عنى؟! واعتزلينى، وتنحى عن طريقى، واتركى الصداقة وابتعدى، وإلا لا تسمعى هذه النصائح وتلك الأحاديث.

استمع لمن يقول :

يا من تعجب بتورد الوجه اعذرنى فأنت لا تعرف حالة القلب .

فـالآن أنت لديك حرية الاختيـار فى الذهاب أو البقـاء، والبيك وحيد ويجب أن أكون مستعدة لخدمته.

ونهـضت وهى فى هذه الحـالة وتركت الضـيوف الأعـزاء غاضبة وحـزينة وخرجت، وفى تلك الأثناء أخذ جسمـها يرتعد، وبعد برهـة قصيـرة رحلت الفتـيات اللائى رأين أن المضـيفـة قد غابت.

فذهبت وسـألت الطباخ: ماذا أعددت من عـشاء لإبراهيم بيك؟

أجاب: المهلبيـة جاهزة، والكباب الخاص للسـيد، وعندما حل المغرب قلت لـوالدة إبراهيم بيك: لم يمر اليـوم على ما يرام فأذنى لى، فينبغى أن أزور ثلاثة أشـخاص فلأذهب، فأذنت لى، وفى الساعة الرابعة انصرفـت وعدت، وأديت الصلاة فى حجرتى ونمت. وقـالت والدة إبراهيـم بيك فى الصـبـاح: صـفى اليـوم حسابات هذا الشهـر مع المحاسب، وكنت مضطربًا بعض الشىء، وعلى كل ظللت مشغولاً حتى وقت المغرب وقلت وقت المغرب:

لقد أعطيت هذه الـليلة ميرزا عـباس موعـدًا، فأذنت لى، قالت والدة إبراهيم بيك : بيـته بعيد، فأخـبرهم أن يربطوا الجواد فى العربة، واركبها واذهب،

قلت: سأصل بـالترمواى الكهـربائى فى عشـر دقائق، ولا يجب أن أتعب الجواد، علاوة على أن ساق الحصان متورمة.

فسألت : لماذا؟

قلت : لا أعـرف، إذ يقـول سائق العـربة منذ ذلك اليـوم الذى أتيتم معه حدث ما حدث.

قالت: ليت كل التصدق قد نفع فى شأن إبراهيم، واليوم يا ميـرزا يوسف انفطر كبدى إذ حلـقوا شعـر إبراهيم، وعندما أرى النظرة الحزينة لمحبوبة نحو إبراهيم ودمـوعها الغزيرة فإن كل ذلك يميتنى، ولا أعلم ماذا ستكون نهاية هذا الأمر؟

فواسيتها قـليلاً، وتحركت ودخلت البيت، وصليت المغرب فى حجرة صغيرة، وذهبت للمجلس وكان قد حضر الحاج محسن آقا، والحاج .... التـبريزى، وميرزا خليل الأصفهـانى والصهر الحاج محسن آقا وعدد آخر من الأفراد.

وبعد التحية والسلام مازح الحاج ... التبريزى قائلاً:

يا ميرزا يوسف: إنك تغتاب التبريزيين وسوف أخبر هؤلاء جميعًا بإبراهيم بيك. فقال الحاج محسن آقا:

ألا تعلم ماذا كتب إبراهيم بيك نفسه؟ وأى الأحاديث دارت مع شقـيقى وقت الضيـافة؟ وماذا قال إبـراهيم؟ فى الواقع كل ما كتبه آقا ميرزا يوسف صحيح.

قلت: لقد صرف النظـر عن موضوعات عديدة لم يكتـبها لاعتبارات كثيرة.

فقال الحـاج محسن آقا: لقد كـتب فى قزوين أنك طأطأت رأسك لإحدى الأميرات وأن السعاة أوسعوك ضربًا على رجليك، فهل هذا صحيح؟

قلت: نعم إنه حقيقة.

فسأل الحاج . . . التبريزى، كيف طأطأت رأسك وأية أميرة هذه؟

قال الحاج مـحسن آقا :قال ميرزا عـباس هذا هلاكى، اقرأ فى مواجهته.

قلت: أنا لا أنكر أننى قرأت بنفسى فى إسلامبول، وكتبت هذا دون نقص أو زيادة فهذه الأميـرة هانم هى أسوأ شىء، فماذا أصنع؟

وقد مـارسوا التـعليم فى شهـرود، وينبغى أن تـركع أمام هؤلاء المعلمـين، وفى قزوين توجـه الجميع إلى الجـدار، وهكذا تصورت أنه ينبـغى الانحناء هناك، فانحنيت احتـرامًا، وذات مرة رأيت العصا التى يضربون بها على الرأس.

وفى ذلك اليوم لا تتصـور أية حالة حدثت لإبراهيم بيك، فقد تحول لونه ووجهه كالفحم من شدة الغيظ. فيا لها من وحشية

وبربرية، ويا له من سلوك بعيد عن طريق الإنسانية، فلم أكن أنسى هؤلاء طيلة الخمسين عامًا مدة الغربة. . .، والآن أتصور كم عانى أجدادنا المساكين على يد أتباع جنكيز خان هؤلاء، وكم لاقوا من مشاق.

وبالله أنصفونا فبالأمس عبرت من مفرق طرق، وفجأة مر عباس باشا (أفندينا) الخديوى راكبًا جواده، فتوقفت وألقيت السلام فى منتهى اللطف والذوق، وعلى الفور تذكرت حاكم شاهرود الذى يقول:

هل أصابك العمى ولم تر وجه إنسان، ولم تتذوق لذة الإنسانية، تعال وشاهد جلال هذا الرجل النجيب والمحترم وكذلك عزته وفخامته، ولاحظوا قوته وجاهه إنه لم يشتر الحكومة ببعض التومانات والشاهيات.

لقد أصبحت حاكمًا بالرشوة والهدايا، وعند الإقالة لا يمكن أن تدفع للقصاب والبقال والعلاف قيمة سلعته وتبيع الجواد والبراق وسائر المظاهر الحكومية، والتى حصلتم عليها من دماء الضعفاء والفقراء ظلمًا وتضعون مظالم آلاف المظاليم فى أعناقكم.

إنكم تفضلون الفرار ليلاً على البقاء، وقارنوا بين حالة رعيتكم المسكينة مع حالة الرعية المحظوظة فى هذه الدولة القوية، إذ ترتعد الرعية المسكينة لمجرد رؤيتكم وكأنها رأت حيوانًا

مفترسًا. ولكن هذه الرعية تقر بالاً إذا رأت حاكمها وتصبح مسرورة وسعيدة، ويقول شعراً دون أن يدرى:

(انظر الاختلاف من أى وإلى أين؟)

وكل هذا ثمرة القانون والعدالة الذى أدى إلى حكومة ورعية سعيدتين، فالناس جميعًا من جنس واحد ونوع واحد، وليس هناك أى فرق فى الخلق قط، والفارق الموجود هو بين الأخلاق والمدنية والقانون والمساواة فى الدولة وبين الفوضى والبربرية والظلم وجور الحكام.

قال ميرزا عباس: أخذت الرحلة بالأمس للاطلاع عليها، فشغلت بقراءتها، ورأيت فجأة أن الشمس قد غربت، فقضيت صلاتى، وفى الحقيقة فإن هذه المصائب المتوالية التى لحقت بإبراهيم بيك قد أظهرت قوة قلبه وأوصلته هذه القوة إلى مصر بين الحياة والموت. سبحان الله على الرغم من أن ميرزا أحمد كان قد قال إن إبراهيم بيك لم يعجبه وضع إيران بسبب غيرته وتعصبه، وأنه حزن حزنًا شديداً لا يمحوه شىء، فلم أصدقه.

قلت: أستحلفك بحياتك، وأستحلفك بحياتك مرة ثانية، فقد رأيت أوضاعًا مؤسفة تفوق الوصف، وقد أخفيتها عنه، وكنت قد طلبت أن لا يخبره أحد بها، وكنت أمنعه عن السير فى الطريق الذى كنت أعلم أنه سيتنافى وطبيعته، وآخذه إلى طريق آخر، وفى كل خطوة كان يتأوه بحرقة.

وذات مرة كنت أرى في أحد الأزقة ميتًا ملقى به، وقد جذب تعفنه الدنيا، فتجمع الناس حول الميت كحلقة متزاحمين، ووقف هو نصف ساعة ينتظر ساعى البلدية والشرطة وأخذ ينادى ويقول ما هذه الأوضاع؟ أين إدارة البلدية والشرطة؟ وأين النظافة؟ وفى تلك الحالة قال إبراهيم: سبحان الله ألا يوجد مجلس صحى لهذه المملكة؟ أليس هذا وضعًا مضرًا بالصحة.

قلت: نور عينى الوقوف هنا لا يفيد، فلا صحة ولا أى شخص، فهيا لنذهب، فمدينة يصل سكانها إلى أربعين ألف نسمة ليس بها طبيبان(*)، ولا طبيب مدرسة، فطبيبهم العظيم من كان أبوه دلاكًا فسوف يصبح نفس هذا الشخص طبيبًا وجراحًا، ويعالج هذا الدلاك المرضى الأجانب، وذات مرة شوهد اثنان يتنازعان مع بعضهما البعض بالرأس، فضُرب الأول فى فمه وأصيب الثانى بنزيف. ولم يكن هناك رجل شرطة واحد، ولا حملة لضبط المتنازعين ليعرف الشخص المسئول ما هذه الجلبة؟ فإذا اعتدى واحد على الآخر يأخذه إلى قائد الشرطة، ويلقى القبض على الشخص الثانى على الفور حتى يعرف من الظالم ومن المظلوم، وهو فقط يحصل على النقود من أحدهما ويتركه يرحل ولا يسأل أبدًا إن كان قد أذنب أم لا.

* يدلل الكاتب بهذه العبارة على أن الأمور فى إيران تسير فى فوضى بشكل ساخر

فإن لم يكن معه مال يعلقونه بالفلكة ويضربونه حتى يخرج المال من بيته، ويظل طريح الفراش لمدة شهرين فيصيح أولاده من الجوع وعدم التحمل عاجزين يأنون، وبهذا ينبغى عليه أن يمد يده لكل كائن من كان.

أو أنهم يسحبون هذا الشخص من أذنه وأنفه كالحيوان وذلك من أجل حصولهم على المال ويجلبون العار لذلك الفقير المسكين. وغنى عن البيان أى صدمة يصدم بها ذلك الفقير فى صحته البدنية وماله. فهم لم يلحظوا هذا قط، ولا أعرف لماذا لم أكتب فى الرحلة مسيرة أحد الأشخاص التى حكيت لى، فلم أتحمل تلك القصة وأخذت فى البكاء والنحيب فسألوا ما أصل تلك الحكاية؟

قلت: لن أطيل عليكم فبعد العشاء سأحكيها، وتحدثنا قدراً من الوقت ببعض الأحاديث ذات الدعابة والمزاح.

قال الحاج . . . التبريزى : تحدث يا ميرزا يوسف، ماذا ستقول من جديد على التبريزيين.

قلت: هذه الفقرة لا تتعلق بتبريز. هذه الحكاية تتعلق بمراغة.

فقال ضاحكًا :

قلت : لا إن مراغة تقل قيمـتها عن،وبينما كنا نذهب من **(مراغة)** إلى **(بناب)** راكبين الحميـر، رأينا خارج المدينة شخصين يركبـان الحميـر أيضًا، فسـرنا بعض الوقت، فسأل البـيك واحد منهم: أيها المواطنان أين تذهبان؟ فأجاب واحد إلى كبير القرية.

فقـال أيضًا البيـك: نحن ذاهبان إلى **(بناب)**، فخـيراً أن نذهب سويًا، ونحن لا نعرف فيها مـوضعًا. وعرفونا أنتم ببعض الأشـياء، وسـرنا قدراً مـن الوقت وحينمـا وصلنا إلى نهـر الماء الجارى العذب، ترجل الجميع وغسلنا أيدينا ووجوهنا بالماء. وبعد ذلك أخذ الرفيق الجديد حفنتين من الماء وشربهما وقال:

سلام الله على الحسين ولعنة الله على قاتل الحسين **(يرحم الله ولى عهـد عمر)** قالهـا باللغة التركـية، وخلال المسـافة التى سرناها، أخـرج رفيقنا طعـامه وهو عبارة عن خـبز وجبن ولحم، وقضينا الليلة وأكلنا وبعد ذلك قال:

الحمد لله رب العالمين: **(وليرحم الله ولى العهد عمر)** فنظر إبراهيم بيك نحوى وأشار قائلاً: هذا الرجل مجنون أو لا يشعر. **(يرحم الله ولى العهد عمر)** فهذا الحديث الذى لا مجال له ماذا يعنى؟ وسـرنا قدراً من الوقت فـتبـعنا وأردنا أن نركب الدواب، وأعاد القول بعد الركوب: يرحم الله ولى العهد عمر.

فقال إبراهيم بيك: عمى العزيز ما اسمكم الشريف؟

قال: يحى.

قال إبراهيم بيك: اسمى إبراهيم، ويستوجب حق الرفقة أن نتعارف جـميعًا، وهذا أيضًـا عمى ميرزا يوسـف، وقال: حسن جدًا.

قال البيك: عمى العزيز سوف أسألك عن شيء؟

قال: اسأل.

لقد سأل البيك: أثناء شـرب الماء وتناول الطعام والركوب، قلت أنت: ليرحم الله ولى العـهد عمر، وقد أعـدت هذه العبارة التى لا مجال لها فماذا تعنى؟

قال السيد يحـى: لا شك أنكم لم تسألوا عن هذا وبالتالى لم أقل لكم شيئًا وأنا أدرى بما أقول جيدًا.

وألححنا فى الطلب قائلين إننا من محـبى حضرة ولى العهد ومن الداعين لذلك الرجل الشريف فلو خـفى عنا سر فلا تخشى منا فسوف نحفظه فى صدورنا. ولن نفشيه إلى أحد، فإننا سوف نغادر تلك الدولة إلى الخارج.

قال يـحى: ليس هناك شيء خفى، ولما أننى أكـرر يومـيًا هذا الدعاء، فلا بأس أن أقول السبب إلى أى شخص، ولن يكفى كل الوقت لدى لذلـك، علاوة عـلى هذا الموضـوع طويل، ولم يتبق أكثر من ساعة فى مصاحبتنا هذه.

وفى تلك الأثناء وصلنا إلى ساحل إحدى المزارع، والناس به مشغولون، بجنى البطيخ والشمام.

قال إبراهيم بيك: لنذهب يا سيد يحى، ونجلس فى كوخ هذا البستان، ونستريح قليلاً ونأكل الفاكهة، واحكوا أنتم لنا القصة.

قال يحى: أنا أرغب فى تدخين الغليون، بسم الله، ذهبنا وجلسنا. وبدون أن نسأل صاحب المزرعة عن شىء، قطف لنا بعض البطيخ والشمام، ووضع ذلك أمامنا وقال: هيا بسم الله.

وبدأ السيد يحى هكذا فى سرد القصة.

(بينما كنت فى سن الثلاثين أى قبل خمسة وثلاثين أو أربعين عامًا كان لى صديق اسمه عبد الأحد، وكان عمره أربعة وعشرين عامًا). وكان لذلك الشاب وجه حسن وشعر بلون العنبر. وكان يميل إلى التمنطق بسلاح القمة والغدارة، ولكن والده كان غافلاً عن أحوال أصدقائه. وكانت أخت عبد الأحد زوجة إبراهيم خليل سلطان.

وكان لسلطان المذكور من الزوجة السابقة ابن يدعى (**فرج الله**) يبلغ ستة عشر عامًا، وكان هذا الصبى وسيمًا فى وسامة يوسف (ع).

وذهبنا ذات يوم نحن الثلاثة إلى حديقة خليل سلطان، وكان فرج الله معتاداً على شرب الخمر، وكان يحمل تحت إبطه زجاجة خمر، وشربها تماماً، وبعد محاولة دءوب أرسل عبدالأحد إلى قرية (مهرآباد) والتى كانت تقع على مقربة من حديقتهم، وكان أهل تلك القرية جميعاً من المسيحيين، وهو يشرب الخمر هناك، فأجبرناه على مغادرة ذلك المكان فذهب مضطراً، وعاد دون تحقيق هدفه. ورأينا فرج الله وقد احترق من رأسه حتى أخمص قدميه، ولم يبق فيه سوى أنفاس يتنفسها، وكان سبب هذه الحادثة أنه كان يرتدى ثياباً أسود إذ كان ذلك فى شهر صفر، وبعد الذهاب شُغل بإعداد الكباب، فأمسكت النار بطرف ثيابه، ولما كان فى حالة سُكر، لم يستطع أن يطفئها، فجعل من نفسه شواء. فنادينا على الجناينى عندما رأينا هذه الحالة ونحن نتحسر ونلطم على وجوهنا، فأحضر كليماً ووضعنا فرج الله فى الكليم وأخذناه إلى المدينة.

فتجمع شيخ القرية والعمدة وغير ذلك من أهلها، وسألوا فرج الله عن أحواله، فأجاب: ضعونى فى حضرة عباس وأصر والده عندما سمع وصية فرج الله، وبعد عدة ساعات توفى فرج الله، وأقاموا مأتماً لمدة ثلاثة أيام. وبعد عدة أيام أمر سلطان الجنود أن يلقبوا القبض علىّ وعلى شقيق زوجته عبدالأحد، وكانت الحكومة آنذاك فى يد ضياء الدولة محمد رحيم ميرزا،

وكان الأمير نفسه وابنه داراب ميرزا يحكمان فى تبريز. فأسرونا فى دار الحكومة وتحفظوا علينا ليلة فى الحبس. وفى الغد أتى إبراهيم خليل. واستدعونا للحضور، فذهبنا وألقينا السلام ووقفنا، فأمسك سلطان يد عبدالأحد وجذبه إلى الحاضرين وقال:

هذا قريبى وأشار إلىّ وقال هؤلاء خارج سلطة النائب والأمير.

وعلى الفور صدر الحكم بالعفو عن عبد الأحد دون سؤال أو جواب، وأحرقوا وسط المدينة وتحفظوا علىّ مقيداً فى الأغلال لمدة عشرة أيام، ولما لم أكن أملك شيئًا ولم يكن لى واسطة يخلصنى مما أنا فيه، دفع خالى مائة تومان للأمير وعشرة تومانات لكبير السعاة وخلصنى من الحبس وأخذنى إلى البيت.

وعند الغروب تجمع حولى الأقرباء من امرأة وطفل فى الفناء، ولما أنهم كانوا يطعموننى الطعام كل ليلة فى الحبس، وكنت آكل سويًا مع السجان والذى تكفل بالإشراف علىّ لهذا يبدو أنه قد أظهر المحبة لى.

قلت: الليلة أرسلوا أيضًا طعامًا للسجان، وفى تلك الأثناء دخل السجان البيت وهمس فى أذنى وقال: أرسل لك الأمير ثيابًا فأخرج وأستقبله، فقفزت من مكانى وأردت أن أخرج، فهجمت النساء على وجذبتنى إلى داخل البيت. وبعد ذلك اتضح أن فكرة

الثياب حيلة وأكذوبة، وبعد قتل عبد الأحد ذهب إبراهيم سلطان إلى تبريز ليعرض على مساعد الملك ما وقع من أمور أو أحداث لعزيز خان القائد، وصدر حكم على عزيز خان وذهب شخصان من الرجال السفهاء إلى مراغة وأتوا به مكبلاً بالأغلال، وعلم بهذا الموضوع ضياء الدولة فأرسل رسولاً خاصًا به إلى مراغة، ليؤكد الحكم لابنه قائلاً اشنقوا يحى وعلقوه على باب تبريز الكبير، فالقائد الكلب هو الذى يستطيع أن يأخذ الإنسان من مقر الحكومة، ويجلب العار لى، هذه هى الحكومة والحياة؟!

ويواكب كتابة هذه الأحداث بعد نجاتى من مراغة بنصف ساعة ويطلبنى ولى العهد من على محمد بيك كبير السعاة.

ويقول السجان ليعتمد علىّ يحى وسأذهب وآخذه بحيلة وسأحضره وأتيت مع عدد من السعاة، وتخلص هو من أغلاله ليذهب بعد ذلك إلى البيت، وقد قام أقاربى الذين علموا بهذا الموضوع بأخذى من سطح إلى سطح خارج المدينة حتى وصلوا إلى طهران عند أبى.

ويعد محمد آقا كبير البوابين أحد أقاربى، ولما مرضت فى السجن بسبب المعاناة والإجهاد لم أقو على الذهاب إلى طهران. وفى الليلة الثانية عدت إلى مدينتى، وأخذونى إلى بيت شيخ الإسلام، كنوع من التحصن ومع هذا الإجراء أخفونى فى سرداب هناك.

وفى اليوم الرابع اقتحم تبريز الجباة الغلاظ التابعون للقائد وكأنهم أولاد نمرود أو شداد واختفى من أهلى خمسة وستون شخصًا، والجباة الذين كان أحدهم نائب حميد الأعور قد أحاطوا بحديقة خالى وخالتى واستعرضوا وضع البنادق أمام حجرة خالى،وأخلوا بيتنا وبيت أخوالى، وجمعوا الأهل والأولاد الثلاثة فى بيت واحد ولم يبق به إلا الحصير. وجلس الجباة فى بيتنا، وراحوا يبحثون عنى فى كل مكان فإذا ما ظهر أهلى ولم يجدونى ربما يمكنهم يأخذوا أحدًا منهم، فيكون ذلك وسيلة للحصول على المال.

وكل يوم كان يأخذ الجباة النفقات من العمدة وكبير السعاة حتى من ولى العهد نفسه، آخر الأمر بعد ثلاثة أشهر كتب خالى لى من تبريز أن يبعثونى عبر الصحراء إلى تبريز فى بيت جعفر خال الدليل الذى هو قريب لنا، وكتب هذا بالفعل ونفذ، وأخذنى جعفر إلى بيت المجتهد ومكثت هناك ثلاثة أيام. ثم قال المجتهد:

خذوا يحى إلى حظيرة ساعد الملك، وسوف يكتب هو نفسه توصية إلى المشار إليه، وأرسلونى خفية إلى حظيرة ساعد الملك، وكان حضرة ولى العهد والقائد وساعد الملك فى المرج وكان هناك المعسكر، وبعد ثلاثة أيام أتى عدة أشخاص من المدفعية، وأوثقونى من الخلف، ووضعوا السلاسل حول رقبتى

وساقـونى إلى المعسكـر، وعندما وصلت إلى مـقر ساعـد الملك أحضر سلطان وقال:

هذا هو قاتل ابـنك، فتصـرف معه لكى تشـفى نار قلبك، فهو محكوم عليه ولك أنت حريـة الاختيار، فأمسك سلطان يدى وأخرجنى من المعسكر، وأعطـى ورقة مالية فئة إمـبريال إلى أحد الجنود وقال:

هات حطبًا، وبعد ساعة أحـضروا ثلاثة أحمال من الحطب وأخفونى داخل أحدها، وأشعلوا النار، وبمجرد أن اشتعلت النار، وزاد لهيبها، نظر إلى سلطان وقال:

يا ابن المحـروق لقـد أخطأت والآن سـوف نحـرقك لكى نستمـتع بحرقك، يا ابن المحروق إن الزوجة الفـلانية هى أختك، فلو أسأت إلى ابنك فسوف ألقى جزائى وبذلك سـتصبح شهيداً، وسوف أحـترق بنار جهنم بدلاً من أن تـستمتـع أنت بنار جهنم، وفى تلك الأُثناء ضـربنى رجل بكف يده على وجـهى، ولما كنت مقيد اليدين فقـد بصقت فى وجهه، وجردونى من ملابسى، ولم يتركوا سوى ملابسى الداخليـة، وفى تلك الأثناء أتى أحد السعاة وقال:

يقول القائد لما أن حرق الإنسـان يتنافى مع الشريعة والعرف أوقفوا حرقه على الفور. وليقتل بشكل آخر، ومر سلطان بأوقات

عصيبة وقال: ينبغى أن أقتل قاتل ابنى، لكى تهدأ نار قلبى، وقد صدر الحكم بحفر الأرض حتى يدفنونى حيًا، وأوثقونى بالحبال وحفروا حفرة من الأرض وتجمع خلق كثير حول هذا المشهد، واقتحم هذا المشهد فارس وقال:

إن صاحب السمو يريد المذنب، وبالصدفة كان صاحب السمو يأتى من رحلة صيد وقد رآنا من بُعد وهو يسأل أن تهيأ الأمور لعرضه المبارك، وذهب هو نفسه لحظيرة ولى العهد، وأرسل أحد الفرسان لإحضارى وأخذنى إلى خيمته وقال:

اذهب ابك واطلب العفو، قلت: أعتذر فوق كل هذا، لن ألتمس العذر بدون ذنب أبدًا، وذهبوا وقالوا إن المذنب جاهز، فطلبنى فأخذونى وبدون أن أعظم أو أنحنى وقفت، وبمجرد أن نظر فى وجهى، أمر قائلاً ارفعوا السلاسل من حول رقبته وأطلقوا سراحه، ولا يتعرض له أحد، ورفعوا القيود، فعم السرور والفرح الجيش بشكل لا يوصف، ومنحنى الجنود كل شىء إذ تبرع واحد بالسروال والثانى بالقلنسوة، والثالث بالثياب، وأرادوا أن يجمعوا نقودًا لى، فرفضت وقلت:

لست فى حاجة (**ليمد الله فى عمر ولى العهد**) فقط استأجروا لى حصانًا يحملنى حتى تبريز حيث بيت الحاج جعفر خالى وسأدفع قيمة حق الأجرة، فقال كبير الخدم لخادمه:

أعـدوا حصـانًا لى، وركب هو نفسـه جوادًا وحـملنى إلى الحاج جعفر خالى وسلمنى له وعـاد. فهذه هى سبب أدعيتى إلى ولى العهد رضى الله عنه.

والآن أطلب منك الإنصاف، فلـو أدعو له وأشكره فى كل نفس مـرتين هل أجازيه حـقـه أم لا؟! إن حيـاتى بفضله، فـأنا صاحب أطفال وأولاد، وحصولى على الـرزق بفضل لطفه، فقد منحنى الحياة، وفى الحقيقة أدين بحياتى لولى العهد **(ليمد الله فى عهـد ولى العـهد)** ، وطالما أنا حى يذكـر لسانى هذا الدعـاء فى اليقظة والأكل والشـراب والجلوس والوقوف، والآن صـدقتم أننى عملت الصواب أم لا؟ **(ليمد الله فى عهد ولى العهد)**.

ودون أن أدرى غلبتنى الرقـة وبدأت فى البكاء، قال يحى: يا عزيـزى لماذا تبكى فالشكر لله أنهم لم يقـتلونى ولم يحـرقونى ولم يدفنونى حيًا.

قلت: إننى أبكى على حال هذه الأمة السـيئة الحظ التى لا يهتم بها أحد، وإلى أى مدى ترخص فيها قيمة المساكين، وفى يد مَن مِن الأشخاص تركت هذه الأمة.

فسأل السائس : من ولى العهد هذا؟

قال: لـقد كـبر الآن فى تبـريز، وهو يسمى مظفـر الدين ميرزا، قولوا جـميعًا: ليمد الله فى عمـر ولى العهد، وقلنا ذلك جميعًا.

وفى تلك الأُثناء رأيت إبراهيم بيك مندهشًا ومتحيرًا، فلم يأكل بطيخًا، ولم نأكل أى شىء آخر، وأعطينا البقشيش لصاحب المزرعة وركبنا الدواب وسرنا فى دربنا.

وكان يركب إبراهيم بيك مع يحى وكنت أركب أنا مع رفيقه وكنا نسير أمامهم. وأثناء الحديث قلت لرفيقه: كيف تعيشون فى ظل هذه المملكة؟ قال عمى العزيز نحن أصحاب أطفال وأولاد، ولا يمكننى أن أترك الأولاد وأهاجر. وكل ما يمكن عمله هو الإصلاح والبناء إنه حب الوطن فماذا يمكن أن نعمل.

وقد نظم الشيخ سعدى منذ عدة قرون هذه الأشعار:

(يا سعدى على الرغم من أن حب الوطن حديث صحيح)

(فلا يقوى المرء على فراقه لأننى ولدت به)

والتفت ورائى فرأيت إبراهيم بيك يستمع لحديثنا. وعلى الفور توقفت عن الحديث وقد بدا عليه التغيير واضحًا، فقال ميرزا عباس: فى الحقيقة ليمد الله فى عمر ولى العهد قولا آمين، فقلنا جميعًا آمين، فقال ثانية دون أن يدرى:

لو تأخر المسكين قليلاً لأصبح من ساكنى القبور. قال الحاج التبريزى: فى الواقع إنه برئ ولا ذنب له. الخلاصة إن هذا الرجل مظلوم وفقًا للآية الكريمة : "ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعًا" ، ولعل سمو ولى العهد لم يحى شخصًا واحدًا، بل إنه

أحيا جميع المخلوقات وأبناء البشر. وسيبقى هذا الإحسان العام والسمعة الطيبة حتى يوم القيامة.

قلت: يا عم إنهم يتحدثون كثيراً عن حسن نية ولى العهد، ونقاء فطرته والثناء على سيرته وحسن جبلته، وأمل إبراهيم بيك فى حكم حضرة ولى العهد العظيم. إذ يقول: إن شاء الله تعالى بعد جلوس ولى العهد على العرش سوف ينصلح ما بالمجتمع من خلل واضطراب، وستجنب جذور الظلم والجور، وسوف يصبح شتاء إيران كربيع الروضة. لأنه يعلم بالاضطراب الحالى ويدرك ظلم الولاة والحكام إدراكًا كاملاً، وسوف يصلح ذلك إصلاحًا جيدًا.

فقال الحاج محسن آقا :كما كتب إبراهيم بيك. لو أنهم ينصبون فى إيران الوزير الكفء ذا الإدارة القوية ممن يؤيد فكر الملك، فلا شك أن أمثاله سوف يتفوقون فى أعمالهم وسترقى إيران وتتقدم. ولكن هذه السياحة نغصت علىّ حياتى ليومين، ولم أعلم أن إيران إلى هذه الدرجة مضطربة، ولو أن أحدًا غير إبراهيم كتب هذا ما كنت أصدق، ولكن لما أن إبراهيم هو نفسه الذى دون هذا، وكتب كل ذلك من باب التعصب والغيرة فإننى طوعًا أو كرهًا يجب أن أصدقه.

وليس بمستبعد أن إبراهيم بيك قد تغاضى عن بعض الأشياء ولم يذكرها بسبب غيرته وتعصبه الفطريين.

قال ميرزا خليل الأصفهانى : هذا النمط من المفاسد لن يبقى، ولم يعد الزمان زمانها، ولا شك أن التغير الطبيعى للعالم سيكون كفيلاً بإصلاح هذه العيوب. وقبل هذا كان العالم بربريًا، فلا تظنوا أن أهل الغرب قد ولدوا متحضرين منذ بداية الأمر، وأنهم لم يكونوا متخلفين؟

سمعت أنه صدرت فتوى ذات يوم من مجلس كبار رجال الدين ضد شاب برىء تأمر بحرقه، حيث جمعوا حطبًا كثيراً فى وسط ميدان المدينة وعلى مرأى من الناس جميعًا، وصبوا فوقه الكيروسين وأشعلوا به النار حتى يلقوا هذا الشاب المتهم بها، وفى تلك الأثناء مر الملك الشاب (**فريد لان**) بذلك المكان، فسأل ما هذه الجلبة؟ قالوا: هذا الشاب متهم فى رأى رجال الدين، وسوف يحرقونه بالنار، فقال الملك الشاب الرحيم من باب العطف والإنسانية: مسكين وظلم، ومر من هناك مسرعًا.

وبعد إنهاء عمل المتهم، أخبروا كبير رؤساء رجال الدين قائلين: لقد مر الملك من الميدان فرأى الشاب المتهم على تلك الحالة فقال من باب العطف والإنسانية: مسكين وظلم. فشكل القساوسة مجلسًا فى هذا الشأن وتوصلوا إلى مذكرة.

إن عطف الملك والتصريح بالظلم هو تحقير لشريعتنا ومذهبنا لهذا فإن شخص الملك يستحق الحرق.

فعلم الملك بهذا الخبر، وصدر الأمر بحرقه دون شك، فذهب الملك فى منتصف الليل وحيداً إلى بيت كبير رجال الدين،

وبمجـرد أن دخل بيتـه انكفـأ على قـدمى هذا الرجل وبدأ البكاء والنحيب.

لقد صدقوا فى قولهم أننى قلت: مسكين وظلم، ولكن لم أقصد التحقير مطلقًا بل أن هذا الحديث قد جرى على لسانى دون أن أدرى من باب الشفقة والإنسانية ليس غير، والآن بالله ارحموا شبابى وأعفوا عن ذنبى.

وبعد تفكير طويل أجاب رجال الدين:

لقد صـدرت الفتوى بحرقـك ولا يمكن إلغاؤها، ومن ثم عليك إذا حضر القضـاة وسال دمك أن تضع هذا الدم فى زجاجة حتى يشعلوا النار به فى نفس موضع اشـتعال النار وبذلك يحترق دمك ويصبح كفارة عن ذنبك.

فرضى الملك وعمل على الفور باقتـراح كبير رجال الدين، والآن شاهدوا كـيف كانت أحـوال المدينة قبل ذلك، فـهى كانت كما أقول:

كان العالم بربريًا وشيئًا فـشيئًا تم الإصلاح، وإيران إن شاء الله قريبًـا ستـدخل الاتجاه الصحـيح للمدنيـة، وستأخـذ بقانون المساواة، وكما تصفون نية ولى العهد بأنها زاخرة بالآمال العريضة لمستقبل إيران.

قلت: أيها السـيد العزيز: إن سـائر الشعوب والممـالك إما أنهـا قد وهـبت ملكًا عـاقلاً مِـثل اليـابان، أو أيقظت الصـحف والمطبوعات الشعب، فألف الأدباء والحكماء الكتب والمؤلفات فى إيقاظ الشعب.

وأشاروا إلى المفاسد، ووضعوها أمام أعين الجميع وحددوا حقوق الدولة والشعب، وأظهروا ذلك كما ينبغى حتى سطع نجمهم شيئًا فشيئًا، فلو لم يفعلوا ذلك فيقينًا ما تقدموا، ولسوء الحظ لم أر فى إيران شخصًا يكتب عن عيوب الدولة بهذا الشكل، فأولئك الشعراء سحقًا لهم كل حواسهم وأفكارهم منحصرة فى مدح ملك فرعون ومدح خصاله وهو أس الخراب، فذلكم هم الحكماء وأراهم غرقى الأوهام الجوفاء.

(اخبره بأنه تائه حتى يستدل على الطريق)

أما العلماء عندنا لا يتحدثون إلا فى موضع الطهارة، ولم يؤلف كتاب غير تلك الكتب التى ألفت منذ مائتى أو ثلاثمائة عام وهم لم يغيروا فيها إلا اسمها، وموضوعاتها هى نفس الموضوعات التى كتبها السابقون.

ولم أر وزيرًا أو أميرًا يكون قد كتب مؤلفًا فى نظم الجيش أو المدفعية أو السياسة أو أصول الحكم والمساواة. فإن شجرة الأمل التى لا تنمو إلا لنفسها لا تثمر قط وحتى لو أحضروها فلن يروق التمتع بها، فهى مثل فواكه الغابة المرة التى لا طعم لها.

فلو راعينا أصول المدنية وفروعها كما ينبغى، فلا شك سوف يحلو لنا ثمرها ونستحسن طعمها.

فلو كانت هناك مدنية ما كان الأفارقة مثل الحيوانات ولكان شعب أمريكا مثل أهل إفريقيا، فقد غدا هؤلاء أناسًا مكتملين،

بل وأعقل شعوب الأرض وأنضجها. وبدون ذلك أو بدون هذه التنشئة لكانت البربرية والبداوة هما السائدتين.

وعلاوة على هذا فإن الأمريكان قد حظوا بإنتاج الأرض، وسيطروا على هواء الجو، واستغلوا الكهرباء استغلالاً جيداً لمصالحهم. ولكن ليس لدينا فى مملكتنا تلك الخطوة والعظمة أو المدرسة التى لا يعرف معلمها إلا العلم التقليدى وليس العلم الذى يكون فيه سعادة البلاد وخير العباد، ولا تجد فى إيران الواسعة هذه صحيفة واسعة الانتشار، ولو وجدت هذه الصحيفة ولو بالاسم فهى عبارة عن:

بضع وريقات أسبوعية طبعت طبعة حجرية أو أنها طبعت بشق الأنفس. ومحتوياتها وعناوينها لا تفيد الدولة والشعب فى شىء، وصحيفة إيران واطلاع دليل على هذا(*).

ومنذ ثلاثين عامًا كانت جزر اليابان لديها فقط ثلاثون صحيفة والتى كلها كلام مصطنع أجوف أسوأ من صحيفتى **(إيران)** و**(إطلاع)**، الآن لديها ألف صحيفة وجريدة أسبوعية ورسائل أدبية وسياسية تصدر شهريًا.

قال الحاج . . . التبريزى : هذا كاف يا يوسف، وقد بلغت الساعة الآن السابعة، وبعد غد شرفونا بالبيت ليلاً وأكملوا هناك الحديث.

* إيران وإطلاع من الصحف الأولى التى ظهرت فى إيران [المترجم]

قلت: لقد عانيت فى تبريزكم مدة عشرين يومًا، فلا تشقوا عليّ هنا أيضًا.

قال: الغرض من تجمع الأحباب والأصدقاء أن نتحدث ولا نشق على أنفسنا، ولاشك أن السادة سوف يشرفونا ليلة غد. وانتهى المجلس وأتيت إلى المنزل وخلدت للنوم.

وفى الصباح استيقظت وصليت ركعتى الله وفجأة سمعت طرقًا على الباب فقلت بعد إتمام الصلاة من بالباب؟

قالت محبوبة: أنا يا عم يوسف، وقد فزعت عند سماع صوت محبوبة وخفت كثيرًا، وظننت أن شيئًا طرأ على حالة إبراهيم بيك، فسألت على عجلة:

خيرًا، ما الخبر؟ قالت: إن شاء الله خير، لقد جئت بالبشرى والحمد لله لقد نهض إبراهيم بنفسه وأشار إلى الثلاجة فعلمت أنه يريد ماء فأعطيته وشرب، وجهه فيه بشاشة كاملة، فقد بشرتك فلتأتى وترى أنه وقف نصف وقفه واتكأ على كرسى، فسألت:

أين والدة إبراهيم؟ قالت: نامت عند إبراهيم بيك. فأجبت إن كانت الحاجة قد نامت فلن أستطيع أن آتى حتى تستيقظ وبشراك فى عينى، فاذهبى وسوف آتى لاحقًا، إن شاء الله شيئًا فشيئًا يستيقظ ويتحدث.

وهكذا سعــدت محبوبة وكــأنها قد ملكت الدنيــا بأسرها، وبعد ســاعة ذهبت فرأيت أن وجهــه ولونه قد اختلف كثـيراً عن الأمس، وعلامة التــحسن بادية على جبينه، قالت محــبوبة : لقد أعددت الشــاى. قلت: أحضريه، وأمسكت بنفــسى القدح الذى أحضــرته. قلت: اشرب الشاى الــذى أحضرته من إيران. فــقال على الفور: **(يا حق يا مدد)** وشرب الشــاى. ولكن أثناء تناول الشاى كان يبكى فاقتربت منه وربت على قدميه قائلاً:

فليأتوا بالكباب ثانية. ووقت العــصر كنا فى الحديثة فرأيت طفلاً مصريًا أسود مقبلاً، وأعطى خطابًا إلى الحاج مسعود وذهب لحاله، فناديت الحاج مسعود وسألت: لمن الخطاب؟ ومن أين؟

قال: إحدى الجارات للهانم الصغيرة، قلت: على الرغم أنه لا يصح فتــحه، إلا أنه وفــقًا لنصيــحة صالح أفنــدى فربما يكون موعــداً لدجال أو رمّال، فلا ينبــغى أن نغفو على ذلك فــأخذت الخطاب وفتحته.

والترجمة للخطاب على هذا النحو:

(من طرف المحبة الصادقة إلى المحبة الصادقة محبوبة هانم)

عزيزتى المحبوبة المحترمة محبوبة هانم، أنا مثلك لثلاثة أيام مضطربة الحــال ومشــوشــة الفكر ولكن الفــرق بينى وبينك: أن اضطرابك وحزنك بسبب العشق والهوى وتكدرك ومعاناتك بسبب

الغيرة والعصبيـة، لأن الأحداث التى لم أتصورها رأيتها فى المنام ورأيتها فى اليقظة أيضًا وشاهدتها.

كما كـنا لمدة اثنتا عشرة سنة صـديقتين حمـيمتين لبـعضنا البعض، كـما جـمعت بيننا المودة فى عـالم الصدق والصـفاء فى الحب والوفاء فى العلن والخفاء، وكنا قد اندمجنا فى هذه المحبة، وفى مـقابل هذه المحـبـة الصادقـة لم يكن لى أدنى ذنب، وقـد طردتنى من صحبتك خائبة خاسرة بعد هجرك لى.

(ليس لى ذنب سوى الوفاء).

ومنذ تلك الساعة وأنا أسيرة الاضطراب لا أُشفى منه.

(مفارقة الأحباب بالله أصعب).

ولا أعلم ما هو ذنبى وجرمى؟ سـوى أننى قد نصحتك من باب الحب والوفاء والصـدق والصفاء والإخلاص فى المحـبة ومن أجل إسـعـادك. وقلت لك مـا قلت لصـلاح دنيـاك وآخـرتك. واحسرتاه إنك أسأت الظن بكلمـاتى معاذ الله. وهكذا أظن أنك فسرت نصائحى فى أغراض شخصية، والواقع أن إبراهيم بيك هو شقيـقى فى الرضاعة، فقـد أرضعته أمى، فـهو أخ لى وأنا أخت له. وليس هناك أى تـفكيـر آخـر فى نظرى، وكل مـا قلتـه لك واضح وضوح أزهار ربيع الإنسانية ووضـوح النور الدائم للبشرية والذى هو فى الحقيـقة ظلم وعار لأصحـاب العقول والمنطق، ولا

شك أن الإنسان الكامل لا يمعن النظر فى حياته فيظن أن اللآلئ القيمة خزفًا براقًا لا قيمة لها. وعملك سواء خيرًا كان أم شرًا هو فى أنظار العامة قبيح ومذموم.

(إن نقش العمل السيئ على الورد جنون).

وينبغى على الإنسان العاقل أن يتجنب إظهار عيوبه فى المجالس غير المناسبة خاصة لدى الفتيات المصريات سيئات التربية. وأن يبتعد عن التهمة.

(اتقوا مواضع الشبهات)

فقصة حبك قصة شائعة فى كل الأسواق، على الرغم من أن حبك يجيب عليهن ولكن ماذا يمكن أن نفعل وقد ظهرت الفضيحة واضحة للعيان. وشاعت وسط الناس. وأغلقت الباب فى وجهى ولا تعلمين شيئًا بالخارج ماذا يدور هناك؟

(إن كئوس الفضيحة قرعت على قارعة الأسواق).

إن مهمتى الخاصة وصداقتى ومحبتى لك تحثنى على إصلاح أمرك، فأنا لا أعانى من عدم عطفك ومن احتقارك لمودتى. فلو طردتنى ألف مرة، واستدعيتنى ونفرت منى أو قربتنى فإنى أعلم قيمة الصداقة فلن أغضبك.

(فلو طردتنى من هذا الباب، سوف آتى من باب آخر).

فقلبى المستنير عالم، وصدق ضميرى أفضل شاهد على أن إرادتى السابقة وإيمانى الصادق ثابت لا يتزعزع، وليس أى شىء آخر.

(سحقًا لبستان لا تزهر وروده)

فبناء صداقتك ومحبتك هكذا فى قلبى راسخة وثابتة، ولا تستطيع أى ريح عاتية أن تطيح بهذا البناء، فهذا الحب حصن حصين وقلعة متينة لا تنال منها أشد الكروب.

ومع وجود هذا أقول لك ثانية: إن صفحة قلبك صافية نقية بريئة من ملوثات الخيانة. وكل أفكارك مقدسة ومنزهة عن الأغراض المشينة. وكان ينبغى على كل عاقل وعاقلة أن يراعيا اسمك وشرفك وخصوصياتك. ولا يجوز أيضًا أن ينتشر حديثه المؤذى بين الناس، فيخدش شرف الإنسان البرىء، إذ دائمًا يكون حديث هذا مثل هذا الشخص المغرض موضع شغف القلوب. ومن ثم يشوه هذا الإنسان الشريف فى كل محفل ويعتزله جميع الناس وينأون عنه. وقد اعتبرت أن كتابة هذه الملاحظات من باب المحبة الصادقة لكم، وحقًا واجبًا علىّ. وأنا لا آمن أبدًا بهذا عليكم. **(فلماذا يفعل العاقل أمرًا ثم يعود يندم عليه)**.

(ليس فى الصداقة منّة على الأصدقاء)

(وكل من نصح عدوًا هو شخص مخلص).

وقد نظم السابـقون شعراً حسنًا لنا ونحن نـحتذى بهم فى هذا الشعر.

(الصديق هو من أظهر كل عيوبك)

(وهو مثل المرآة يرى الإنسان فيها وجهه)

(وليس كالمشط له ألف لسان)

(يمشط الرأس شعره بشعره)

ليـتك بالأمس كنت فى بيـتنا وكنت رأيت بعـينيك كـيف تشاجرت مع البنات المصريات عديمات التربية وكيف دافعت عنك لكنهم اعـتـبـرننى مـثلك وقلن : هذا هو نهـاية قـراءة الروايات والقصص التى تفتح الطريق إلى العشق، والافتخار بمعرفة اللغات الأجنبية Non, Non, Bon, Bon لا يتمخضن إلا عن هذا.

(أخشى أن تتأذى فالحديث كثير)

ربما الآن أدركت أى ضرر فى طرد صديقة مخلصة ولا بأس

(فعل العشق أكثر من هذا ويفعل)

(حتى أنه قد يخرج العاشق من دينه)

(هذا بقية دعاء الفقيرة الحقيرة، محبتك رفيقة)

قرأت الخطاب من بدايته حتى نهايته، وطويته ثانية ووضعته داخل المظروف ولصقته ثانية وأعطيتـه للحاج مسعود. خذه واعطه

لمحبوبة وأحضر ردها الذى ستكتبه لكى أطلع عليه. فربما تكتب شيئًا فى الرد لا يكون فيه صلاحها ولكن لا تخبرها أننى اطلعت على الخطاب.

وحمل الحاج مسعود الخطاب، وفى اليوم الثانى أتى بالرد إلىّ وكان على هذا النحو:

(رد محبوبة على خطاب رفيقة)

هذا كتاب المحبوبة إلى صديقتها الرفيقة، عزيزتى وصلنى خطابك وقرأته بدقة بالغة. ويبدو أنك استبدلت أمر الصداقة والمحبة بهذه الكلمات الشاعرية والأحاديث البليغة، ويا ليتنى لم أكن مضطربة الحال مثل ضفائر ليلى، وليتنى لم أكن محرومة من نور الرؤيا مثل عين زليخا فى إدراك البصيرة.

وكان لدى الفطنة والقوة المميزة وأستطيع أن أميز كل صغيرة وكبيرة. فلم أصبح عاجزة على الرد على هذا الخطاب، ولم أعترف بعجزى وانكسارى، فما كتبته إن لم يكن ظنًا وتخيلاً خاطئًا، فليس أيضًا صحيحًا. ولا شك أنه فى العهود القديمة كانوا يحافظون على بنيان المحبة، لهذا السبب لم ينسوا هذه المحبة فى خضم قاع الدنيا الزائل، ولم يضيعوا نعمة الصداقة مطلقًا، ولم ينسوا طيلة السنين حقوق هذه المحبة والإخلاص. ويومًا فيومًا زادت طراوة الورود فى ربيع المحبة والوحدة وذلك

بفضل فيض الإيمان والإخلاص فحفظوا رباط الوحدة فى الحضور أو الغيبة بفضل الاعتصام والاتحاد الرصينين فصانوا حقوق بعضهم البعض، وقد ضحوا فى سبيل ذلك بالروح والمال من أجل هذه المحبة والإخلاص. ولم يختلفوا حول ذلك أبدًا، فساروا فى الطريق المستقيمة كأصدقاء حميمين مثل عقلين فى جلد واحد ولو أننى أجهل أى شئ من هذا إلا أننى أعلم جيدًا قيمة الصداقة ودورها المقدس الذى يستحق التضحية. ونصيحة الصديق للصديق من الواجبات الأساسية والحتمية.

عزيزتى رفيقه لقد أهدرتى نافذة الدعاء، ونظرة على النصائح التى وجهتها لى يتضح أنك تعتبريننى مشوشة، وأنت لا زلت لم تفرقى بين الاضطراب والعشق.

(بين العشق والصبر عليه ألف فرسخ)

ويا للظلم فلست عاشقة فلو كنت عاشقة لاعتبرت نفسى من السعداء فى الدنيا. يا ليتنى كنت عاشقة مثل زليخا وليلى وعذراء لأصبح اسمى يزين كتب الفضلاء والأدباء والشعراء يا عزيزتى إن للعشق شأنًا آخر. وشأن العشق أسمى من ذلك اللهو. وأنت فى كل حديثك تعتبريننى عاشقة فلا تجعلى العشق مرادفًا للهو. عيب عليك، فاللهو لهو والعشق عشق، ومن ثم فأنا بريئة من هذين.

«إن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين»
صدق الله العظيم(*)

وأرجو أن لا تعذبى قلبى الحزين بهذا اللوم الفارغ فلا تظلميننى.

(انظرى نحوى نظرة وفية)

(وحذار من آهتى المحرقة)

وما كتبته من أننى طردتك من بيتى حاشا لله ثم حاشا لله. هذا بهتان عظيم. فلما كان البيك وحيداً وبلا مرض، ورعاية المريض واجبة، لم أتأخر عنه، لهذا ذهبت إليه مسرعة حتى يقل حديثك عن العشق، أو على الأقل تسكتين ولا ترتكبين ذنبًا، ولا تسمى اضطرابى نوعًا من العشق. ولما أننى أصدق قولك، فهذه الفقرة برهان على الصداقة واعتراف بالجميل من قبل الجارية لسيدها ومولاها، فماذا تفيد بالنسبة لك هذه المقامات البعيدة وعدم فهم العذر.

(ليتنى أضم صدرك لصدرى)

(حتى أبثك همى القديم)

* سورة يوسف الآية رقم ٢٧ .

وبعد كل هذه التفاصيل، تكرمى وتعالى بيتى فهو بيتك.

محبتك محبوبة

وكانوا قد أحضروا الحلوى من بيت ميرزا عباس وأرسلتها إلى والدة إبراهيم بيك، وكنت قد سررت من تحسن حالة إبراهيم بيك، لأن حالته اليوم أفضل بكثير من ذى قبل. وكان يبدو هذا جليًا على وجهه.

ولما جن الليل قلت لوالدة إبراهيم بيك، لدى الليلة موعد فى بيت الحاج... التبريزى، فلو تأذنين لى، سأذهب، فقالت اذهب، فذهبت، ولم يكن أحد قد جاء، وسرعان ما أتى الجميع، وكنا ١٢ شخصًا وكان هناك شخص لم أكن أعرفه فى المجلس. لعله كان قد أتى من الغرب، وبعد تناول الشاى، قال صاحب البيت مازحًا: تحدث لنرى يا يوسف ماذا رأيت فى تبريز؟ قلت: أنا شخصيًا لم أر شيئًا، ولكن حضرة البيك قد كتب كل ما رآه. قال: يا هلاكى... تحدث تحدث قلت: هناك شىء واحد رأيته ولم يكتبه إبراهيم بيك. سأل ما هو؟ قلت:

وذات يوم كان قد جلس فى حجرتكم، فأحضر ساعى البريد خطابات شقيقك، وكان هناك آخر، فسأل أيوجد خطاب باسمى؟ قال: هذان الخطابان باسمك، وأخرجهما وأعطاه الخطابين، فأخرج ذلك الشخص الخطاب من المظروف، وأطار

ذلك المظروف فى وجه إبراهيم بيك، أى أوصلته الريح إلى جواره، ولكن كان معلومًا أنه فعل ذلك عمدًا حتى يدرك إبراهيم بيك عنوان ألقابه وجلالة شأنه، فلم يلق إبراهيم بالاً لهذا الموضوع وبهدوء قائلاً:

يا حضرة الحاج المحترم الأفضل من كتابة هذا الحشد من الألقاب أن تكتب كلمة واحدة فقط، فيباركها البارئ تعالى. فضحك الحاج ضحكة مقتضبة وقال: يا عزيزى ماذا يمكن أن نفعل الآن أصبح ذلك رسمًا وعادة، أن تكتب كل هذه الألقاب لأى شخص، فقال إبراهيم بيك: ما هذا الرسم؟ وأى جبر فى أن تضيع أوقاتك العزيزة فى كتابة هذه الترهات والمنمقات، فهنا ما يقرب من ست عشرة كلمة زائدة.

(عريضة الخلوص، دار السلطنة بتبريز) صاحبة السمو، جناب الغنى عن الألقاب، عمدة الأعاظيم والتجار وزبدة الأعيان والأشراف، صاحب المقام الجليل والرفيع، والمعروف بين الناس أدام الله إقباله، الشهير ببائع أدوات الزينة.

وحزن إبراهيم بيك بينما بدا الزهو على الحاج، وضحك شقيقكم ضحكًا كثيراً، وكاد الأمر أن يصل إلى الشجار بالأيدى فغضب البائع المذكور ونهض وهو فى غيظ شديد ورحل. فقال ذلك الشخص المتفرنج والمغمور:

فى الحقيقة: يا لها من تفاهة؟ وأى قيود حمقاء؟ وشيئًا فشيئًا يصبح إلها بل إن التأله قد لا يصل إلى هذا الحد. وفى فرنسا لا تسبق كلمة رئيس الجمهورية سوى كلمة (**السيد**) وهذا لا يقلل من شأنه قيد أنملة. بمعنى آخر ليس له لقبان حتى يكتبا فى توقيعاته وليس له ألقاب ثانوية فيما يكتب سواء فى الكتب أو فى المدارس ولم يسمع أحد منذ الطفولة بشىء غير ذلك. ولا يوجد لقب آخر له فى المراسلات، ولا أعلم كيف يهدر الإيرانيون أوقاتهم الغالية فى هذا العبث، وكيف أنهم يشقون على الناس فى تحمل ذلك، حتى اختلط عليهم الأمر فى الكتب والمراسلات فوقعوا فى أخطاء هذه العبارات والألفاظ، فغلبت الصنعة على الكتاب والخطاب، فلو قرأت لمدة ساعة كاملة لا تفهم أى موضوع، ولا تفهم له رأسًا من جذر،وقد قرأت تاريخ وصاف(*) ثلاث مرات فلم أفهم منه كلمة واحدة، فيا له من شخص غير منصف شق على نفسه وشق على الآخرين، وليس هناك أحد قرأ هذا الكتاب ولم يذم الكاتب، إذ لا يفهم من الكتاب شىء فكم أخطأ جنكيز؟ وأى ظلم فعله؟ ولماذا فعل ذلك؟ وأى شىء فعله هولاكو؟ ومع وجود هذه المشكلات يوزعون هذا الكتاب على أطفال المدارس، فإذا لم يفهم طفل شيئًا فإنه يضرب بالفلكة، فى حين أن المعلم نفسه لم يفهم شيئًا، والمؤلف نفسه لم يهتم بشىء

* تاريخ وصاف أحد الكتب التاريخية فى العصر المغولى التى يكثر بها التكلف والصنعة اللفظية [المترجم]

سوى الصنعة اللفظية والتظاهر بعرض الألفاظ، ويكتب مؤلف منصف: إن فى كتابات إيران لأمر عجيب، فلا توجد كلمة إلا وكذبها شاهد عليها، فإذا وجدت كلمة (**واصل**) فلابد أن تتبعها كلمة (**حاصل**). وتكون لصيقة بها وإذا رأيت كلمة (وجود) فلابد أن تتبعها كلمة (**ذو الجود**) وقس على هذا (**مزاج**)، و (**وهاج**)، ولو كان فى آخر الصفحة كلمة (**دروغ**) فلا شك سوف ترى فى أول الصفحة التالية (**بيفروغ**) و(**خدمت**) و(**رفعت**).

وكتب أنه ذات يوم تجمع عدد من هؤلاء العابثين، وأخذ كل واحد منهم يقول شعرًا أو نثرًا، وكانوا يتناظرون ويتفاخرون، وأخرج أحد هؤلاء الأدباء الوقورين ورقة من جيبه وأخذ يقرأ ما بها فى منتهى الفخر:

أيها الصقر المحلق، ذو الطبع السامق والذى يزيد بستان الحديث نضرة وطراوة. وقد زين الأحاديث بلآلئ من أزهار المعانى. وقد رفع بشعره الحديث إلى شهب السماء، فزين الأشعار بشقائق النعمان الجميلة. وأوصل هذا الكلام إلى أقصى حد من البلاغة، وأزال الهم والغم عن الأشعار بفضل فصيح نظمه. كما أضفى على الشعر كياسة وحكمة وذلك بفضل بركة نظمه، وأخذ فى القراءة حتى عبارة: أخرج القلب من فم تمساح الزمان، وانزوى ذو الشعر المتناثر فى أحد الأركان. ثم قال: ماذا سوف تقول على هذا يا أبا فلان؟ تحدث بسرعة فإن صبرى قد نفد،

وفى النهاية مـا آخر هذا الهراء؟ وما هى فائدتـه؟ وما هو غرضك من هذا العبث يا من تؤذى مشاعر الناس. تحدث لكى أفهم، وأى شخص من هؤلاء الأدباء يخطئ لو يعتقد أننى فهمت شيئًا. وأى شئ يفـهم من هذه الثرثـرة بهذه الطريقـة غيـر المحـببـة لنا التى تتحدثون بها. أتتوقعون أن يكون لكم الصدارة فى المجلس؟ أو أن يقول الحراس عند مـجيئكم، ابتعدوا لقد أتى الفـاضل لقد تركتم الذم لكم فى الدنيـا والآخـرة بسـبب هذا الهراء والعـبث، فـهل ستفخر بهذا الدولة أو الشعب، وماذا سيعود على الفقراء من وراء هذا؟ يا لك من رجل مجنون ألا تفكر قط أنك عطلت الناس بهذا الكم السخيف من الثرثرة. وقد أضعت عشرين عامًـا من عمرك فى تحصيل هذه الألفاظ.

وأخيرًا لقد ظللت مدة ثلاثة أيام أحـاول تفسير سطر واحد من هذه الثرثرة والهذيان. وأسألك:

هل تتـبع الكلمة المعنى أم يتـبع المعنى الكلمة؟ حـتى أنكم تضيـعون أوقاتكم وأوقاتنا، ويخـترع الرجل الغربى بعلمـه سيارة فيصـبح فى أقل فترة من ملاك الآلاف، فـينام الليل فى هناء بينما أنتم تسـتيقظون كـل ليلة ثلاث مرات حـتى تأخذوا فى الصـباح خمـسة تومانات كـأنعام من أحد الفراعـنة، وذلك بكتابة الكذب وتحرمون أنفسكم من النوم.

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

وقد قـال هذا القدر من الهراء حـتى أن الأدباء لم يفهـموا شيئًا من سذاجته.

(يعرف العالم صوت العالم)

سألت ميرزا عباس، من هذا الرجل؟ قال:

مازندرانى وهو يعيش فى مرسيليـا، ويشترى بضاعة لإيران ويرسلها. فـتمنيت لو كان إبراهيم بيك حـاضراً، فهو يشـبه هذا الرجل فى طباعه، ونهض الجميـع وشغلوا بالصلاة، وبعد الصلاة أخبرونا بالعشاء فذهبنا إلى السفرة نتناول الطعام.

وبعـد تناول العـشاء سـأل الحـاج محـسن آقـا : من هذا الشـخص المحـترم يـا عم يوسف، ومن دله على بيـوت الوزراء والأمراء وأمثال هؤلاء الأشخاص. قلت: مشهدى حسن الكرمانى هو الذى دله، وكان دليله فى ذلك **(الحاج خان)** فمشهدى حسن هذا من الرجـال الطيبـين، ويعلم بكل شىء. ووعـد إبراهيم أن يكتب له كل شهـر عن أحوال إيران دون زيادة أو نقصان. فـأعاد السؤال ذلك الرجل المطلع والعـالم بمختلف اللغات: حـسن جداً كيف كتب هذا الشخص المحترم القانون؟ قلت: أنا لم أره بعينى.

وثانية تحدث ذلك الشخص المازندرانى وقال: يا والدى بالله أين القانون فى إيران؟ وماذا يفعل؟ فهم من وقت لآخر يقولون إن الملك هكذا أمر، ويقبضون علـى شخص سكير ويجرمونه، وهم

أنفسهم يشـربون هذه الخمر علانية، تلك الحجـة التى تذرعوا بها وألقوا القبض على ذلك السكير. كما أنهم يعذبون لاعب القمار، ويغرمـونه تاركين من يرتكب الفواحش من الزانيـات، وينبغى أن يسرى هذا القـانون على الجمـيع دون استثناء. وينـبغى أن يكون نظام تنفيذ إجراء القانون على حيدة كاملة.

فـينبغى أن يحكم بالجـريمـة واحد، وأن يفـرض الغرامـة شخص آخر، ولو افترضنا أن مقترف الجريمة والحاكم الذى حكم قد جاءا فى الحى والسوق، فهما لا يعرفان بعضهما، وبالأمس قد جرم هذا الرجل فى مكان ما. فلو لم يكن للقانون شروط خاصة لما نُفذ الحكم فى أى شخص وفقًا لأى فتوى. وينبغى على الحاكم أن يمـثل هو أولاً القـانون، وهكذا أمـر الحكام أن ينفـذوا لو أن حمالاً اعتدى على آخر بما يساوى عـشرة قروش فينبغى أن يعاقب هذا المعتدى. حتى لو ارتكب هذا الجرم أمير ينبغى أن يلقى نفس الجزاء.

وفى إيراننا لا يوجد فوق الورق حرف واحد باسم القانون، ولو أن أحدًا يقـول أنه كتب فـقد كذب، وكل شـخص فى إيران بذاته هو قلعة قـانونية سواء كان حـاكمًا أو من الرعيـة سواء كان دولة أو جيشًا. فالشخص الذى يصبح جنديًا بمحض إرادته يتعدى على أى شـخص، وأحـيـانًا لو أن جـنديًا من جنود إحـدى المجموعات العسكرية سوف يسافر، فـإنه يستأجر عاملاً أو حمالاً

بدلاً منه ويعطيه اسمه وملابسه، ويرسله فى مهمته قائلاً: سافر يا هذا فى الصباح والحمال من هؤلاء الحمالين لا يعرف أين يسير وهو لا يميز يمينه من شماله. فالاتجاهات له سواء.

فلو كان هناك قانون. لأدرك العميد حدوده وما خرق النظام والقانون وما قتل العقيد الجندى، فهو يستولى على الأموال من خزانة الدولة، وما كانت حياة الجندى فى يد هذا العقيد.

وقد شيد فى إيران أربعون مصنعًا لمدة أربعين عامًا من خيوط وزجاج وصينى وتبريد وخيوط موشاة بالذهب وكبريت وفراء... الخ. وهذه كلها أموال تعود بالخير العميم على الغرب وعلى معداتهم ومنتجاتهم. وكلها فى إيران موقوفة. وعفواً الملك يأمر بشراء بعض الأشياء ويصدر الحكم ويحضر ذلك وزير الخارجية ليقول: نعم سمعًا وطاعة سوف أكتب إلى الوزير المفوض أن ينهى هذا الأمر، وطوال أربعة مجالس سيستولى كل واحد من هؤلاء على نصيبه من الغنيمة وكأنهم مغيرين فى حرب من الحروب فتضيع الأموال ماذا حدث لا يعلم أحد شيئًا. فلماذا لا أحد يدرى، كيف لا أحد يدرى، لا يوجد قانون وهو كلام فى كلام وقد تبخر فى الهواء، فقال الحاج صاحب البيت: حضرة رضا خان لقد كنت فترة من الوقت فى (**خواجة طاشان**). الآن تحدث عن عيوب العقيد والعميد. فمعلوم أن إقامتكم فى الغرب قد أثرت فيك (**فتستطيع**) أن توضح هذه الأمور، قال: إن لدى

ألف شــاهد يجعلنى غــير راض على هذه الطريــقة من الخــدمة، ولهذا السبب تركت البلاد، فأنا آكل كــسرة الخبز التى ييسرها الله لى بعرق الجبين، وقد عملنــا بالخدمة أبًا عن جد، وقد كان آبائى مضطرين، إذ كــان ذلك العصر هو عصر البــربرية، إذ كان هؤلاء يسلكون نفس الطريقة مع الآخــرين. ولكننى الآن ألاحظ أن قائد الفرقــة الفرنسيــة مسئول ومــوظف بعمل محــدد؟ وأنا لدى عمل محدد وليس من الممكن أن أختلف عن الزملاء، وأنا لا أرضى أن أساير هؤلاء فى نفس الاتجاه (**الإيرانيين**)، لهذا الســبب رفضت ولاحظت أن الغــرب فى هذا المجال يقــدرون الإنسان وأن المدنيــة أكثــر وضوحــًا. فآثرت البــقاء فى الغرب واتــبعت طريقة المــدنية والتحضر.

فقلت أنا: يا حضرة الخان فى رأيك يمكن وضع قانون فى إيران؟ ضحك وقال:

لا يوجــد فى إيران قانون بالمعنى الحــقيــقى، وإيجاده أمــر يخرج عن القدرة البشرية، فالقانون عــبارة عن معاهدة تمنح فمثلاً بالأمس كان وزن المن خمسين مثقــالاً، اليوم وزنه سبعون مثقالاً، ولكن هذا القــانون حــينمــا يُعــمم فــإن الدولة أولاً ســوف تبــيع منتــجاتها بنفــس هذا الوزن للرعيــة، حتى يتبــع ذلك الآخرون، قلت: إن تغيير الخمسين مثقالاً بسبعين مثقالاً مرتبط بالعلم إذ أنه يدرك أن العشرين مثــقالاً التى أضيفت فوق الخمــسين ستصل إلى

سبعين. قال: إن نفس العشرين التى أضفتها إلى الخمسين ستصبح سبعين وهذا الأمر يحتاج إلى علم مفصل، فمثل هذه السبعين مرتبطة بحكم قطعي وسوف يكون علم التقسيم شاملاً ذلك الحكم. والحكم الصحيح مرتبط بإنشاء المدارس، وتوافر أسباب ذلك منوط بأستاذ معلم من الأجانب.

قلت: يا جناب الخان على النحو الذى سمعت به فإن أمر القانون ليس سهلاً وبسيطًا حتى يمكن التمتع به بهذه السرعة علاوة على أنهم يقولون:

إن الأبجدية الإسلامية صعبة للغاية ولا معنى لها؟ وهى تختلف فى التعليم والتعلم عن الأبجدية الأوروبية بما يساوى عشرة أعوام(*) ولكن ذلك مهمة وزارة الثقافة التى يقع على عاتقها الإصلاح، فلو كان لدينا وزارة ثقافة؟! لكن هذه الفقرة لا تدخل ضمن موضوع القانون، ومثل هذا الأمر موجود عند غيرنا، فالأبجدية اليابانية أصعب من أبجديتنا ألف مرة، كما أنه ينبغى حفظ خمسة عشر ألف شكل حتى يستطيعوا أن يتعلموا اللغة اليابانية، وآداب تلك اللغة.

ومع وجود هذه المشكلات فى التعليم فقد تقدموا فى أقل فترة زمنية فى تحصيل العلوم والصناعات والحكم ورعاية الرعية

* هذا الأمر ليس صحيحاً فقد شهد العالم الغربى تخلفاً كبيراً قبل ذلك وكانوا ينقلون العلوم والفنون والآداب من العالم الإسلامى والأبجدية اليوم وأمس هى نفس الأبجدية [المترجم].

وجباية الضرائب واكتساب المدنية وحسن الأخلاق والآداب تقدموا فى كل ذلك بل وسبقوا الغرب بنحو اثنتى عشرة سنة. بل وكان لهم قصب السبق والآن فإن اليابانيين لديهم ١٤ مدرسة عليا وثلاثمائة مدرسة إعدادية وثمانية وخمسون ألف مدرسة ابتدائية، وتنفق الدولة على نفس هذه المدارس التى يصل عددها إلى ٤٨٠ مدرسة الملايين من الجنيهات ولديهم الصناعات التى أثارت دهشة جميع العقلاء. وشجاعتهم ونظم الجيش عندهم أوضح من أن نبينها. كما أنهم أثبتوا أنهم فى القتال ذوو قدرة وشجاعة عاليتين حتى أنهم تفوقوا على جميع دول العالم.

وعلى الرغم من أن دول الغرب جميعًا قد حرموا اليابان من جنى ثمار هذا الخير إلى حد كبير ولكن لا شك أنها سوف تتفوق على دول الغرب فى أقل فترة زمنية، وسوف تحرمهم هى بدورها من خيرات الشرق، ولو امتدت بنا الحياة سنرى أن أهل الشرق ليسوا بأقل من أهل الغرب(*).

قال ميرزا عباس: لقد كتب إبراهيم بيك إن هذه الحرب الأخيرة سوف تستمر وأنها لن تنتهى بهذه السرعة. رضا خان: ما كتبه صحيح (**فهذا الموضوع سوف يستمر**) ولن يحقق هذا سوى حمية شخص وغيرته مثل الإمبراطور ميكادو الإمبراطور الحالى

* هذه نبوءة أو رؤية صادقة تحسب للمؤلف [المترجم]

(آنذاك). إذ كانوا يسمون أجداد هذا الإمبراطور بأبناء السماء. وكان من المستحيل رؤيتهم بالنسبة لأفراد الشعب. وكان الحكام الكبار هم المسموح لهم فقط أن يقابلوا الإمبراطور مرة فى السنة. وبعد ذلك أصبح الشعب مثل إيران يفعلون بنا ما يشاءون حتى أنه أصبح كالجارية تباع وتشترى وتقتل وتجرم... و ... وحتى وصل الدور إلى حكم هذا الشاب المحظوظ. فعقد اجتماعًا على الفور وجمع فيه كل الطبقات من الوزراء والأمراء والجيش والحكومة والتجار وصغار التجار، وبشكل غير مباشر، فإن ميكادو قد أمسك بيده الإمبراطورة وقابلا الجمهور وألقى هذا الخطاب قائلاً: إن الغرض من إحضاركم هو إبراز موضع هام قد تخيلته، وفيه خير كثير واعلموا أن التخلف عنه حرام عليّ وعليكم، واعلموا أيضًا أن اليوم يأتى عليكم الملك المائة والواحد والعشرون فضلاً عنى. وقد وطأت بقدمى جميع صفات أجدادى وعاداتهم، فقد كان يعيش هؤلاء فى سهو وخطأ عظيمين، فكانوا يعتبرونكم عبيدًا ونحن معبودين أو أبناء سماء. وأقول لكم: منذ هذه الساعة لا يوجد بينى وبينكم سوى الأخوة والمساواة فقط. وقد منحت جميع أمور السلطنة والحقوق الخاصة التى كانت قاصرة على السلاطين منحتها لكم. والآن أعتبر نفسى واحدًا منكم، ومن اليوم شكلوا البرلمان وأعدوا مجلس شورى الشعب. وهيئوا كل ما هو لازم لسعادة الدولة والشعب اليابانى، واتخذوا

من مدينة الغرب وحضارتهم شعاراً لكم، وأعدوا الأسلحة الحربية ووسائل الدفاع ضـد العدو، وأعتقد أن الغـرب لن يهدأ لهم بال حتى يشردوكم عن أوطانكم، وهذا الحرص وهذا الطمع هو الذى يدفعـهم للاهتمـام بكثير من الأمـور الخطيرة، حتـى يشكلوا أمر الشرق، وبعد ذلك يقومون بإصلاحه ,وأول وسائل هذا الدفاع هو العلم والبصيرة.

ثم أنتم فى الواقع مـثل الابن المسـاعـد لى وأنا مـثل الأب لكم، وقد أعطيت لكم أربعـة أشهر مهلة، وأعدوا لى التـرتيبات اللازمة لقانون المساواة، بشـرط أن يكتب فى القانون الأساسى أنه ليس من حق الشـعب أن يصدر حـكمًا فى المجلس بدون توقـيع الملك وأنا أعـدكم أننى لن أخـتـار حربًا أو سـلامًـا بدون إطلاع المجلس.

وقـد أنهى الإمبـراطور حديثـه عند هذه النقطة، بعـد أن اتخذه الأعيان والحكام الظلمة قـدوة لهم متخلين عن ظلمهم بعد أن بكوا على ما اقترفوه من ذنوب، وقد وصل الأمر خلال الاثنين والعشـرين عامًـا أن فاقت اليابان أصـحاب الأبجدية الـسهلة فى العالم، فاحـتارت جميع دول العالم أمـام هذا المارد اليابانى الذى كـانوا يشـيـرون إليـه بالبنان. ومـن الكلمـات الحكيـمـة لهـذا الإمـبراطور: كل دولة تـكتفى بالمحـافظة على ممتلـكاتها فـإذا لم تستـطع فيجب عـلى حكام الدولة أن يوظفوا فكرهم فى تـوسيع

مملكتهم وبسطها أمام توسيع الممالك الأخرى، فإن لم تستطع أن تتجاوز ممالك الآخرين فبلا شك لن يكون صعبًا المحافظة على ملكها.

(كن ذا همة عالية فإن الرجال قد وصلوا إلى ما وصلوا إليه بالهمة العالية) وأول وظيفة حددت للمجلس كانت على هذا النحو: أن ينتخب خمسة وعشرون شخصًا من الحكماء والعقلاء ذوى الغيرة، ويشكل منهم ست هيئات، ويرسل منهم أربعة أشخاص إلى أمريكا، وأربعة إلى إنجلترا، وأربعة إلى روسيا، وأن يرسل لهم نفقات كافية لهم، فإذا ما بقيت كل مجموعة فترة من الوقت فى كل مملكة أمكنها أن تقيس أوضاع هؤلاء وأطوارهم وأخلاقهم وكذلك وضعهم السياسى فى الوقت الحاضر والمستقبل. وتعرض هذه المجموعات معلوماتها على المجلس.

ولكن رجال دولتنا قد قاموا بالسياحة أكثر من مرة فى أوروبا فى هذه الفترة، وعادوا بعد السياحة دون أن ينفعوا البلد بنصف شاهى. لأن فكرهم منحصر فى السياحة الصرفة أو بعبارة أخرى فى العبث، فهم لم يهتموا بأى شىء آخر، حتى أنهم ظنوا أن الفهم هو نوع من البدعة، والآن انظروا فإن موضوع الأبجدية ليس لها دخل بهذا التقدم.

(هنا ألف موضوع أدق من الشعر)

ولو افترضنا أن ملكنا قد تجاوز عن شئون السلطنة والامتيازات فإن الحاكم الإيرانى أو الأمير الإيرانى لا يفكر مطلقًا أن يتنازل عن امتيازاته الشخصية، وهو دائمًا يتمنى أن يسير وحوله ثلاثون شخصًا من السعاة والخدم، وهو بهذا الشكل مضطر أن يستولى باسم الدخل والعائد على أموال تحت مسميات مستخدمة، ولا يشبع مطلقًا، أو أن يستولى من الأشخاص الطالبين للعزة واللقب والمنصب على مائة تومان، وذلك فى مقابل المائة تومان التى خسرها أو دفعها لابد وأن يحصل من الرعية المسكينة على خمسة آلاف تومان.

وينبغى أن نسأل الكتبة العظام أى المستوفين عن هذا الحساب، وبهذا الشكل ينبغى أن يوجد فى الخزانة مليار ليرة أموالاً سائلة، ولكن أنا متأكد أنه لا يوجد مليون واحد، فالملجأ لله، وربما لم يعد فى الخزانة من شىء سوى اسم الخزانة، فلا فرق بين آمر ومأمور وحاكم ومحكوم فالجميع سواء، والآن يوجد العديد من المشاكل وتصل ضرائب إيران على الأقل سنويًا إلى ثلاثين أو أربعين كروراً[٢]. وهذا الرقم الـ (٣٠)، أو الـ (٤٠) كروراً هو عمل موظفين جهلة لدينا هذه الأيام. فلو كانوا أكفاء فماذا سنكون؟! شريطة أن ما يأخذونه لا يضيع هباءً. وأن لا يصبح الحكام بعد عشرة أعوام أصحاب ضياع كبيرة. وتنفق هذه الأموال على حقوق الدولة والشعب.

الخلاصة : الحديث طويل، والوقت يمر، ولو أريد أن يكون الموظف عالمًا، فأولاً وفروا المال، فلا يكون هناك قاض بلا مال، وقد قال نابليون:

تحتاج الحرب ثلاثة أشياء: الشيء الأول : المال والثانى أيضًا المال، والثالث : المال، فأولها مال، وآخرها مال، فالآن من أين ينبغى أن نأتى بهذا المال؟ فلو ظللنا على هذا النحو من الفوضى وعدم النظام، فسوف نظل على هذا الحال إلى يوم القيامة، فأولئك **(الغرب)** لديهم أموال، فقد جمعوا الأموال، ويبدون وكأن كل واحد منهم لديه عشرة أبواب للوزارة وفى كل وزارة خمسون كتابًا للقانون وقد دون فى كل كتاب خمسمائة فصل والتى تصبح عددها مليونين ونصف فصل، وبعبارة أخرى خمسة كرورات، وفى مقابل هذه التفاصيل لدينا رئيس الحكومة وهو الصدر الأعظم وينبغى أن يُجمع هذان المليونان ونصف بفضل هذا الصدر الأعظم وأن توزع بواسطته، فهو الصدر الأعظم صاحب الصدارة. ويخضع له وزير الحربية والمالية والداخلية والخارجية والجمارك والطرق والمواصلات والثقافة والبترول والبحرية والخزانة والبلاط، علاوة على أنه يصل كل يوم مئات التلغرافات عن ارتفاع أثمان الغلال وظلم الحكام وظلم طلاب المدارس وعلماء المملكة والسفراء الأجانب، وكثرة الشكاوى التى تتحدث عن ظلم الرعية وأفراد الشعب من الصباح حتى المساء.

ولو سلمنا أن هذا الصدر الأعظم إنسان قد تربى، وأيضًا عالم وخبير، كيف يمكنه أن يتحمل كل هذا مع كل مسئولياته أن يتحمل أيضًا هذه الوحشية والفحش وهتك العرض، وأن يرد على كل شخص بلفظة ابن المحروق؟ فهو لن يستطيع أن يقول على ذلك إلا أن يكون إنسانًا صبورًا إلى حد كبير. كما أن هذا الصدر ليس فوق مستوى البشر، ولا يستطيع ذلك إلا إنسان له مائتا أذن، ومائة لسان وخمسون عينًا؟!

فهل مثل هذا الشخص يعيش فى هذا الكوكب؟ حتى يستطيع أن يصلح عشرًا من أعشار هذه الأوامر والنواهى التى تتضمن العدل والإنصاف فى هذه الدنيا، أيستطيع إنسان أن يقوم بهذه المهمة؟! لا والله لن يحدث إلا هذا الذى رأيناه ونراه.

وكل هذه العيوب تظنون أن مدينتكم مثل باريس وجيشكم مثل الجيش الألمانى وعدلكم يصل لمستوى العدل فى أمريكا؟ فإذا كان هذا تصورك فانتظر حتى يخرج (**قائم مقام**) من البستان و(**أمير كبير**) من حمام كاشان.؟!

وقد تحدثنا عن نبذة عن حضارة اليابان إجمالاً والتى كانت وراء تقدمها. وعلى الرغم من أنهم أخذوا بقانون المدنية الأوروبية، إلا أنهم حافظوا على مذهبهم بشكل أكثر من الأول، كما أنهم يراعون أوامر هذا المذهب أكثر من ذى قبل. وهم يتفوقون على أى شعب فيما يتعلق بالدين والمذهب الذى يعتنقونه، فكل يوم يجملون معابدهم بشكل بديع.

ولكن هؤلاء الإيرانيين الذين ذهبوا إلى الغرب لمجرد أنهم مكثوا هناك شهراً واحداً، وحصلوا قدراً بسيطًا من اللغة والأخلاق يستطيعون به أن يتبولوا، بعد أن يعودوا إلى بلادهم ينكرون مذهبهم ودينهم، ليس هذا فحسب بل إنهم يقيمون البينة والدليل على تضليل الآخرين، فضلاً عن ضلالهم، أى أنهم يستشهدون بنفس الأدلة التى ذكرها القساوسة البروتستانت فى المدارس الغربية.

ومن أسف أنهم يعتقدون أن الشريعة المطهرة تعوق تنفيذ القانون الأساسى وهم يغفلون عن هذا أن محمداً (ص) صاحب شريعة الإسلام المطهرة قد سن أول قانون فى هذه الدنيا.

وذات يوم فإن أحد المتفرنجين والذى كان يعتبر نفسه أفضل أهل إيران وكان يعد أول شخص عاش فى الغرب، كان قد كتب إلى أحد أصدقائه هذا:

أنت تظن أن القانون سهلاً وبسيطًا؟ إذا أردت ذلك امح ٣٠ ألف موضوع من الشريعة الإسلامية، واحرقها بالنار والعياذ بالله، لا يمكن تنفيذ القانون فى إيران، وقد أرانى ذلك الشخص خطاب العالم الجليل؟ وقال:

أنصفنا بالله فانظر إلى أى مدى ضلال هذه الفرقة الباغية. فما علاقة نظام القانون ببطلان أحكام الشريعة الإسلامية؟ فماذا ترك الشعب اليابانى من موضوعاته المذهبية؟ وماذا تركت الدولة

العثمانية من أحكام الشريعـة المقدسة بل أنها سعت أكثر من أجل استحكام بنيان هذه الشريعة المطهرة.

مـا هو القانون؟ هو نفس القـانون الذى كـتبـه على أميـر المؤمنين كرم الله وجـهه لمالك الجمل رضى الله عنه حـينما أرسله إلى الحكومة المصرية، فلـو يقرأونه سيدركون كـيف أن عليًا عليه السلام قـد منح مالك الجمل القـانون، وليس هناك أدنى شك أو شبهة فى أن قانون الدولة الغربية هو نفس هذا القانون حتى أنه قد رفعـهم إلى درجة عـالية، ولا يطلب أى مسلم قـانونًا آخر غـير قانون على أمير المؤمنين كرم الله وجهه سواء فى الدولة أو الجيش أو الضرائب أو العدل، أو القضاء، فكل هذه المجالات مستقاة من قانون على كرم الله وجهه وهو كافٍ.

ويقول ذلك العظيم من جملـة قوانينه: أيها المالك اعلم أن الجنود بأمر الله المنان بالنسبة للرعية بمثابة الحصن الحصين، والقلعة المحكمـة القوية الثـابتـة، وقيـمة الدين والإيمـان، وطرق الأمن والأمان وراحـة الرعية وقـوام أمر الجيش كل هذه الأمـور مرتبطة بالدخول التى يتقاضونها حتى تقوى شوكة أولئك فلا يكونون فى حاجـة ويستـيطعون مـقاومـة العدو. ونظم أمـر الجيش ودافـعو الضرائب للقضـاة والولاة والكتبة، وأى أمور أخـرى الخاص منها والعام والأحكام والصفقات والمكاتبـات التى تتم كلها تعود بالخير والنفع على المواطن والرعيـة وتقيه شر اعتـداء الظلم أو التجاوز.

ولا يمكن أن تتوفر الراحة والدعة لجميع الطبقات المذكورة إلا بتعاون التجار والصناع الذين يجلبون الأقمشة والمنتجات من أقصى البلاد، وهم يربحون بذلك أهالى البلاد والقرى، ويزينون بها الأسواق، ويزيدون المصانع.

أما الطبقة الدنيا فهى الطبقة المحتاجة التى ينبغى أن يمد الأغنياء اليد بالمساعدة، ولا يتركونها للحاجة والعوز وكل فقير من هؤلاء له حق فى مال سيده وعلى الأخير أن يصلح أمره وألا يفسده.

أيها المالك إذا أردت أن تأمر أحدًا فاختر ذلك الشخص الذى يخشى الله ويطيع الرسول والإمام والذى يتحلى بالطهر والحلم الكامل والذى لا يغض الطرف عن أمر جدير بالنظر. وأن يقبل عذر من يعتذر وأن يكون رحيمًا بالضعفاء. وأن يصد الأقوياء، وأن يكون من أصحاب الحسب والنسب الذين ينتمون إلى أسرة كريمة. وأختص منهم الأشخاص الذين تطبعوا على العظمة، واستخدم الأفراد الذين هم يتسمون بالشجاعة والرفعة، فمثل هؤلاء الأشخاص ذوو خصال تجمع أنواع المحاسن والخير، واسأل عن أصلهم من أب وأم فإذا ما كنت تقيًا بهم، فلا تظن بهم شيئًا، وأوف بالوعد الذى وعدتهم، وينبغى أن تحث هذه الطائفة على تلك الأمور حتى لا يأسفوا لك عن تدخلهم وتوسطهم ويحسنوا الظن بك.

أيهـا المالك ينبغى أن تكـون قيـادة الجيش للشـخص الذى يتسـاوى مع جنوده فى المال. واعط الراتب المقـرر لكل واحد من هؤلاء حتى يعيش الجـميع فى سعة ورخاء. فـإذا ما روعيت هذه السلوكيـات فلا شك أنهم سوف يكونـون على قلب رجل واحد وسوف ينصاعون لأوامرك. وفى هذا الوقت إذا رأوا منك المحبة، لن يتمنوا زوال السلطنة أو انقراضها، فأسعدهم وأثنى على حسن الخدمة واعـرف للجميع مقـاماتهم وأقدارهم، فامـدح معاناة كل واحد منهم، إذ أن هذا المدح وإبرازه يحثان على الشجاعة ويحث الكسـول على العمل. وينـبغى أن تعـرف كل واحد بعـمله، ولا تنسب كد شخص إلى آخر، ولا تبـالغ فى هذا، أى لا تنقص فيه أو تزيد عنه، أى لا تحتـقر الجهـد الكبيـر الذى لا يملكه ذو الجاه الرفيع. ولو حدث أمـر خطير واستشكل تداركـه ولم تعرف ماذا تفعل، فافتتـحه بالله والرسول. إذ قال الله تعالى (**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الـله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكـم فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول**).

أيهـا المالك اختـر للأوامر الشـرعيـة وإنهاء مـهام القـضاء الشخصى الذى يكون قد تفوق فى الحـقيقة على الآخرين، واسأل عن عـمل عمـال القضـاء وحكام الشـرع، ودع لك بينهم عيـونًا خفيـة، ووسع عليهم فى معاشـهم، حتى لا يصبحـوا فى حاجة فيتصرفوا خلافًا لإرادتك، فلا يرتشون من الناس.

أيهـا المالك كن حذرًا بفـساد المفـسد، الذى يروج مـذهب الأشرار، فهـؤلاء الأفراد يصبحون أسـرى الغرض وهوى النفس، وهم ينأون عن دينهم طـلبًا للدنيـا، وينبـغى أن تنظر فى عـملك وتختـبرهم وبعد الاختـبار تراعى هذا: أن تستـغنى عن الشخص الذى يقبل الهدية برغبته.

أيها المالك: حـدد وقتًا معـينًا للأشخاص المحتـاجين الذين لهم معك حاجة، وفى ذلك الوقت الذى عقدت فيه جلسة ينبغى أن يحضرها العـامة وهيئ نفسك لاستماع مطالب العـامة، وتذكر عظمة الله تعـالى وحقه. واقضِ بينهم بحـيث لا تخف السائلين وأصحاب الحاجة، فلا تنطلق ألسنتـهم ولا يستطيعون أن يتحدثوا عن آلامهم بجرأة كاملة.

أيها المـالك: لو أن صاحب حـاجة أساء الأدب فـلا تشح الوجـه عنه. أيها المالك لا تجلـس كثـيرًا فى الخلوة، ولا تحـجب نفسك عن الرعية، أيها المالك لا تفرق بين الغريب والقريب حتى تتساوى الرعية فى حقوقها فى الدولة.

ولو اخترت جميع أوامر حـضرة أمير المؤمنين عليه السلام، وشرحـتهـا كاملة، لاسـتقى أهل الغـرب فى قوانينهم مـن فيض القوانين السابقة، وعملوا بها، ولسعدوا أيما سعادة.

ولســوء حظنا نحن المسلمـين اسـمًا، نسـمى هذه الأمـور بالقانـون الغربى، ولو مكثنا خـمسة أيـام فى الغرب، فإننـا نهين

مذهبنا وديننا جهلاً منا بحقائق الأمور الشرعية، ونعتبر الشريعة المطهرة شيئًا مختلفًا عن القانون، فلو اقتدينا بهذه القوانين لتركنا القوانين الغربية المزعومة، أو فعلينا أن نمحو العديد من القضايا فى مذهبنا.

ولو كان لدينا ذرة من العقل، سنعلم أن الصلاة التى أمرنا بها نقيمها خمس مرات فى اليوم، كما أننا مأمورون أن نؤديها كما يجب، ومن ثم لسنا فى حاجة للقاضى والحاكم والعمدة والساعى. لأن الله سبحانه قال فى محكم كتابه: " إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر" والمصلى لا يتعدى على ممتلكات الإنسان، ولا ينبغى أن يكون هناك اعتداء على جاهه أو ثيابه. ولو أن مديونًا يستطيع أن يدفع الدين قبل الصلاة ثم صلى فإن صلاته لا تجوز. كما أنه لا ينبغى أن يطالب شخصًا غير قادر بأداء الدين، ويجب على هذا المصلى المسلم أن يحض الناس على الخير وأن يمنعهم عن الاختلاف وأن يساوى بينهم. وأن يخلع عنه رداء الكبرياء، وأن يتزين برداء التواضع، وأن يتحلى بآداب سالك الطريق مع العبد والسيد، مع الملك والصعلوك، وأن يكون على حذر من الكذب وأذية الناس، ولا يجوز الضرر والجفاء بأى حال من الأحوال، فلو كان الإنسان إنسانًا ما ابتعد عن منزلة الإنسانية قيد أنملة، لأن أمر الله ورسوله بالمساواة من أسمى القوانين لبنى الإنسان. وقد نهتنا الشريعة، أن يكون الأخوة المؤمنون غير ذلك،

والشريعة المحمدية مستمرة إلى يوم القيامة، كما هو جميل ما نظمه مولوى فى المثنوى:

(تعلم الإخلاص والعمل من (على)

(واعلم أن لأسد الحق ميزة عن الكسول)

(وبلغ البطولة فى الغزو)

(وحمل السيف بسرعة وعجلة)

(حتى يفصل به الرأس عن البدن)

(ومن الحزن نثر الرضاب عليه)

(وألقى شيئًا مثله على وجه على)

(وهذا فخر لكل نبى وولى)

(ألقى (ذو الفقار(*)) من يده وجلس)

(وترك قتله وأصبح ثملاً من الوجد)

(واحتار ذلك الفارس من هذا العمل)

(أى من إظهار العفو والرحمة التى ليست فى محلها)

(قال رفعت علىّ السيف البتار)

* ذو الفقار: اسم سيف على بن أبى طالب [المترجم]

ويقول سلطان الأولياء والشخص الأول فى مخلوقات الله على هذا النوع من السلوك والتصرف، إنه لا يليق بالاتباع أن يعترضوا على قول ذلك القائد وفعله، بل إن إتباعه واجب عليهم، وعليهم أيضًا أن يتشبهوا بسلوكه أى سلوك ذلك العظيم.

ثم اتضح أن المصلى ليس محتاجًا إلى أى شىء ولكن ليست الصلاة تلك التى يؤديها بالسجود على الأرض فى حركات محسوبة، أى أنه يعبد الله، وأن الله لا يحتاج إلى صلاته وصيامه، فإذا ما أمرنا الله بشىء فصلاح العباد فى الأخذ بذلك الشىء، وإذا ما نهانا عن شىء فإن صلاح العباد فى ترك ذلك الشىء.

وينبغى أن نقتدى بالدولة والشعب اليابانى، فهم جميعًا يتمسكون بعبادتهم أو دينهم المتمثل فى عبادة الأوثان، ومع هذا فقد أتوا بقوانينهم من الغرب، وطبقوها فى دولتهم، وأصبحوا ذوى قدرة فائقة فى كل شىء، مع أنهم لم يفرطوا فى ذرة من عبادة الأوثان.

والقانون عبارة عن الحكم الصحيح وإعداد الجيش، وجمع الضرائب وحفظ حقوق الرعية وتنفيذ العدل. ولكننا نحن المساكين لم نصل إلى هذا أو ذاك (**خسر الدنيا والآخرة**)، فنحن نجهل القانون ونجهل أمور مذهبنا، مع أن الشريعة المحمدية بسيطة

وسهلة، وأى تقصير موجود هو فى إسلامنا نحن الأفراد ونحن لا نعلم شيئًا عن الإسـلام، فلا نعرف شيئًا عن أمـورنا القومية، ولا نعرف شيـئًا عن حقوقنا ونجهل حدود بعـضنا البعض، ولا نعرف شيئًـا عن أى شيء، ولو لدينا شيء فهو مجـرد قول فقط، وليس فعلاً أو عملاً، وإذا مـا تجمع عدد منا وشرب ، ودار الحديث فى هذا الشـأن، بـدأنا فى الذم والقـدح، ويبـدو عـلينا الأسف، وا حـسرتاه، فـقـد ضرب وطننا، وتخلـف شعـبنا! ليـتنا نسلم من أصحـاب العمامـة والذين ارتدوها بالاحتيـال والتزوير. فنحن لا نفهم شيئًا سوى مسألة الطهـارة، فنحن المخربون الحقيقيون للدولة والشعب والبعض منـا مزور، فهل يسمع من أحد يقـول مثلاً: وا أسفاه لقد أصبحت دولتنا ضعيفة لا تستطيع أن تحفظ حتى أموالنا وأعراضنا وأرواحنا وشرفنا.

ومن الظلم أن وزراءنا غرقـى فى بحر العيـوب والمساوئ. وخوفًا من ظهـور عيوبهم، يرمون رجال الدين بالعـيب والفساد، ومن الواضح أن حكاية هؤلاء مثل حكاية اللص والـقاضى. قيل لعالم: إن فلان القاضى قـد سرق، قال: لا تقل هذا بل قل: إن فـلان اللص يقوم بالقـضاء، وإلا فـإن القاضى لا يسـرق وآلاف اللصوص يظـهرون فى زى القاضى، وهم يسـرقون مـال الشعب وهيبـة الشريعـة، ومنوط بهم للأسف صلاح الدولـة والحكومة. ولكن أعمـال حكام الدولة فى غاية السوء. وهم يخـشون اللص

لأنهم لو كانوا مسئولين عن أعماله، ما وطأوا بأقدامهم حقوق أى شخص مظلوم؟ وما أخذوا الرشوة بأى حال من الأحوال من شخص ظالم. فأضاعوا بالباطل حقوق المظلوم، فإذا قلت لماذا حكمت بالباطل بالنسبة لفلان المظلوم! يجيب قائلاً: بنفس الدليل والقانون الذى بعت به أنت حق الدولة والشعب للشخص الأجنبى، وقد اتضح لديك أن فلانًا الحاكم الظالم قد ظلم وطغى ومع ذلك قبلت الرشوة، وأعطيت له حكم المدينة كذا رخيصة، أتريد بعد ذلك أن أوضح ظلمك أكثر من هذا؟

(ليس منا ولا منك فاذهب ولا تتحدث).

وفى هذا الوقت انتهت المجادلة بالمصافحة، فلو يهتم وزراؤنا بالدين والتربية، لزال الظلم، ولو أن علماءنا الأفاضل أكثر الله من أمثالهم والذين هم حفظة الشريعة وحماة الشعب لو أنهم أخلصوا فى أعمالهم واختاروا القضاة من الأشخاص الأكفاء ما ضاع شرف الدولة هباء، ولا تبددت ممتلكات الشعب.

لو أن الحال تمر على هذا النحو، لنعم الجميع بالراحة وكما ذكر، أخذ فى الحديث بعض الأشخاص دون توقف، وكان منهم من عاد من باريس وآخر من إسلامبول والثالث من روسيا، وأخذوا يتحدثون كالببغاوات أحاديث جوفاء، وشيئًا فشيئًا، فإنهم سيصدون الناس عن الدين والمذهب لدرجة أن البعض أمسك بتلابيب البعض الآخر قائلاً:

أيها الجــهلاء لقــد هجرتم إيران منذ خــمس سنوات، بسم الله: هلم أصلحوا كل ما تستطيعون إصلاحه حينئذ بدوا كحمار وقد سقط فى الوحل، وكفوا عن الحديث، وعندما كنت ضيفًا فى موسكو لدى أحد المتفرنجين، وضعت السفرة والشراب ومشهياته، فنهض أحد المتفرنجين، وتحدث حــديثًا عابثًا وشرب صاحب المنزل الخمر دون حياء، وتناول كل شــخص من أشخاص المجلس أيضًا الخمر، وشــيئًا فشيئًــا وصلت جاريتهم، والأحبة الغــائبون وأخذ يتــحــدثون فى كل ركــن من أركــان المجلس عــن حب الوطن، ويلقون الشعر، وأخذوا ينتقدون غــيبة القانون فى إيران ويتأسفون لذلك، ولم تمر ساعــتان حتى عــجز واحد عن الــنطق مثل الميت الذى يحس ولا يتــحرك، وتقــيــأ الثانى فلوث المجلس وأصــاب الثــالث نوع من الهلوســة، وأخــذت أنا أرقب تصــرفــات هؤلاء المدعين للمــدنية ومن يطلبون النظام والقــانون، وكنت قد انزويت فى أحد أركــان المجلس، وفى مجلس آخر قــبل أن يدور الحديث فى هذه الأمور قلت:

أيها الأخساء الببغاوات، لقد مكثتم العديد من السنوات فى هذه البلاد ولا زلتم لــم تتعلموا قــانونًا من القوانين العــديدة بهذا الشكل المخــزى والمنفر وتتــحدثون بلســان ملوث عن حب الوطن والقانون. وهكذا تظنون أنكم أصبحــتم أفرادًا كاملين لمجرد أنكم تجففون المقعد بالورقة وترطبون الفم بالشراب؟

وأول صفات الداعين لكل قانون فى كل دين ومذهب وقدم وشعب أن يتحلوا بالأمانة والديانة، وينبغى مع الاعتقاد الطاهر والراسخ فى الدين والمذهب أن ينشروا القانون من أجل انتشار مذهبهم. فبدون الدين والمذهب لا أهمية للقانون، أو النظام، فأول درجات الفوضى وعدم النظام التفريط فى أحكام المذهب. فى حين أن القانون والنظام من أجل المحافظة على الشريعة والدين، ورعاية المعابد وصيانة أحكام الكتاب السماوى وإعداد الجيش من أجل الجهاد وصد هجمات الأعداء. ولو يقال أن القانون من أجل حب الوطن والمحافظة عليه سوف أقول: إن الجنود بل معظم الرجال العظام من طبقات الشعب المختلفة لا زالت لم تسمع أبدًا عن حب الوطن ولم تفهم منه شيئًا قط، والجميع بعيد كل البعد عن هذه العوالم. وكل النتائج الحسنة للقانون سوف تشمل حال الوطن، وعمومًا فقد فلت طرف الحديث من أيدينا، وسنعود ثانية إلى موضوعنا.

والقانون وتنفيذه فى إيران صعب وسهل فى نفس الوقت وما هو صعب وفى قمة الصعوبة، أنه لتنفيذه لابد من آلاف التومانات(٣) وأن يقتل كثير من الأفراد من أجل ذلك، ولكن ما هو سهل لا حاجة للمال ولن تسيل قطرة دم واحدة من شخص.

المشكلة أن وزراء إيران أرادوا أن ينظموا القانون وفقًا لعقولهم. إذ أن أهل الغرب قد عانوا مائتى سنة فى سبيل ذلك

وضاعت أرواح عديدة أيضًا من أجل ذلك، ثم أعدوا القانون، والآن هم ينفذون ذلك بمنتهى السهولة واليسر. كما قاموا بترجمته، وعلى الفور فإن بعض البلاد التى تختلف عن إيران تأخذ بهذا القانون وتقوم بتنفيذه. ولتوضيح هذا الموضوع نذكر عدة أسطر من كتابات شخص معروف فى هذا المقام، حتى يتضح أن أصل الموضوع ليس سوى هذا ولن يكون إلا هذا.

ويكتب الشخص المعروف هذا:

وفى هذا الوقت فهم بعض وزرائنا جيدًا أن المحافظة على دولة إيران ليس ممكنًا إلا بالأخذ بالقوانين، لكن أغلب كبراء إيران لم يفهموا أصلاً أن فى وجود القوانين أية مشكلة وأية معضلة؟ وتصورهم أن كل صاحب عقل يستطيع أن يأخذ القانون وينفذه، ولن أشرح هذا الموضوع أو هذا التصور الخاطئ، بل سوف أعرض إلى دقة هذه القوانين وصعوبتها إلى الحد إلى أن العقل يعجز إلى حد كبير عن دقائق هذه القوانين ورموزها، ولا يمكن أن يصل إلى مكامن فهمها.

ومنذ ثلاث آلاف سنة حتى الآن سعى الحكماء العلماء وكبار العقلاء وأمعنوا الفكر والبحث فى هذا الأمر فلو اجتمع العقلاء الحاليون فإنهم لن يزيدوا أو ينقصوا سطرًا واحدًا فى شأن القوانين الدولية، وأن كل ما يقولونه سيكون خارج هذا الموضوع أو من باب التكرار. وإن إقرار كل قانون من هذه القوانين استغرق

أكثر من مـائتى سنة، ولو نحسب الخسائر التى خسرتهـا الشعوب الغربية فى سبيل تأسيس القوانين الدولية فى إنجلترا أو فرنسا، فإن كل سطر من سطور أصول القوانين قد كلف عشرة كروارات على الأقل.

وباستعراض هذا، فإن وزيرًا مـغمورًا يريد أن يرفض أفضل القـوانين الغـربيـة، والأعـجب من ذلك أنه يـريد فى نفس هذه الجلسة أن يعد قانونًا مثل القانون الغربى ويكون أفضل؟ ثم يقول:

إن الغرب لم يأتوا بهـذه الأنظمة من السماء. ونتـصور أننا لو أمعنا هذا العـقل لأوجدنا مثل التلغـراف والتليفون والتـصوير وأمثال تلك الأشياء.

ولو كان بإمكانى لجمعت هؤلاء الأشخاص العـباقرة جميعًا وأعطيتهم سـتة أشهر مهلة حتى يبـينوا لى معنى الأوراق النقدية، ولو قلت: أعدوا شـمعًا رقيـقًا فسـوف يقولون: نحن لم نذهب لروسيـا ولم نتعلم ذلك، ولكن لو يقال: نظمـوا إيران فهى مملكة مـترامـية الأطراف، فـسوف يجـيبـون على الفور نحن جـاهزون وسوف نسبق الجـميع فى هذا الشأن. فإذا سـئلوا بأنكم لم تقرأوا علم صناعـة الشمع والذى يـحتـاج إلى مئـات من العلوم، وأين قرأتم هذا؟ سيقولون:

سـوف نصنع ذلك من باب العـقل، والخـطأ فى ذلك أنهم يعتبرون أنفسهم عقلاء بحيث يثقون فى جهلهم.

والعجيب فى هذا حتى الآن لم يعرفوا أن هذه الأمور تحتاج إلى علم، وليس عقل.

والله سبحانه ينسب العلم له فى خلق كل الأشياء. ألم يقل أنه عليم بخلق كل شيء، ثم معلوم أنه لا يتيسر خلق أى شيء بدون العلم. فلو أن عقل شخص من هذا الشعب أفضل من عقل أفلاطون فلن يتعلم أحد الفنون الجديدة، لن يتعلم أحد ما هى إدارة المدينة وما هى معنى البلدية أو المجلس؟ وسوف تدار المدن الإيرانية بنفس العقلية القديمة لمدة ألف سنة أخرى.

وأكبر عقبة فى رقى إيران هى أن وزراءنا يفضلون عقولهم[٤] على علوم الغرب وفنونهم. فإذا انتبه الوزراء لمدى خطئهم الفاحش هذا فإن إيران سوف تنظم فى شهر من الوقت، ولا شك أن وزراء إيران أشخاص عقلاء وأدباء فاضلون وكل واحد منهم يحفظ مئات الأشعار العربية، ولكن بكل التواضع تطلب الرعية منهم أن يبعدوا عقولهم عن تنظيم أحوال الدولة، وأن يستخدموها فى أشياء أخرى، فقد أخذوا بعقولهم طيلة القرون السابقة وذاقوا لذة ذلك وهذا كاف.

وأنا لا أقول أن الحاج ميرزا آقا سى ليس له عقل أو الوزير نورى كان ظالمًا. وأنا لا أقول هذا طالما أنهم جهلوا علم المملكة، فقد ضاعت أرض إيران، بل إن الأمر يقتضى أن لا نقنع بعقلية

وزرائنا، وأن نستفيد إلى حد ما من علم الوزراء الأجانب، والغرض من هذا العرض المفصل أن إيران لن تأخذ بالنظام إلا لو أخذت بنظام الديون [٥] وأن تنظيم جهاز الديوان يقوم على شيئين: الأول أولاً علينا أن نعلم هل النظام أمر لازم وضرورى أم لا؟ ، الثانى: إذا ما أدركنا ضرورة النظام فبأى شكل يمكن تنظيم هذا الديوان؟

وبعد توضيح هذين الأمرين، بدا واضحًا أنه لو لم نأخذ بنظام الديون، فليس بعيدًا أن الدولة الإيرانية سوف تظل فى حالة الفوضى والارتباك هذه حتى ثلاثين عامًا آخر.

وما هو بدهى أن أمراء إيران لا زالوا ينكرون ضرورة هذا الجهار، ولا شك أن هؤلاء يهتمون فقط بمصالحهم الشخصية، ويصفرون النظم عن صالح نظام المملكة، فلو أنهم اهتموا ١/ ١٠٠٠ فى إصلاح مساوئ جهاز الديوان، لما أصبحوا الآن فى حاجة إلى تغييره قط(*).

وقد كان بعض وزراء إيران أصحاب غيرة ومن المهتمين بالنظام، ولكن بدلاً من أن يهتموا بأحوال النظام، فقد اهتموا لمدة طويلة بالأمور الفرعية والثانوية. وتنظيم إيران مرتبط بفهم نفس هذا الموضوع، وكل شخص غير هذا الموضوع فى أذهان وزراء إيران، فقد قدم خدمة كبرى للغاية للدولة الإيرانية.

* المراعى متأثر فى موضوع الديوان هذا بميرز ملكم خان. [المترجم]

والشىء الذى لا يمكن إنكاره فى أواخر هذه الفترة فإن بعض حكام إيران قد اهتموا إلى حد كبير بهذا الأمر، وفعلوا الكثير فى هذا المضمار، ولكن هذه المحاولات قد باءت بالفشل، أو لم يهتم بها، وطالما أن الديوان لدينا غير منتظم فلماذا الاحتفاظ بهذا العدد الكثير من الخدم؟ وفى هذا الشأن فقد تشاوروا كثيرًا، وتوصلوا إلى قرار قاطع، فلماذا لم ينفذ هذا الحكم وهذا القرار مع كل هذه التأكيدات. ويتضح أن هذا الجهاز **(الديوان)** غير منظم، ومن ثم فوضع الديوان عندنا ناقص.

ولو عرفنا طريق معادن الفحم لعاد هذا على الدولة بالنفع سنويًا بعشرات الآلاف. ولكن مع هذا الوضع فإن جهاز الديوان مستحيل، ويمكن أن نسمى هذا فقط جهازًا لسقاية الماء(٦).

فلو عمّرنا **(جرجان)** لسهل أمر التركمان ولكن لم يحدث لماذا؟ ليس لدينا ديوان. فلو نريد أن نعد جنودنا مثل جنود الجيش الغربى وأن نأتى بمئات من المعلمين فهذا مستحيل، مستحيل لماذا؟ ليس لدينا ديوان.

ولن تزيد ضرائبنا عن هذا الحد، ولو زادت فإن هذا الأمر سوف يتسبب فى آلاف المشاكل. لماذا؟ لأننا ليس لدينا ديوان. وأحيانًا ترى وزراءنا وكأنهم أخذوا بالعلم الغربى، فهم يحضرون المعلمين من الغرب من أجل الجنود، ولكنهم من ناحية أخرى هم ينكرون علم وزارة الغرب. وكأنهم اعتبروا أن علوم الوزارة

وفنونها مثل الجندية لا أساس لها، وهكذا يظنون إن إدارة البلدية ينبغى أن تقوم على أصول تتارية، وأن الضرائب تنظم كما كان مع عصر جنكيز خان وفى أية دولة ليس هناك ملك يصدر أحكامًا مثل ملك إيران، لماذا؟ لأنه ليس لديه ديوان.

وفى إيران فإن تحصيل أى منصب ليس مرتبطًا بأى شرط أو قاعدة، وليس هناك شخص يدرك أى علم تريده الدولة الإيرانية؟

وأهل إيران أكثر جدارة واستحقاقًا من الشعوب الغربية وهم مستعدون لتعلم كل علم، ولكن بسبب عدم تحديد الشروط والقواعد اللازمة لذلك، فقد تخلفوا فى كثير من العلوم. وهم يمتازون عن غيرهم من الأشخاص فى تحصيل العلوم.

وإصلاح هذا العيب الكبير ليس بإنشاء دار الفنون، وينبغى تحديد الشروط لتولى المناصب أى يوضع قانون ولا يُرقى شخص إلى الدرجة العليا أو المنصب الأرفع إلا بتحصيله هذه العلوم **(والمعروف بقدر المعرفة)**، وإذا ما نفذ هذا القانون حتى عشرة أعوام، فبعد عشرة أعوام أخرى سوف يشاهد فى أرض إيران أرباب العقل والتدبير والعلماء الأكفاء المتميزون.

وإذا كان الجميع يرغبون فى علو الجاه وكثرة المال ويطلبونه فإنهم سوف يزيدون دخل الأفراد إلى أضعاف مضاعفة وسوف يتبوءون أرفع المناصب، فلو كانت هذه الدرجات مرتبطة بوجود العلم، فسوف تصل الدرجات العلمية لرجالنا من كل طبقة إلى

عنان السماء، ولكن الآن أنا مـثلاً لدى ابن ذكى، لا هو يفكر فى اكتسـاب العلم ولا أنا أشجعه على ذلـك لأن الوصول إلى درجة عميد تعتمد على ألف تومان، ونيل الحكومة الفلانية مرتبط بعشرة آلاف تومان، وكل شخص غنى يحصل على ما يريده.

وهذا ليس مثار عجب كثير، فالعجب فى هذا أننا نريد مع كل هذا أن تكون لنا سفارة فى (**باريس**) وأن يكون لنا المعاملات الغربية ونكون فى مصاف تلك الدول.

الخلاصة : أن وضع القانون فى إيران سـهل وليس هناك شك أو ريبة فى أننا يمكن أن نزيد عـائد الأراضى فى عامين إلى أربعين كـروراً، ولكن بشرط توافـر النظام وبشرط أن نجـعل دولة إيران تحت مظلة جهاز الديوان ولا نبيع ذلك.

ويكتب حكيم إنجليزى إلى ملكه قائلاً:

إذا ضاقت بك ضـائقة أحيانًا، بـع أساس السلطنة لكن لا تبع الحكومة والولاية إذ أن التجربة دلت على أن العاقبة لن تكون محمودة.

لكن الحكيم أو الفـيلسـوف الإنجليزى غـفل فى هذا المقـام حيث أن الدولة الإيرانية تبـيع الحكومة والولاية لمدة ألف سنة ولم تتمخض عاقبتها عن شر.

الخلاصة : أننى شعرت بصداع فى رأسى، ولم أتحدث مثل هذا القدر من الحديث من قبل، ولمـا كان هناك عدد من الإيرانيين

الذين وصلوا حـديثًا من **(مارسيليا)** بفرنســا، فنظرًا للفراغ كنا نتـحدث هـذه الأحاديث الجـدليـة، ورأيى يخـتلف عن آرائهم، وكانت هذه عادتى فى مثل هذه الأحاديث.

قال الحاج محسن آقا:

يا حضرة الخان: فى الحقيقة لو أنك تتحدث هذه الأحاديث ليلاً لمدة ثلاثة أيـام، فإنى سأحـضر وأداوم على الاستـماع، وفى الواقع كان حديثًا طيبًا.

الخلاصة: بعد تـناول الشاى، كانـت الساعة قـد بلغت السابعة: وتبـادلنا عبارات تحيـة الوداع وتفرقنا، وفى الطريق قلت لرضا خان فى ود أيـها الخان: فى الواقع لقد تحـدثت جيدًا، وأن الحاج محسن آقا صديقنا يعتقد هذا:

إن تنفيذ القانون فى إيران يعد مشكلة.

قال: يا والدى العزيز(٧) كل هذا نوع من الحجج، لأن هذه الأنظمة القـانونية صحيـحة، وقد سُفك فى سـبيلها دماء كـثيرة، ولأن الرعيـة أحيانًا تخـاف من القانون، وقد أنكر رؤسـاء رجال الدين هذا القانون فـترة من الوقت، كمـا اعتبـره السلاطين ينافى استقلالهم فاتخذوه ضدًا.

واليـوم أثبتت التـجربة فـى إيران بالملاحظة أن حكم الملك واستـقلاله مع قـانون الدستـور أفضل وأعز ألف مـرة من الحكم

البربرى، كما أدركت الرعية جيداً أن الرفاهية والجاه ونفوذهم مرتبط بنظام القانون وبتوحيد العلماء.

ومن الأفضل أن تنفذ أحكام الله وأوامره بالقانون وأن لا تعطل، ولو أراد أحد غير هذا فسوف ينتشر الفساد بينهم، وتتفشى الأنانية وحب الذات، ولا يخالف القانون إلا عدد قليل من الوزراء غير المنصفين الخونة الذين يستفيدون من غيبة القانون، فتتعود الرعية على ذلك ويصيبها الضرر. وأى شخص ينكر القانون والدستور هو شخص مغرور لا يحبه أحد وكل الأعذار التى يتعللون بها لا فائدة من ورائها.

ويبدو أنهم يخيفون الناس حتى لا يرغبوا فى القانون فتلحق بهم الخسارة فى مصالحهم الشخصية. وفى نظرى أن تنفيذ القانون فى إيران سهل وبسيط للغاية وهو كأنك تذهب إلى دكان العطار فتشترى منه جنزبيلاً، أو خبزاً، أو ثوباً محاكاً.

إن أردت اذهب غداً وأحضر كتب القوانين الإنجليزية وترجمها وصغها ونفذ نظام القانون.

وأول شيء أننا وأولادنا نقتنع بهذا القانون ثم تقتنع به الرعية، وتصور وزراؤنا وحكامنا أن يقوموا هم بالحكم ويتولى التنفيذ كبير السعاة، لا شك أن القانون بهذا الشكل مشكلة.

الخلاصة: أننا وصلنا إلى مفرق طرق، فانفصلنا وتبادلنا كلمات الوداع، وبعد أسبوعين قالت لى والدة إبراهيم بيك:

استعد يا ميرزا يوسف للسفر إلى **(طنطا)** فقد حان موعد فلان وفلان. فحصل ما عندهما ولو اعتذروا لاتبع لهم القطن، وأقم هناك وبع المنتج، ولا تجدد المعاملة معهم ثانية ومما هو واضح أن إبراهيم بيك لن يشفى سريعًا حتى ينهى هذه الأمور بنفسه.
قلت:

سمعًا وطاعة، وأعددت حاجيات السفر وأتيت وقبلت إبراهيم بيك وطلبت من والدة إبراهيم بيك أن تخبرنى بأحوال إبراهيم بيك، وودعت محبوبة، وسرت، وقد استغرق هذا السفر أربعة أشهر ونصف الشهر منذ الذهاب حتى يوم العودة، إذ بناء على رغبة والدة إبراهيم مكثت هناك حتى موعد بيع القطن.

وكان محصول القطن جيدًا، ولكن المشترى لم يأت فى الوقت المحدد لذلك أخذت النقود من بعض الأفراد، وجددت المعاملة مع البعض الآخر، وأخذت السندات وعدت وقدمتها أى النقود والسندات إلى والدة إبراهيم بيك، وذهبت إلى إبراهيم بيك. فرأيت نفس الطعام، ونفس الإناء، ونفس اللون ونفس الوجه، وذهبت لمصافحته، فغلبنى البكاء ولكننى تماسكت وأخذت فى المزاح وقلت: محبوبة هانم: إن البيك يسعد ثانية بهذه الحال وفقًا لهذه المقولة:

(لو جلست للتطبيب فوق وسادتى)
(سأشفى من المرض تمامًا)

قالت محبوبة: ليت الأمـر كان كذلك، ولكنه يختلف عن هذا.

(خطأ أن يقال أن خلاص القلب من أجل القلب)

(وقد دما قلبي حزنًا وقلبه في غفلة).

وطوال الخمسة أو الستة شهور لو أنه كان يتفحصني بنصف نظرة إشفاق فهذا كاف لي في دنياي وآخرتي. إذ أنه يجهل من أنا ويجهل والدته وأخته سكينة هانم، ويجـهل إن كان يوجد شخص أم لا وفقط لم يسـمع حديث على لسـانه سوى (**يا حق يا مدد)** قلت: محـبوبة هانم: تعـالي وافعلي أمـرًا، قالت: مـاذا أفعل؟ قلت:

بما أن صوتك شـجي، فخـذي العود يومًـا واعزفي أمـامه وغني، لأن الموسيقى واللحن الجيد لهـما تأثير خاص على جميع الأمزجة، خاصة على مزاج المريض ربما يتحسن.

(إن الصوت الحسن من الفم والشفة الحلوين)

(يصنع النغم وإن لم يفعل فهو يستميل القلب)

قـالت: سمـعًا وطاعـة، ولكن بشـرط أن لا تكون والدته موجودة.

قلت: لا شك ذات يوم سـتـذهب إلى الحمـام أو إلى أي مكان آخـر، فحـاولي لأرى هل يؤثر هذا أم لا؟ قالت: أتعـرف **(سكينة)** بهذا؟ أجبت: سأوصيها أن لا تخبر أحدًا قالت:

حسن جداً، فحينما تغيب والدة إبراهيم، سأحضر للغناء وأعزف على البيانو والعود والقانون، وسأقوم حتى بالرقص والتمثيل حتى لو ألقى نفسى من النافذة طالما أن هذا سيجدى فى شفائه، سأفعل كل ما أستطيع ولن يضايقنى ذلك.

ومرت عدة أيام، وذات يوم رأيت أن الحاج مسعود قد أقبل وقال لصاحب الجياد:

اربط الجياد، فسألت ماذا ستفعل؟ قال: إن والدة إبراهيم ستذهب إلى زيارة مسجد الحسين، فرأيت إن اليوم فرصة، ووصل الحنطور، فقالت والدة إبراهيم، تعالى يا سكينة لنذهب معًا، لتدعى لأخيك أيضًا، لعل دعاءك يكون مستجابًا، وركبوا وذهبوا، قالت محبوبة: على الرغم من أن الحاج مسعود لن يقول، فمن الحيطة أن توصيه أيضًا قلت: **(على عينى)**.

فصعدت وأحضرت العود والقانون ووقفت وقالت: يا سيدى وحبيبى تعلم أنت أن جاريتك ليست بهذه الوقاحة، حتى أنها فى حضورك تضحك ضحكة فاترة، وحتى أنها تعزف الموسيقى، وترفع صوتها فى حضورك حتى تعود لك صحتك وعافيتك. مولاى إننى أنتظرك لمدة تسعة شهور، وعينى ترقب قدومك الشريف، ولفراقك فقد حرمت النوم والأكل على نفسى.

والآن فإن الليل الحالك تبدل بصبح الوصال، ومن شدة الفراق قد ذبت حرمانًا. وقد جعلت اليوم المضىء عندى يومًا

حـالك السواد بسـبب مـرضك، فأخـذت جـاريتك تشدو بهـذه الكلمات لهذا السبب وراحت تبكى من عينيها مثل سحابة نيسان، فأخـذت العود، وراحت تشدو بتلك الآهات البـاردة لقلب زاخر بالآلام.

(لا طاقة لى على وصلك)

(لا صبر لى على هجرك)

(هجرك دون وصلك بلاء)

(يا من أنت الدافع عنى بلائى)

لقد غنت هذين البـيتين وطافـت حول رأس إبراهيم بيك، وجلست بجوار قـدميـه ولكن يا لها من جلسـة، شفتـاها أخذت ترتعـدان مثل ورقـة ورد تعرضـت لعاصـفة، وأخـذت يداها فى الارتعاش واصـفرت وجنتـاها، وذبلت الوردة الحمـراء من حرارة العشق، وأمسكت العود تبكى وتئن بقولهـا: يا حبيبى يا سيدى، وشدت بهذه الأشعار:

(أيها الفلك لقد درت بما لا أرغب)

(وابتليتنى بالشوك بينما كنت فى الورد أرغب)

(فهل كنت طوع أمرى ليلة فى العمر)

(وقد جعلت الظلم شعاراً لى ليلة بعد ليلة).

(ولا أدرى ما هدفك فى إهانتى)

(وجعلتنى ذليلة دومًا بينما كنت عزيزة قبل ذلك لدى الجميع)

(وكنت آمل أن أرى فرحة واحدة)

(فضيقت الخناق علىّ)

(ومزقت بالجفاء أستار صبرى)

(وأفشيت للناس سر حزنى المستتر)

وتغنى (محبوبة) هذا الغزل التركى فى حالة من الحرقة، لدرجة أننى وأعترف وأنا رجل مسن ولا أمتلك تلك العاطفة، ويبدو الانحناء على قامتى، تأثرت بكل كيانى بهذا الصوت الشجى الباعث على الحرقة والشجن لدرجة أننى حاولت بكل طاقتى أن أتماسك حتى لا يغمى علىّ وأفقد الوعى.

لكن إبراهيم بيك أخذ ينظر ببراءة ولم يتحرك أبدًا، فمحبوبة تنظر إليه باكية منتحبة وهو ينظر إليها ساكتًا حائرًا، فخلعت قلنسوتى وألقيت بها على الأرض وأخذت فى البكاء.

وأتى الحاج مسعود وسأل ما الخبر؟، إذ رأى محبوبة تعزف على العود فتعجب، وبعد ذلك بدأت محبوبة فى غناء هذه الأبيات ممسكة بالعود وتأثرت لسماع تلك الأشعار حتى أن قلبى اضطرب بسببها.

(تقبيل قدمك أهون عليّ من الصمت هكذا)

(ومتى يعرف ذلك قدر الوصال وهو لم يجرب أبدًا ألم الهجران)

(وفى نظرى ذلك الشخص حى لم يمت من ضحى بنفسه فى سبيل الحبيب)

وا حسرتاه على حال الأشخاص الذين جربوا تلك العوالم وابتلوا ببلاء العشق، وبمجرد أن نظرت نحو محبوبة، أدركت عالم عشقها وقطعًا ليس من الممكن أن لا تشارك هذه الفتاة المبتلاة فى الغم والحزن وأن لا تبكى بكاء مرًا.

الخلاصة : فقد فاقت العاشقة الولهانة من حرقة العشق، وتوقف قلبها عن التألم مؤقتًا، ونهضت ورحلت. وأتى موظف البريد، وأحضر بعض الخطابات، وكان طابع إيران فوق أحدها، وتفحصت خاتمه، فوجدت أنه من طرف حسن، واتضح أنه من مشهدى حسن الكرمانى، وفتحت الخطاب، فكان مضمونه على هذا النحو.

هذا الخطاب من طهران إلى فخامة إبراهيم بيك فى مصر، نفس فداؤك، فاليوم يمر خمسة عشر شهرًا منذ سفرك، على الرغم من أننى كنت قد وعدت أن أوافيكم بأحوال طهران كل شهر، ولكن لما أن العرف لا يجيز أن أرسل خطابًا بعد سفر

المسافـر، إذ يُفترض أن يرسل المسافـر أولاً هذا الخطاب، حتى لا يكون فى ذلك شؤم عليه.

وقد زاد هذا من قلقى وانتظارى بما يستدعى أن تكتـبوا شيئًا لكى نطمئن على سلامتكم.

ولم تكن هناك أخبار مـهمة أشغلك بها باستـثناء هذا الخبر الذى فحواه: أنه منـذ عدة أيام قد منح امتيـاز التنقيب على الآثار القديمة فى (**شوستر**) و(**همدان**) وغيـر ذلك إلى شركة فرنسـية بوسـاطة وزير فرنسـا المفوض، عـلى الرغم من أن أفراد الشـعب الإيرانى يجهلون هذه الأمور، لكنهم يدركـون مع ذلك نتيجة هذا النوع من الأمور وهم فى حزن وألم بسبب هذا الموضوع.

وبحيلة غـريبة (**الامتـياز**) ضاعت كل تلك الكنوز العديدة التى نرثهـا عن أجدادنا والتى ظلت مـحفوظـة فى جوف الأرض لعدة عصور من الزمان من أجل الإيرانيين، وفى مقابل هذا الكنز أخذ ميرزا على أصغر خان الصدر الأعظم لنفسه خمسة عشر ألف تومان، وأعطى تلك الشركة هذا الامـتياز، ولكن من المسلم أنهم سيرشون الموظف الذى هو معين من قبل الدولة الإيرانية، وسوف ينتهى الأمر.

ولكن الغيورين على الوطن ممنوعـون من الحفر فى الأرض الإيرانيـة للتنقـيب عن الآثار، بينمـا فى الدول الديمـقراطيـة لا يسمحون بحدوث هذا الأمر بأى حال من الأحوال، وهذا الامتياز

أسوأ من امتياز احتكار الدخان الذى قوبل بكثير من المعارضة، وتنازل المواطنون عن حقوقهم، وبسبب جهل الدولة لم تعارض مثل هذا الامتياز، وليتهم وافقوا على امتياز الدخان وتركوا امتياز التنقيب عن الآثار، وجميع المثقفين يدركون أن الحكومة الإيرانية قد أهدرت ثروة كبيرة للدولة الإيرانية بمنح هذا الامتياز.

الخلاصة : لقد انتهى الموضوع وما كان هذا يجب أن يوافق عليه عاقل من العقلاء.

وينبغى أن لا تنسونى برسالة منكم تسعدونى بها وتذكرونى بكم وأنا لن أقصر فى الكتابة إليكم، وأنى إذ أعرض على جناب العم يوسف هذا الأمر بإخلاص تام. . . أدام الله أيام عزتكم.

حسن كرمانى

وتوجهت إلى والدة إبراهيم بيك وقلت:

لقد وصل ثلاثة خطابات من إسلامبول، ولم نرد على أى منها، وهذا عيب كبير، وقد أحبونا إلى حد كبير وهم قلقون، ولابد أن نبعث الرد، فماذا تأمرين علاوة على أنه وصل أيضًا خطاب من طهران، ولا أعلم ماذا أكتب فى الرد.

قالت: اكتب إلى إسلامبول بنفس الطريقة التى رأيتموها ولكن لا أعلم ماذا ينبغى أن نكتب إلى طهران.

قلت: اكتب إلى طهران على لسان إبراهيم بيك، وأضع إمضاءه وتوقيعه وانصرفت عن والدة إبراهيم بيك، فأقبلت (سكينة) نحوى وقالت: تعالى يا عم يوسف لنرى شيئًا، فتوجهت إلى الحجرة، فقالت: يا عم يوسف لقد رأيت شيئًا ولم أخبر أحدًا به منذ شهرين، حتى أننى أخفيت ذلك عن أمى واعتبرته سرًا سأبوح له، قلت: خير إن شاء الله، قالت:

ذات يوم ذهبت إلى غرفة محبوبة حيث لم أكن قد صليت، فأخذت المصلى وفتحتها لكى أصلى، فرأيت وسط المصلى كيسًا به تراب وآخر بها مسمار صغير وكيسًا ثالث به قماشة رقيقة. فشممت رائحة العطر والطيب، فتصورت أنها وضعت قطعة قطنة معطرة، ففتحت جانب الصرة بالسكينة فرأيت شعرًا، فأخرجت قدرًا منه، فتذكرت أن ذلك اليوم قد حلقوا شعر أخى، وقد جمعت محبوبة الشعر لتصنع به سحرًا، وعلى الرغم من أننى لم أخبر والدتى ولكن لو أنها قد صنعت سحرًا فسوف أعاقب محبوبة، وسألت ماذا فعلت: قالت:

أخذت بعض الشعر وأغلقت الكيس ووضعته فى مكانه، فهى نفسها لا تعرف السحر.

قلت: إن نور العين محبوبة ليست ساحرة، وأى سحر سوف تصنعه لأخيك فى مثل هذه الحالة من المرض؟ فيقينًا أنها

وضعته فى المصلى حتى إذا ما وصلت تدعو له بالشفاء، واقتنعت بذلك وصدقت.

وسكينة هذه فتاة صافية القلب وتجهل عالم العشق والحب، وهل بلغ بهم الأمر حتى يصنعوا السحر بالشعر من أجل الشفاء؟

قلت: لا تخبرى الحاجة وادعى أنت لأخيك.

الخلاصة : أن أعمال محبوبة لو كتبت لاتضح أن عالم الحب لديها عالم وسيع لا يفهمه الناس.

وفى المساء أتى ميرزا عباس وبعض الأحبة من أجل الزيارة، ودار الحديث لبعض الوقت، فقال الحاج محسن آقا:

يا عم يوسف من كتب الصحيفة بعد ذهابكم؟ قلت: لا أحد وأنا لن أكتب بعد هذا وأظهرت لهم صحف طهران وإسلامبول فقال ميرزا عباس: لدى خبر طيب سوف أقرؤه لدى إبراهيم بيك، قلت: لو كان جديراً بالقراءة لقرأته أمامكم.

النتيجة : مر الوقت بهذا الشكل، وكانت الأسرة من صغير وكبير مضطربة الحال لمدة خمسة وعشرين شهراً، ومبتئسة وكانت محبوبة أكثر الجميع اضطراباً وحزناً فجسمها منهك وعقلها مشوش، وقد تجنبت الأصدقاء والجيران، ونسيها الجميع، واعتبرها الجميع كأنها شىء لم يكن، إذ كانت مشغولة بكل جوارحها بالمريض الذى بدا كجماد بلا روح.

(فلو خيرت يوم القيامة ماذا تريدين؟)

(لقلت : إنك أنت كل نعم الفروس فأنت الحبيب)

لقد استغنت محبوبة بالحبيب عن جميع الأصدقاء.

وذات يوم أتى الحاج محسن آقا، وكان يحمل صحيفة عربية، فقال: لقد شوهد فى طهران إعداد حفل عظيم، قلت: أى حفل؟ قال: هذا يوافق السنة الخمسين لجلوس جلالة الملك ناصر الدين شاه على العرش [٨] فلنذهب لنقرأ الصحيفة عند إبراهيم بيك، فلعله يسعد ويأكل شيئًا، قلت: اصبروا حتى نعرف الموضوع، وبعد أسبوع، أخبرونا من القنصلية الإيرانية العلية أنه على الرعايا أن يحضروا، فذهبت فقال القنصل فى حديث بليغ:

إن الحفل يوافق السنة الخامسة لجلوس ملك إيران صاحب الجلالة على العرش. وملك إيران فى جميع البلاد وخاصة مصر مشهور شهرة فائقة. ولهذا يجب على الجميع كل حسب سعته أن يزين بيته ومحلاته بالقناديل والمصابيح ويجعلها مضيئة متلألئة، وأن يستعين فى ذلك بالمطربين والعازفين بالآلات الموسيقية، حتى تظهروا بين جميع الأجانب بالتميز والسمو، وحتى يثبت فى صحف العالم حمية الإيرانيين وغيرتهم وتعظيمهم للملك أكثر من ذى قبل.

ووزعت الحلاوة والشاى وانصرفنا، فأتيت إلى والدة إبراهيم بيك وقلت: قطعًا لا تتضايقى، فسوف أعطى مائة ليرة

ثمن الحفل، وعليك أن تعدى الشيلان والسجاد وما هو لازم لأسباب التجميل، وأن تزينى غدًا الحجرات والمنزل.

وكتبت ورقة لمهدى بيك الشاعر حتى ينظم شعرًا مناسبًا، حتى يكون الشعر فى اللوحة المكتوبة بالزجاج، وحتى يضعوا خلف اللوحة مصباحًا فيقرأ الشعر من الخارج.

وذهبت إلى دكان هاشم البدوى الخطاط حتى يكتب فى الزجاج بخط واضح: (**اللهم بارك جلوس سلطاننا فى سنة الخمسين بحق طه ويس ونصر السلطان ناصر الدين**) وفى لوحة زجاجية أخرى: يكتب: (**اثبت يا خسرو**).

وكان الحاج مسعود قد أتى من قبل مهدى بيك وقال:

لقد أجاب مهدى بيك قائلاً قل للعم يوسف: يناسب هذا المقام ما قاله الشيخ سعدى منذ ٦٥٠ عامًا، وهو أفضل شىء يوضع فى تلك اللوحة. وأعطانى ورقة مكتوبة وقال لى: غدًا سوف أراه، وفتحت الورقة فرأيت أن مهدى قد كتب:

(**يا من مر خمسون عامًا على حكمه وأنت فى غفلة**) [٩]

(**ولا تراها إلا خمسة أيام فقط**).

قلت: يا حاج مسعود هذا الشعر ليس جيدًا، فهل أرسله حقيقة أم أنك تمزح؟

على كل فكل ما هو لازم للحفل قد أعددناه، وقد أعطيت فـرقة مـوسيـقى عـربية ١٢ ليـرة لمدة ثلاثة أيام، كـما أعـددت المشـروبات والحلوى وكل مـا هو ضرورى لـذلك، ومرت أربعـة أيام، وفجأة أتى الحاج مسعود وقال:

أتعلم شيئًا يا يوسف؟ قلت:

عن ماذا؟ قال:

وصل تلغـراف يقـولون فيـه إن ملك إيران قـتل أو توفى، وكتـبت الصحف هذا الخـبر، فخـرجت فرأيت أن هذا الخبـر قد انتشر، حـيث يقال إنه وصل القنصلية الإيرانيـة تلغراف، ورأيت ساعى القنصل فسألته ما الخبر؟ قال:

الخبر ليس خيراً.

قلت: أحقيقة ما يقولون؟ قال: نعم.

الخـلاصـة: إننا سنسـود الغرفـة التى هيـأناها للزينة الآن سأذهب لكى أحضر عدة قطع من الأقمشة السوداء.

وعـدت من هناك وشـرحت تلـك الأحـوال لوالدة إبراهيم بيك.

قالت: أمـام هذا الأمر مـاذا يجب أن نفعل؟ قلت: نـقيم الحـداد ونظهر ذلك فى الحـجرات ووصـيت لا تتحـدثوا عن هذا

الموضوع عند إبراهيم بيك، وأرسلت رجلاً إلى أهل الطرب أن لا يطالبهم بالعربون الذى أخذوه، وأن لا يأتوا وتجمع الرعايا الإيرانيون وذهبنا إلى القنصلية وتقدمنا العزاء، وبعد الغد وصل القنصل تلغراف بجلوس مظفر الدين بهذا العنوان : (**إن الملك الجديد جلس على العرش فى تبريز، وتحرك الموكب الهمايونى إلى طهران**).

وبعد عدة أيام من إقامة مأتم الشاه، تعالت كلمات المدح والثناء الزائد على ميرزا على أصغر خان أمين السلطان الصدر الأعظم، فكان هذا تمهيداً للقول بأن الفساد لم يعرف طريقه أبداً أثناء الحكم فى شئون الدولة والشعب وأن جميع أفراد الشعب قد نعموا بالراحة والاستقرار.

وأتى ميرزا عباس وعلينا أن نذهب إلى إبراهيم بيك ونخبره بجلوس سمو ولى العهد على العرش وتحرك الموكب الهمايونى إلى طهران، قلت:

اصبروا حتى يصل الموكب الهمايونى إلى عرش السلطنة، فينبغى أن نخبره بالتدريج، وبعد عشرة أيام ذهبت إلى والدة إبراهيم بيك وقلت: تكتب الصحف الإيرانية أخباراً طيبة، قال إبراهيم بيك: يا حق يا مدد ولكن بصوت أعلى من الأول.

قالت والدة إبراهيم بيك:

ويشيع بين النساء أن ولى العهد جلس على العرش، وأصبح ملكًا وأنا لم أصدق، لأن افتراء المصريات معروف، قلت:

إنهن لم يختلقن حديثًا، إذ أن الأمر يشيع بين الرجال أن ولى العهد أصبح ملكًا، وهنا تحرك إبراهيم بيك مرة واحدة دون أن يدرى ونظر إلىّ وقال:

يا حق يا مدد، يا حق يا مدد، ولعله جاهز للنطق، وأنا لم أتفوه بكلمة واحدة، ونهضت وخرجت، وأرسلت شخصًا إلى ميرزا عباس حتى ينبه على الحاج محسن آقا، ومهدى بيك والحاج .... التبريزى (١٠) بأن يأتوا غدًا لتناول العشاء. ونتشاور كيف نخبر إبراهيم بيك بهذا الموضوع، وأخبرت الطبيب صالح أفندى أن يأتى هو الآخر، وكان أمر الضيافة قد أعد، وحضر جميع الضيوف، فقلت للطبيب صالح أفندى، يا سيادة الحكيم إن نتيجة مشاقكم والآخرين قد انتهت بعد عامين، أى ما كان قد قاله الشيخ يوسف السيد، فسأل ماذا تعنى؟ قلت: الآن هل من الممكن أن نستطيع أن نطعم إبراهيم بيك مثل الأمير علاء الدولة الذى سيطرت عليه مالخوليا الثور، فيغادر فراش المرض الذى ظل ملازمًا له لمدة عامين يغادره فى أسبوع واحد، ولكن أخشى لو أخبرته مرة واحدة أن تصيبه سكتة قلبية، أو يمرض بمرض أسوأ، وإبلاغ هذا الأمر مرتبط بحكمتك؟ قال صالح أفندى:

لا فـرق فى إخبـاره كناية أو صـراحة، وهو لن يضـار من ذلك لأن هذا الخبر دواء لدائه، فقال ميرزا عباس:

بعـد تناول العشـاء نذهب جـميـعًـا إلى إبراهيم بيك وأنا سأقول: يا بيك لدى بشرى، فهذه هى أحوال إيران.

قال الحكيم: لا تخـبره بقتل الملك السابق، فـإذا سألك قل له: إن سبب وفاته ليس معلومًا.

الخلاصة : إن العشاء قد انتهى فقلت للحاج مسعود:

اذهب وقل أن لا يكون هناك أى شخص أمام إبراهيم بيك، وبعـد ذلك ذهب الجمـيع وألقينا السـلام وجلسنا، فـقال مـيرزا عباس: يوجد تلغراف بالأمـس وصل، فقال آخر: يقال إن نصف عدد الأهالى قد استقبلوا ولى العهد من طهران حتى قزوين، فقال الثالث: بعد هذا سوف تتم الإصلاحـات بمنتهى السرعة فى المدن الإيرانية، وسـمع عندئذ صوت إبراهيم بيك يقول مـرة واحدة **(يا حق يا مدد)** قال ذلك فى صوت عال، فقلت أنا:

يا حضرة البيك اشرح أحوال إيران حـتى نتعرف عليها، إذ أن سـمـو ولى العـهـد قـد جلس على العـرش الموروث، والآن ستكون السكة والخطبة باسم مـلك الملوك مظفر الدين شاه، ولعل حديثى هذا كان مثل نفس حضرة المسيح، إذ أحيا الميت فقال دون أن يدرى : يا حق يا مـدد **(يا حق يا مـدد، الحظ يا الله)** وأخذ

ينظر إلىّ وهو فى منتهى الوعى لعله ينتظر أن يسأل عن الأحوال، وأخذ كل شخص يتحدث عن السلطنة، فقال دفعة واحدة فى صوت ضعيف:

متى حدث هذا يا عم يوسف؟ قلت:

نفسى فداؤك منذ عشرين يومًا، قال:

اعطنى يا عم يوسف سيجارًا لأدخنه، فرأيت صوت والدة إبراهيم بيك خلف الباب يرتفع ويقول:

حبيبى نفسى فداء لسانك الحلو، يا حبيب الأم، إبراهيم حبيبى، وصعدت محبوبة السلم باكية لتحضر السيجار حيث كانت رأت علبة السيجار منذ فترة طويلة، وعلى الفور حملتها وأحضرتها على عجل حتى أنها اصطدمت بإحدى درجات السلم فسقطت علبة السيجار منها وانكسرت، ووقعت السجائر وتبعثرت، فأخذت المسكينة تبكى فى حالة عجيبة تنم عن خجلها مما حدث، وشعرت بخجل شديد من سقوط العلبة، فقلت:

اهدئى يا حبيبتى، ولا تقلقى وتماسكى، ولعلك لم تعلمى بهذا الخبر من قبل، فأخذت سيجارًا وأعطيته لإبراهيم بيك، فقال الطبيب:

أولاً: احضروا شايًا، فجرت محبوبة وأحضرت شايًا مع الخبز، قلت خذى الخبز، قال:

التدخين بدون طعام له أضرار، قلت:

اذهبى أنت داخل الحجرة ولا تقفى هنا، واصبرى وتماسكى وأعطيته أنا الشاى، فطلب أن يمسك الملعقة بيده، وكانت يده ترتعش، ولاحظت أنه ضعيف، فتقدمت وساعدته، ودخن السيجار، فقال الحاج محسن آقا:

فى الحقيقة يقام فى إيران حفل كبير، قال مهدى بيك:

قطعًا إن مثل هذا الملك العظيم يستحق حفلاً كبيرًا.

(شاب يقظ الضمير حسن الحظ، فهو شاب فى الحكم وشيخ فى التدبير)

(ذو علم واسع وهمة عالية ذو ساعد قوى وقلب ذكى).

قال إبراهيم بيك: ماذا تكتب الصحف عن القانون؟ هل تركته أم نفذته قلت:

نفسى فداؤك، قطعًا معلوم، ودار حديث طويل وأخذ ينظر هنا مرة وهناك مرة أخرى حتى يفهم هل هذا الخبر صحيح أم لا، وانتصف الليل، فنهض الضيوف، وصافحوا إبراهيم بيك، وودعوه، وأخذ يودع كل شخص منهم.

وأتت والدة إبراهيم بيك واحتضنت ابنها وقبلته وأخذت تشمه باكية، فقال إبراهيم بهدوء.

لماذا تبكى يا أمى؟ ما الموضوع؟ ولعل المسكين لا يعرف شيئًا قط، والآن حجبت محبوبة ولا تستطيع أن تدخل على إبراهيم فهى تنظر إليه فقط، وواضح أنها الليلة سوف تنام فى حجرتها ولم تعرف سكينة شيئًا عن أحوال إبراهيم ونامت بعد العشاء. وأنا بدورى ذهبت، وأصبح كل شخص مشغول بالراحة فى غرفته الشخصية، ونامت والدة إبراهيم فى حجرة إبراهيم بيك.

وفى الصباح بعد الصلاة جئت فرأيت الأم والابن مشغولين بالحديث معًا، وقد أحضروا له شايًا وخبزًا محمصًا، وأكلنا نحن بدورنا ووقت الظهر أتى الطبيب، فسأل عن أحوال المريض، وشكر حالته ثم أبدى عجبه الشديد قائلاً: شخص بلا حركة أو وعى فى غضون يومين تبدل حاله وعاد إلى الوعى، فقال الطبيب صالح أفندى فى كلمات مطمئنة: كونوا بجانبه ، وتحدثوا معه الأحاديث المفرحة، ولا تدعوه يخرج من البيت لمدة أسبوع أو أسبوعين.

الخلاصة : أننا تركناه يومين أو ثلاثة بمفرده، وذات يوم رأيت أنه أخذ ينظر إلى يديه متعجبًا، ويتفحص هذا المكان وينظر فى الجهة الأخرى، حيث كانت يداه هزيلتين حيث الجلد على العظم، ولم يكن هناك أثر للحم فيهما، ثم قال:

يا سكينة أحضـرى مرآة صغيرة، فـأشرت أنا بأن هذا ليس لازمًا، وتحدثنا ونسى المرآة، ونهضت لأذهب فـقال: احضر لى يا عم يوسف صحف إيران الداخلية والخارجية والتى تهتم بأحوالها، وذهبت السوق فأعطانى الحاج محسن آقا صحيفة **(ترجمان باغچه أى سـراى)** النشرية[١١]. وقـال : خـذها واعطهـا لإبراهيم بيك واشـتريت عـددين من صـحيـفـة إيران الداخليـة وعدت للبـيت وأعطيت الصحف لإبراهيم بيك، قال:

أخبار إيران فيها؟ وفتح صحيفة **(ترجمان باغچه اى سراى)** وبحث عن أخبار إيران وكانت قد كتبت العنوان التالى:

(إن ملك إيران الجديد صاحب الجلالة مظفر الدين شاه، قد أدلى بحـديث بليغ فى موضـوع السلام العـام فقـال: بعد اعـتلاء العرش وهذا اللقب الجـديد سوف أهتم بكل شـخص حتى يؤدى الخـدمـات اللازمــة للـدولة والشــعب ولن أتـرك خــائنًا دون عقـاب)[١٢]

فقال إبراهيم بعد الاستماع لهذا الحديث: قطعًا هكذا ينبغى أن تصيـر الأمور، ولعل هذا الحديث قـد لقى هوى لدى إبراهيم بيك، فدخن سيجاراً وطلب شايًا ثم قال:

يا أمى إنى جائع، فقالت الأم :

ماذا تريد يا نور العين؟ فقال إبراهيم بيك:

فنادى العم يوسف على الطباخ ليأتى، وأرسلت الحاج مسعود فأتى الطباخ وقبل يد سيده، ورجع إلى الوراء ووقف فنظر إبراهيم بيك نحو (قنبر) الطباخ وقال: ألديك أرز بالدجاج؟ قال: نعم، فقال له أعد بعضًا من الأرز واللحم المشوى. فقال: نعم، فأعاد القول: أريد باذنجانًا. فقال نعم والله، وأمر قائلاً:

خذ عدة دجاجات واطه بها، دجاجًا مع الباذنجان، قال: لك الطاعة، ثم فكر ثانية ونادى ثانية فقال:

يا قنبر: أعد الكباب فقال: لك الطاعة، فطلب قنبر أن ينصرف فسأل إبراهيم بيك: أتريد سمكًا طازجًا؟ قال: نعم والله وأمر ثانية: اطبخ بعض السمك الطازج، فأومأ قنبر برأسه مطيعًا، وخرج ونظر إلى إبراهيم بيك وقال:

يا عم يوسف نادى على (قنبر) فناديت، فأتى، قال: لا تنس يا قنبر تريد الزبادى، فقال ثانية: نعم والله وأمر قائلاً: خذ عددًا من البطيخ؟ فقلت:

لدينا فى البيت بطيخ، علاوة على أن قنبر لا يعرف الجيد منه، وأنا سأشتريه، فطلب قنبر أن ينصرف فأمر ثانية (إبراهيم): يا قنبر لا تنس أن يكون الطعام أكثر من المعتاد، فقال إبراهيم. ثانية: نعم والله وأعاد ما قاله ثانية، أعد كل ما قلته لك فربما يأتى ضيف، قال قنبر: نعم والله، فرأيت والدة إبراهيم بيك

تبتسم، وأخذت محبوبة تضحك فى صوت عال فى الخلف، فأدى قنبر التحية وانصرف، وقد سعد بهذا الشفاء المفاجئ جميع الأصدقاء والمعارف، ومنذ ذلك الوقت أخذ يتوافد فى الزيارة المصريون والإيرانيون من الزملاء والمعارف على حد سواء تغمرهم السعادة والفرحة.

وذات يوم أتى الطبيب وفحص المريض فقال: ليذهب إبراهيم إلى الحمام، وبعد ذلك يفعل ما يريد، ويمكن أن يخرج، وقد انتهت فترة النقاهة تمامًا.

وفى الغد أحضروا العربة، وربطوا الجياد استعدادًا للخروج. وركبنا العربة نحن: إبراهيم بيك وميرزا عباس ومهدى بيك وأنا، وسرنا فى طريقنا، وكان كل شخص يرانا ينهض من مكانه ويحيينا من اليمين واليسار بالسلام والتحيات، وكان يرد عليهم إبراهيم بيك ملوحًا بيده اليمنى واليسرى على السواء، وتجولنا لحظة ثم عدنا إلى البيت.

وأحضر الحاج مسعود الخطابات التى وصلت اليوم من البريد، فأخذتها وكأن أحدها قد وصل من طهران من مشهدى حسن، فسأل من أين الخطاب قلت: من طهران أرسله مشهدى حسن الكرمانى. قال: وغير هذا الخطاب هل هناك ورقة أخرى له؟ قلت: واحدة وهذه الثانية منه، قال:

اقـرأ، وأخـذت أنا فى القـراءة، وكـان عنوانهـا على هذا النحو: نفسى فداؤك، وبعد إبداء كلمات التحية والولاء يتضح أن خطابكم قد تأخر، ولكن سبب عدم الرد كان قد أقلقنى.

(إن إخلاصى يعتب على تعطفكم)

وعلى الرغم مـن الخطاب قـد وقع باسـمـكم إلا أنكم لم تكتبوه، وكان هذا قد انطوى على عدم اهتمامكم بى.

الخـلاصـة: اليوم فإن الإخلاص الداخـلى قد تحرك وسأفى بوعدى، وسـوف أوافيكم كل شهـر بأخبار ولى العهـد، وسوف تعرفون كل ما تشتاقون إليه من أخبار هنا.

بينما انشغل الإيرانيون أول شهر ذى القـعدة بأمور الاحتفال بالسنة الخـمسـين للملك، وبديهـى أنكم أدركتم هذا من خـلال التلغرافات حيث أرسلت كل الدول الـتهنئة من أجل ذلك. وبينما بقى يوم واحد على إقامة الاحتـفال بتتويج الملك حيث ذهب إلى زيارة الشاه عبـد العظيم، كان شخص ويدعى مـيرزا رضا والذى أخشى أن أكتب اسمه فهو من مدينتى أى كرمان قد أعد التماسًا، واتضح أن الالتماس (**طبنجة**) ذات ست طلقات. وبمجرد أن رأى الملك صوب الطبنجة نحـوه فاستقرت رصاصـة منه فى قلبه وكأن رصاصـته قد أصابت جـميع قلوب الإيرانيـين، وعلى الفور لقى الملك حتفه.

وينصرف ميرزا على أصغر أمين السلطان بذكاء شديد، أى أنه يضع الملك على العربة ويحضره إلى المدينة حتى لا يعلم أحد بوفاة الملك، وللحق فقد أحسن التصرف، وهيأ وسائل الأمن والراحة فى كل مكان.

فهكذا تحول الفرح والسرور إلى حزن مؤلم وتبددت السعادة فتحول الفرح إلى مأتم كبير، حدث كل هذا فى لحظة واحدة. وبدد الطيش أوقات اللهو والمتعة.

ولكن بعد ذلك اتضح أن الصدر الأعظم نفسه قد تدخل فى هذا الأمر لأنه أحد الموثوق فيهم كان قد كتب يوم الأربعاء ورقة إلى الصدر الأعظم بهذا المضمون:

نفسى فداؤك، أتى ميرزا رضا كرمانى من إسلامبول إلى مازندران واختفى فى ضريح الأمير عبدالعظيم وهو يتحين الفرصة، وهو يفكر فى قتل الملك، ولن يكون لإيران والإيرانيين صدمة أكبر من هذه الصدمة، وسمعت أن جلالة الملك يفكر فى الذهاب إلى ضريح الأمير عبدالعظيم، فلا تغفل أن ميرزا رضا يكمن هناك وينتظر الفرصة، حتى يفعل فعلته وييتم الإيرانيين وها أنا قد بلغت وفعلت ما ينبغى فعله.

وكان صاحب الرسالة قد علم أن الصدر الأعظم لن يهتم *بهذه الرسالة متعمدًا، لهذا* فقد أشهد على رسالته ثلاثة أشخاص

مبرزين. وكتب هذه الرسالة إلى الصدر الأعظم وأرسلها إليه فى حضور أولئك الأشخاص المذكورين، وبعد أن قتل الشاه تجمع الأعيان وكبراء الدولة، فقال صاحب الرسالة شفاهة للصدر الأعظم:

لقد كتبت لكم قبل هذا الوقت، فأجاب الصدر الأعظم إننى لم أقرأ رسالتك. وقد وصل الأمر أنهم يريدون الورقة، وبمجرد أن أحضروها، أفشى السر، ونفس هذا الأمر أصبح سيئًا فى أنهم لم يتعرضوا لأحد آخر من الأشخاص، وفقط اكتفوا بقتل ميرزا رضا القاتل، وظن صاحب السمو الصدر الأعظم أنه بهذه الحجة سوف تنطفئ جموع شموع أدعيائه.

ووصلت عربة ملك الملوك الجديد مظفر الدين شاه إلى طهران، واستقبل محبو الشاه حتى قزوين، ودخل **(دار الخلافة)** فى حماس وترحيب زائدين، وأصبح السلام عامًا، وقد ذكروا مجيئه بالتفصيل كما يلى:

(كونوا جميعًا خدمًا صادقين مستعدين للتضحية) وبعد هذا لن يحصل على اللقب والنيشان(*) من جميع عاملى البلاط إلا الأوفياء الذين يقدمون الخدمات ويضحون بالأرواح وهم الجديرون بعطف الملك).

* النيشان: قطعة من الذهب أو الفضة وهى مثل نوط الامتياز تمنح للبعض فى مقابل خدمة أداها للمجتمع أو البلاد. [المترجم]

وقد أعلن هذا الخطاب الملكى فى سعادة أمام جميع محبى الوطن، فزاد الفرح إلى جوار فرحهم، وعلت الوجوه البشرى والآمال.

ومُنح بعد عدة أيام إذن الخروج لجميع أفراد حاشية الملك السابق من قصر السلطنة، إذ كان كثير من أفراد الحاشية هذه لديهم جمع غفير من الخدم والحشم، وكانت نفقاتهم من دماء قلوب الشعب، وقد أبعدوا من القصر الملكى، وهذا جزاء لما اقترفوه من أعمال مشينه.

وجلالة السلطان الذى كان يفعل ما يحلو له، وكان جميع أفراد الرعية والأمراء والوزراء فى حزن تام من تصرفاته وأصبحت الرعية مقهورة الرغبة الملكية وبعيدة وفى منأى من البلاط الحاكم. وتبدو الحاجة والعوز واضحة على المواطنين ليل نهار، بينما لا يشعر بذلك جلالة الملك الذى يسبحون بحمده متمنيين له العمر الطويل والعظمة، ذلك الملك العادل البازل المفوه ؟ وليحيا ملك إيران؟

وبعد إنفاق ما يقرب من ثلاثة كرورات على القصر الملكى دون داع لذلك، فسوف يؤثر هذا على الخزانة العامرة، ولكن فى نظرى إن جميع هذه الأمور لن تسير وفقًا لرغبة الملك الجديد، إذ أولاً نفس هؤلاء الرجال أى رجال البلاط لديهم أغراض خاصة بهم، علاوة على أنه أتى فى معية الملك كثير من الشباب الذين

انتظروا هذا اليوم السعيد منذ زمن طويل، وجميعهم معدمون، وهكذا قد استجاب لهم ربهم بمجيء هذا الملك، وبهذا الشكل لن يسمحوا أن تسير الأمور وفق هواه. علاوة على أنه بين هؤلاء الجوعى والأمراء الشيعى القدامة لن يظهر بين أغراضهم الشخصية طلب الخير للدولة والشعب، وخصوصًا هؤلاء الأفراد من هم أقرباء للملك من الفرس والأتراك على حد سواء. وأرى أنه فى هذه الفترة سيصل الفساد فى البلاط إلى أقصى حد لم يشهده البلاط الإيرانى من قبل. وسوف يسب هذا ذاك ويلعن ذاك هذا، ومن ثم يضيع شرف الدولة والشعب وسط الفريقين، وحتى لو اتفق هذان الخصمان فإن اتفاقهما سيكون على الشر، وينبغى أن يخصص لهؤلاء رئيس عاقل حكيم مجرب حتى يحدد عمل كل طرف من هذين الطرفين ويبرز كفاءة كل طرف منهما. فلا يعفو عن أخطائهم حتى تعرف كل طائفة مهمتها وعملها وبذلك يمنعون الأجانب من الاعتداء على حقوق الدولة والشعب، ويبدو أن مثل هذا الشخص غير موجود هذه الأيام، إلا أن يأتى به الغيب من وراء أستاره. فيكون شخصًا لائقًا مثلكم مكانه. وسلامى الخاص للعم يوسف أدام الله عزكم.

حسن كرمانى

وبعد الانتهاء من قراءة الخطاب قال إبراهيم بيك: لقد قلت إن الملك قد توفى ويكتب هذا أنه توفى ويتغير لون وجهه ثانية

وبدت آثار الحزن والمرارة على جبينه فقال: إن الشعب الإيرانى قد افتضح بسبب مقتل الملك بين جميع الشعوب وهذا لسوء حظه. وقد ترك رجال البلاط بسوء أفعالهم وصمة تاريخية على جبين الشعب الإيرانى، وا أسفاه، وعندما رأى مهدى بيك أن أوقاته قد شابها المرارة قال: يا عزيزى ما الخبر؟ ينبغى أن يلاحظ الإنسان المريض ذاته فلماذا الحزن؟ وهذا الأمر ليس قصراً على الشعب الإيرانى ذاته، وفى كل شعب ودولة ظهر أسوأ من هذا آلاف المرات. ولعلك لا تعلم ولم تقرأ الإيوان السادس، فهناك بطرس الثالث وألكسندر الثانى لم يقتلهما شعبهما لقيادتهم الروس وهناك من السلاطين العثمانيين السلطان سليمان والسلطان أحمد والسلطان مصطفى ولم يقتلهم أيضًا شعبهم. ومن الملوك الإيرانيين نادر شاه وآقا محمد شاه لم يقتلا، وهذا حال الدنيا منذ بدايتها وسيظل على هذا النحو. سواء عذبت نفسك أو لم تعذبها، فقال إبراهيم بيك:

لا دخل لهذا لما نتحدث عنه. ولأولئك وزراؤهم، وقد تحججوا خطأً أو صوابًا، وإما أنهم عينوا جهلاً وظلمًا، أو أنهم من أقاربهم وما إلى ذلك. فخاف أولئك على حياتهم أو أنهم أقدموا على مثل هذا العمل خوفًا على أرواحهم. مثل الحركات المعارضة السيئة التى قتلت ملك إيطاليا وإمبراطورة النمسا ورئيس جمهورية فرنسا، والشكر لله ليس فى إيران مثل هذه الحركات فما وجه سوء الحظ وما هى الفضيحة؟

الخلاصة : أن الجميع قد هدءوه ونصحوه بأنه فى المستقبل سوف تتحسن الأمور، وطوال الخمسين عامًا من حكم الملك لم يستطع أن يقوم بالإصلاحات الصحيحة أو أنهم لم يسمحوا له بذلك. ولكن الملك الشاب المحظوظ سوف يفتح أبواب السعادة والأمانة أمام جميع طبقات الشعب. وسوف يزيح ستارة الظلم المتمثلة فى بيع الولايات والاستبداد ويضع مكان هذا قانون الدستور. وسوف ينير المعارف وينشر المساواة بين محبى الوطن. وعلى الرغم من أن هذه الكلمات كانت مناسبة له ولكنه أخذ يفكر ثانية وقال:

أكتب أنت هذه المرة ردًا على الخطاب، ووضح لو كان من الممكن أن يكتب كل شهر خطابين، وسوف أكتب أنا أيضًا على هامش الورقة عدة كلمات بخطى.

قلت: حسن يا حضرة البيك فاكتب ردًا على رسالة إسلامبول فقد وصلنا ستة خطابات فى هذين العامين ولم نكتب خطابًا واحدًا، قال:

كيف أتقول عامين؟ وليس شهرين؟ قلت:

لا ما يقرب من عامين، قال:

ماذا تقول؟ قلت ووضحت أنه لا خلاف فطأطأ رأسه وأخذ يفكر لعله كان قد نام فى الفراش شهرين فى حسابه هو. فتأثر

جداً، فأنهيت الحديث إذ أن العشاء قد أُعد وتوجه الضيوف إلى العشاء.

وفى الصباح أتت محبوبة إلىّ على وجه السرعة وقالت: عمى العزيز لقد نذرت نذراً فى مرض سيدى، وبعد أنه قد تعافى وذهب إلى السوق فقد نذرت ألف قرش للفقراء أى لكل واحد منهم ٥ قروش، ومائة إناء يوضع به خبز للحيوانات من الكلاب والقطط، كما نذرت خروفين وأن أصوم شهراً، فأنا لدى مالى وسوف أخرج منه. ومن فضلك احضر هذه الأشياء.

وقد نذرت نذراً آخر ولكننى قد ندمت عليه، قلت ما هو وأى نذر الذى ندمت عليه؟ قالت: لقد نذرت أنه بعد شفاء سيدى أن أضرب الدف وأرقص أمام والدة إبراهيم بيك. ولكن لا أعلم ماذا أصنع للتكفير عن هذا النذر وهل سيسقط أم لا؟ إننى خجلة من الرقص أمام والدة إبراهيم بيك قلت:

يا نور العين أحضرى خبز الحيوانات والنقود للفقراء مع هداء النذر، وصومى الشهر الذى نذرته فى فصل الشتاء، وبالنسبة للرقص فادعى الضيوف من الجارات واضربى الدف وارقصى معهن، وستسمع والدة إبراهيم رقصك وسيقبل نذرك. قالت.

عمى العزيز ليس من السهل استضافة جاراتى من البنات، وبعد هذا لا أريد مخالفة هؤلاء أو مقابلتهن أو حتى أن ألقى

عليهن السلام، ولا تعلم كم قلن عليّ فى هذه الفترة وكم أفترين عليّ أيضًا وكم اغتبننى فجعلننى لا أرغب فيهن وأبتعد عنهم، خاصة (رفيقة) فكم أسمعتنى من هراء وأحاديث فضولية. قلت: أنت تعلمين أننى لا أتدخل فى حياتك الشخصية، وذهبت إلى إبراهيم بيك فقال:

هل أحضرت الصحيفة؟ قلت:

لا حتى الآن لم تأت.

فسأل: يوسف عمى ماذا حدث لرحلتى، قلت: موجودة فى البيت.

قال: إنها لم تنته فى إسلامبول فقلت لقد أكملت الموضوعات الرئيسية، فشكرنى ولم يخرج لمدة عشرة أيام من المنزل.

وأتى الطبيب للزيارة وكان مسروراً للغاية وقال: لقد فكرت أن أحضر كل الأطباء لفحصك، وأردفت فى القول ربما لا تقبل، وقلت: هل ترد الضيوف؟ فى حين أن هذا لن يستغرق إلا فنجان قهوة من الوقت. ومن هذا يرفض فنجان قهوة الضيف؟

ومر يوم الجمعة، وتجمع الأطباء الذين كانوا قد رأوا إبراهيم بيك، وشاهد الجميع تحسن حالة إبراهيم بيك فتعجبوا. وأخذ

الشيخ يوسف يبدى إعجابه لهم بنفسه فيقول، لقد شخصت المرض وفقًا لعلاج الشيخ الرئيس ابن سينا، فقال الدكتور دولف: ينبغى عليك أن تذهب فترة إلى مياه **(ماريا مياد)**، واسترح هناك بعض الوقت، فإن لم تذهب هناك فاذهب إلى موطنك أو الإسكندرية وأمكث هناك فترة من الوقت، فرد إبراهيم بيك فى غلظة من القول: قبر والد الإسكندر مثلاً، وقال هذا فى خشونة. فغضب الطبيب الإنجليزى، فداعب الطبيب صالح الدكتور الإنجليزى وأفهمه بإشارة قائلاً إن هذا الرجل يكره اسم الاسكندر، وهو لا يريد أن يذكر عنده هذا الاسم، ورحل الأطباء بعد هذا الحديث.

وبعد عشرة أيام أو يزيد قليلاً أنهى زيارة الأصدقاء والمعارف وشيئًا فشيئًا شغل بالعمل فى التجارة والمحاسبات القديمة، وذات يوم قال:

ما السبب فى أن الحبل المتين لا تأتى؟ فلعلها قد عطلت قلت: لا، أنا لم أطلبها العام الماضى فلم يرسلوها. قال: أرسل رسم الجريدة على الفور حتى تأتى، إذ لمدير تلك الصحيفة فى أعناقنا نحن الإيرانيين فضل كثير. وينبغى أن نعترف لذلك الشخص بقدره، ليت فى إيران مئات من هذا النوع من الصحف الجادة الناصحة للشعب مثل سائر الشعوب الأخرى. فما الجدوى أن لا يكون لنا لا إنصاف ولا حمية ولا اعتراف بالقدر. كما أن

محررو الصحف أي مديروها العلماء والفضلاء والحكماء البلغاء قد وضعوا كل أنواع الخير أمام شعوبهم المحظوظة. وعبروا عن تحسين أوضاع طبقات الشعب كلها فى أحاديثهم الصحفية المحكمة. وأوصلوا شعوبهم إلى مراتب العلم والسعادة بعد أن تاهوا فى الحيرة والشقاء. وأصلحوا الأمور الفاسدة لديهم. وكفاح صحيفة ناصحة وخدمة شخص يعمل مدير لها عالمًا مثلاً هو بالنسبة للوطن والمواطنين أكثر تأثيرًا وفائدة من وعظ مائة رجل واعظ وأفضل من الخطب على المنبر وأفضل أيضًا من عشرة قواد مجاهدين شجعان فى ميدان الحرب.

واحترام كاتب مدبر محنك فى صحيفة أهم فى البلاد المتحضرة من مائة واعظ. ولا يقل فى مكانته عن رئيس الوزراء فى الدولة.

وا أسفاه بل ألف أسفاه إذ ينظر فى إيران إلى هذا النوع من الأشخاص المحترمين نظرة دونية. ويعتبرونهم أفرادًا دجالين دراويش من حكاة الأساطير والخرافات. وهذا الذنب فى عنق بعض الكتاب الإيرانيين الجهلة الذين أساءوا إلى هؤلاء المحررين الممتازين. فلماذا نذم كاتب الصحيفة ومن يقول هذا الذم والسبب هو شخص ظالم، إذ أنه يعتقد بسبب هذا الشخص على أوراق الجرائد، سوف يزكى ذلك أخلاقه القبيحة، ولو أنه على النقيض فقد أشار إلى أخطائه وأنصف هذا المحرر أو كاتب الصحيفة،

فسوف يعود هذا بالنفع الكثير على القراء. ولكن لسوء الحظ فإن مثل هذا الناقد قد اختلط عليه الأمر وهو دائمًا يمدح ذاته ويزيد فى أعماله الرذيلة. ولا شك أن ذنب هذا المادح أكثر من ذلك الممدوح. وحينما يُنظر فى أوراق صحيفة **(إيران)** و**(اطلاع)** فسوف يحل هذا اللغز بسهولة.

الخلاصة : ذهبنا مع إبراهيم بيك إلى السوق، ومررنا بدكان آقا جليل، فنادى علينا وقال:

تفضل يا إبراهيم بيك، وبعد التعارف الرسمى والمجاملة قال ضاحكًا:

ما شاء الله فقد أظهرتم كرامة، لأننا الآن تمنينا أن نلقاكم ونتحدث معكم حديثًا طويلاً من الصباح حتى الآن، فضحكنا وسأل إبراهيم بيك:

أى حديث الذى كنت تتمناه معى؟ فأجاب آقا جليل :

كان يوجد عدد من الأشخاص سيئى الخلق والذين انصرفوا منذ قليل.

وهذا الضيف المحترم من أولئك الأشخاص الذين يأتون من عكة، وقد سعدت أن يحكى لى حكاية من أجلك حتى لا تُحرم من فيض ذلك. وبعد ذلك أخذ ينظر إلى الضيف وقال: هذا هلاكى ... حدث إبراهيم بيك عن الأخبار ولم يبد الضيف

استعداداً لذلك وكأنه يقول له أستحلفك بالله لا تفشى السر، فقال: عزيزى احك حكايتك من البداية حتى النهاية دون زيادة أو نقص. إذ أن البيك يطلب سماع هذا النوع من الأحداث والأخبار، قال (**الضيف**) :

يا أخى ألا تعفينى من ذلك، قال:

لا ينبغى أن تكمل الحكاية حتى يسمعها البيك، قال : يا على مدد سوف أقول وبعد هذا نبدأ فى الحديث. كان يتجمع فى (**يزد**) عدد من الأشخاص غير النجباء كل يوم فى مكان ما، وكان بعضهم أصدقاء لى، وظلوا يغروننى حتى أدخلونى فى جمعيتهم، وكانوا كل يوم يتحدثون عن (**الجمال المبارك**) ويكثرون فى الوصف، وكانوا يحكون الحكايات والأساطير عن صاحب الجمال المبارك، حتى جعلونى فى النهاية مريداً بل وعبداً من عبيد الجمال المبارك.

وبتدبيرهم كان لى شقيق صغير وقد تركته فى الدكان وتحججت بأننى سأتوجه مع الحجاج إلى مكة عن طريق عكة، وبمنتهى السعادة والفرح والإخلاص التام توجهت عن طريق (**عدسة**) إلى إسلامبول ومن إسلامبول إلى يافا ومن هناك وصلت عكة.

وكان هناك عدد من المواطنين وكان أحدهم جاراً لى، وكان يقيم هناك وله دكان للتجارة فالتقيت به فدعوته ولم يعرفنى أول

الأمر، وبعد أن عـرفته ووصفت له بـيته وقلت له اسمـه ورسمه عرفنى وبعد التـعارف سأل عن الأخبار الخاصـة وقال: مائة ألف شكر لله فلو أننى لا أملك الدنيا، فإننى أملك الآخرة.

وزيارة الجمال المبارك مرة واحدة أفضل من الدنيا وما فيها، فهذه السعادة الدنيوية والأخروية لا يحظى بها كثير من الأشخاص المبرزين والأثرياء. وهى تتحقق لى، وكلمـا كان يتحدث عن هذه الأمور كـان يزيد شوقى وإخلاصى، وقـد ذكرت أخبار مـوضوع **(يزد)** من البداية حتى النهاية، فسأل:

فقال كم عدد أفـراد جمعيتنا الخيـرية هناك؟ قلت: أكثر من مائة، ولكننى عانيت كـثيراً أملاً فى إدراك فيض الجـمال المبارك، وقد ذقت سم المشاق حتى وصلت إلى نبع الفيض.

لهذا أطلب منك أن تثلج صـدرى بشهد الزيارة وكلمـا كان أسرع كان أفضل، إذ أن سـفينة صبرى وتحملى قد حطـمها اليأس وغـاص زورق طاقتى فى الوحل. قـال: إن هذا الفـيض العظيم وإدراك هذه السعـادة الكبرى لا تؤتى بالعجلة والتـسرع، فكم من أشخاص عظام أتوا هنا، فلم تصل أيديهم القصـيرة إلى قمة نخلة السعادة قط، فـأقاموا فترة طويلة، وفى النهاية عـادوا بدون تحقيق الهدف والمرام. ولكـننى بفضل حقـوق الجيرة والمعـرفة القـديمة، مستعد أن أوصلك بسـرعة إلى نيل هذا الفيض العظيم، وكان كل

يوم يذهب فيه إلى دكانه يزيد إصرارى وعنادى، وبعد عدة أيام قال: غير ملابسك، وتعطر اليوم ستتشرف بزيارة الجمال المبارك.

وذهبت وغسلت رأسى وارتديت عباءة الخضوع ورداء الخشوع، وذهبنا قلوبنا تخفق وأجسادنا تضطرب مثل كأس الشراب، وأخذنا الحارس باحترام إلى أعلى، وأزاح الستارة، فقبل صديقى العتبة، وفعلت أنا بالمثل، ودخلنا بوقار وهدوء، وسجدنا، ووقفنا مثل العبد الذليل، وبعد نظرة سريعة تقدمنا شيئًا فشيئًا وجثونا على ركبتنا، وقبل صديقى ركبته ونهض، وبعد ذلك تراجعنا إلى الوراء، وبجوار الباب وضعنا الأيدى على الصدور أدبًا واحترامًا ووقفنا فوجدنا عددًا من الأشخاص قد حضروا قبلنا وجميعهم قد وضعوا الأيدى على الصدور وأخذوا ينظرون إلى أسفل فى منتهى الخضوع والخشوع وقد وقفوا مثل قالب بلا روح.

ومن شدة ذهولى لم أكن أقدر على النظر، ومرت ساعة فقال لصاحبى باللغة العربية: عليه أن يتحدث لى بالفارسية. إن المشاق التى قاسيتها أثناء الطريق من أجل الزيارة كانت سبب رضائنا وهى مقبولة لدينا، واعتبرنا من زمرة خاصته، ثم قال:

إن هذه الزيارة له أصبحت سببًا فى نجاة مائتى شخص من هول العاصفة والهلاك فى البحر، ثم قال فلو لم يكن هو فى

السفينة، لتحطمت وغرق جميع ركاب السفينة فى البحر، ولكن لما اتجه هو نحونا، فقد أنجينا السفينة من الغرق فى بحر لا حدود له.

وأثناء الحديث لاحت منى نظرة، فرأيت شخصًا درويشًا بدينًا يجلس ويشبه وجهه لون خمرة الشراب، ولكن بسبب أحاديثه الكثيرة التى بدت مثل بحر متلاطم الأمواج وعاصفة شديدة إلى درجة أفزعتنا، فزاد يقينى وكثر إخلاصى. وفى الواقع فقد توسلت له بقلب خالص، واعتبرت هذا من الإعجاز وخوارق العادات، وترسخ فىّ الشعور بالإرادة والعبودية، وأخذت أبكى دون أن أدرى وبكيت مثل سحابة ربيع، وبعد الهدوء استأذنا وسجدنا ثانية وخرجنا ونحن نتراجع إلى الوراء.

وكانت النساء المريدات قد ذهبن إلى حجرة أخرى، وأبدوا لنا حبًا زائدًا ولطفًا أكثر من اللازم، وقدموا لنا القهوة، وتخلصنا من الشك والريبة اللذين كانا داخلنا، وزاد اعتقادى وإيمانى إلى حد كبير. وبعد عدة أيام ذهب إلى هذا المواطن القديم جارى، وطلبت منه أن يوصلنى بالجمال المبارك بسرعة. وقلت إنى أتشوق للزيارة الحلوة وأصبحت ثملاً بذلك، وأنا لا أستطيع أن أبتعد عن تلك اللذة والمتعة الحلوة مهما عانيت.

فقال المواطن: ينبغى أن تقدم للحارس والحاجب هدية وإنعامًا، ينبغى أن تقدم شيئًا لهذين الرجلين، قلت: سمعًا وطاعة.

وإجمالاً: فقد أدينا اللازم للرجلين، وحضرنا للخدمة، كما أدينا طقوس الاحترام الأولى وعدنا. ولمدة شهر كنا نذهب على هذا النحو مرة واحدة بصحبة ذلك المواطن. حتى أصبحت شيئًا فشيئًا من مقربى **(العتبة)**، فاستغنيت عن مرافقة الصديق، وفى كل وقت كنت أشتاق فيه للزيارة كنت أذهب لوحدى بدون مرافق ثم أعود. وذات يوم شعرت بالشوق إلى الزيارة فتوجهت وحيدًا إلى تقبيل العتبة، ولكننى لم أر حارسًا ولا حاجبًا، فدخلت الحجرة دون خوف، فرأيت **(ذلك الجمال المبارك)** مثل دب وقد سقط على ظهره فى جوال ورفع قدميه على الجدار، وكان يجلس بجواره أحد الخاصة والمقربين له أخذ يقول:

لا يصير الحمار هكذا؟ وأخذ الجمال المبارك يضحك بصوت عال وبشكل مذر غير مؤدب يفوق أعمال الأوباش والسوقة، وكانوا منهمكين فى هذا اللهو والعبث. وعندما رآنى صدفة، أخذ فى قراءة الأوراد والصياح عاليًا. فنهض صديقى بسرعة فائقة، وهز عنقه ورمقنى بنظرة كلها ضيق وتذمر، ومن الخوف فقد بهت، وارتعدت أطرافى وعلى الفور خرجت وتوجهت إلى دكان صديقى المواطن، ولكن لم أصرح له بما رأيته قط، وقد مر على هذه الواقعة ثلاثة أيام، وفى اليوم الثالث جاءنى هذا المواطن وقال: هل ذهبت إلى الجمال المبارك بدونى؟ قلت نعم، قال: ولماذا تركت الأدب **(لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم)**

صدق الله العظيم. ومن المشهد الذى رأيته علم **(الجمال المبارك)** الأمر الذى كان يراودك، وأصبح واجبًا أن يقيم عليك الحد، ولعل المريدين المقربين منه سوف ينفذون هذا الحد عليك غدًا أو بعد غد، ولكن أنت من نفس مدينتى وجارى ورفيقى ولك ثلاثة حقوق فى رقبتى، وأنا لا أرضى أن يقام عليك الحد أمامى، وذلك بسبب أنك أولاً ترتد عن التوبة وثانيًا ستخرج من هذه المدينة، ولو بقيت هنا حتى غد، فلا شك سوف يلقون القبض عليك ويقيمون عليك الحد. والأفضل من هذا أن أحضر لك عربة حتى تقلك إلى **(يافا)**، وتوقف عدة أيام فى **(بيروت)**، حتى أبعث لك بحاجياتك، ولو كان معك مال فدعه هنا إذ أنهم سيأخذونه منك فى الطريق، وكان يقول كل ذلك برقة وود كاملين وكأنه قد أشفق علىّ وأوشك أن يبكى، وكان يجفف دموعه المصطنعة من عينيه بيديه.

وقد صدقت كلماته بحسن نية وتركت عنده، عدة عمامات بيضاء وواحدًا وثلاثين ليرة فرنسية كانت عندى فأعطانى العمامات البيضاء مع ثلاث ليرات، وكان قد أخذ ثمانية وعشرين ليرة فرنسية مع حقيبة ملابسى والتى كنت اشتريتها من **(عدسة)** بسبعة منات(*) وتركت عنده كذلك ثيابًا حريريًا وأربع عباءات من الفراء الجديد، وقميصًا وعدة ملابس داخلية متعددة وثيابًا قصيرًا من

* المنات : مفردها من : وهو عملة صغيرة [المترجم]

الفراء الجديد ومقلمة وبرادًا للشاى. وحملت معى لحافًا وعباءة بالية وقدرًا من السكر والشاى والخبز، واستأجرت عربة ذات جواد واحد وأعطيت سائقها ليرة واحدة، وأخذت باقى النقود وتوجهت مع سائق العربة إلى **(يافا)**. ومن هنا توجهت إلى بيروت حيث ذلك الشخص الذى ذكر أنه سوف يرسل حاجياتى إليه أننى سوف أرسل حاجياتك إليه، قلت: إن لى أمانة وسوف تأتى إليك، قال:

حسن جدًا، عندما تأتى سوف أخبرك، ومر على هذه الواقعة أسبوعان، ولم يصل أى خبر، فأرسلت خطابًا، فلم يجب عليه، فكتبت خطابًا ثانيًا فلم يصل أى رد، فأرسلت خطابًا مسجلاً فلم يجب، وفى النهاية ضقت ذرعًا وكتبت خطابًا يحمل سبًا وقذفًا، فلم يتضايق منه، أرسلت ذلك عن طريق البوسطة، وفى النهاية وصل خطاب من البريد يحمل هذا المعنى:

بعد سفرك ألقوا القبض علىّ، وأغلقوا دكانى وتحفظوا علىّ فى بيته، وأخذت أتضرع له وأبكى لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليال، فلم يعف عنى، وفى النهاية هبت نسائم الرحمة علىّ وعفا عن جرمى، وأخذوا منى أموالك وحاجياتك ردًا على ارتدادك وأعطوا لى الأمان. وقسموا أموالك على المؤمنين والمستحقين لذلك، وكم لحق بى من خسارة واتهام لكونى صديقك، وكل ما لحق بى من خسارة وأضرار بسببك، ومع وجود هذا فأنا خجل منك، وكل

هذه الأخطاء أنت المسئول عنها لأنك دخلت عليه خلوته بدون أن تحصل على إذن منه فكانت هذه هى النتيجة فكتبت جوابًا ردًا على خطابه، والشىء الذى لم أفرط فيه كان الساعة والخنجر، فبعت الاثنين فى إسلامبول لدى أحد معارفى، وأخذ النقود، إذ أننى سوف أذهب إلى يزد. (**وأقول إننى لم أذهب إلى مكة وكنت قد ذهبت إلى عكة**) وهكذا فضحنا جماعة من السوقة الذين لا دين لهم أو مذهب وها أنا أكشف ستر هؤلاء الأخساء الضالين فى بادية الضلال حتى لا يستطيعوا أن يحتالوا على أحد بعد ذلك.

ولما ذكر السيد جليل اسم هذه الطائفة المكروه والرذيل والتى هى دائمة الصراع والنزاع، فقد قلت لكم هذه الحكاية من باب المزاح والذى يعبر عن مكنون نفوسهم حتى تظل ذكرى لهم، واحك قصتى لكل شخص تقابله.

الخلاصة: بعد التجوال عدت إلى البيت وتناولنا الغذاء، وأتى الحاج ... التبريزى، وأحضر الورقة التى كان قد كتبها، وأتى الضيف العزيز من (**مرسيليا**) والذى هو ميرزا رضا خان المازندرانى، وقد رآه العم يوسف ولكنك لم تره من قبل، وهو فى الحديث مثلك، فلتأتوا فى المساء لنتناول العشاء ونتحدث ونستمع لأحاديثهم والتى تتفق مع أفكارك ولا تخلو من ملاحة ودعابة.

وذهبنا مساءً وحضر عدد من الأشخاص، وعرّف الحاج بإبراهيم بيك وبعد التعارف الرسمى كما هو المتبع فى هذا النوع من المجالس دار الحديث حول اغتياب الملات وفوضى المملكة وظلم الحكام والأعمال غير اللائقة بالمعلمين المرتشين وغير ذلك، وطال الحديث كما هى العادة، وحمى وطيس الأحاديث وفى النهاية قال رضا خان:

عزيزى: إن كل هذه المثالب التى ذكرتها ليست ذنب الشعب الذى لا يطالب بالحصول على حقوقه الشخصية، وأفراد الشعب مثل الجمال حيث تأكل الأشواك وتحمل الأسفار، وهم صابرون على كل عناء ومشقة، وهم شاكرون كل ظلم وتجاوز، وكل من يسلم نفسه لهؤلاء مصيره الهلاك وقد كان هذا حال كل الممالك السابقة فى أنحاء العالم، وفى مصر الحالية لعلكم قد نسيتم التاريخ إذ كان الفراعنة يقولون (**أنا ربكم الأعلى**)، كما كانوا يبيعون اليهود كرقيق وكانوا يستخدمونهم فى الأعمال الشاقة والتى تفوق القدرة البشرية. فهل خطر على بال أحد من مواطنى مصر أنهم سوف يهنأون بهذا الشكل وسيتحررون؟

وفى أول ثورة فرنسية، خطب الحكيم والسياسى (**ميرابو**) فى الشعب الفرنسى بقوله(*): يا أبناء فرنسا اعلموا أن كل فرد

* تأثر زين العابدين المراغى بمرزا ملكم خان الذى أورد هذه المقالة باسم الحرية[المترجم]

من أفـراد بنى الإنســان قد تخطى دائرة الـعدم إلى الوجـود وأنه بحكم العـقل السليم لابد وأن ينهل من نعـمة الحرية علـى أكمل وجه. والحـرية الكاملة قسـمان: الأول: الحـرية الروحيـة والثانى الحرية الجسمانية، وقد سلبنا رجـال الدين المسيحى حريتنا الروحية تمامًا، وقد جـعلونا جميعًـا عبيدًا أذلاء نطيع أوامـرهم فى الأمور الروحية، وليس لنا حق التدخل بأى حـال فى هذا الأمر، كما أنه لا نجرؤ أن نناقشهم فى مسألة إلا كفرونا واعتبرونا مرتدين، وبهذا الشكل ينبغى أن نطيع أولياء الدين فى الأمور الروحية، فنحن من نعمة الحرية محرومون.

أما الحـرية الجسـمانية فـقد سلبنا إياها الحكام، أى الـظلمة المستـبدون وجعلـونا فى أيامنا الدنيوية المحدودة عـبيـد أحكامهم وقوانينهم. وشكلونا وفق نفوسهم المتمردة، وأثقلوا كواهلنا بمشاق ومسئوليات تفوق قـدرة أى إنسان. فكنا فى هذا الأمر عبيدًا أذلاء مسـيرين لدى ظلمـة مسـتبدين فنـحن بذلك محرومـون من نعم الحرية.

يا أبناء فرنسا ويا أبناء الوطن الأعزاء وأيها الأخوة البائسون المعوذون مـاذا ينبغى علينا عمله إزاء كل هذا؟ ومن المتـحكم فينا؟ فهل ترتضى غـيرتكم وحميـتكم أن نبقى فى هذه الحال التـعسة؟ وأن نظل فى هذه النار المحرقة ونظل أيضًا خارج الشـرعية الإلهية وبعيدًا عن الإنصاف والإنسانية؟ فما زال الوقت أمامنا، فينبغى أن

نبحث عن علاج لآلامنا، وأن نخرج من الغفلة بعين البصيرة، وأن نصل إلى السعادة الأبدية، وهذه المطالب حق لنا. وهذه الحرية منوطة بالثورة الغيورة وغيرتنا.

قال إبراهيم بيك: الحمد لله أن الله ذا المن والإحسان قد فتح باب الرحمة أمام إيران والإيرانيين، ونأمل أن نرى عن قريب أن وطننا المقدس قد استفاد من فكر الملك الشاب السعيد والمحظوظ واستفاد أيضًا من حسن نيته وأن يحمى الله تعالى ظله الرحيم بنا. قولوا آمين، قال الجميع آمين.

وتعارف إبراهيم بيك مع رضا خان، وتبادل الاثنان كلمات الشكر، وقال رضا خان: غدًا سوف نتحدث عن دولتكم. الخلاصة، انتهى العشاء ودار الحديث عن (باريس) والفرنسيين وتحدثنا بعض الوقت ونهضنا متوجهين إلى البيت. وذهب الحاج مسعود وأحضر الخطابات من البوسطة وأعطاها لإبراهيم بيك. فقال عن أحدها: هذا خطاب مشهدى حسن الكرمانى. قلت: انتبه فسوف أقرأ أنا وسوف تسمع أنت لأنك لا تستطيع أن تقرأه لسوء الخط الزائد، وفتح أول الخطاب ونظر فقال:

فى الواقع خط سيئ مثل قبضة القطة وأعطاه لى قائلاً خذه لتقرأ ولم أر مثل هذا الخط السيئ.

(خطاب مشهدى حسن الكرمانى)

نفسى فداؤك: لقد وصل خطابكم فى الوقت المحدد، ولما حدث لى أمر طارئ فقد ذهبت إلى كرمان واستغرق سفرى مدة ثلاثة أشهر، ولم آكن خلال هذه المدة فى **(طهران)** وبالأمس قرأت الرسالة القيمة حيث أشرتم فيها إلى موضوع المرض، وقد أسفت لذلك وحزنت حزنًا شديدًا، ولله الحمد أنك شفيت.

والخبر الجديد أنه قبل مجيء طهران عُزل ميرزا على أصغر خان أمين السلطان بسبب موضوع يتعلق بسك العملة، وأرسل أمين السلطان إلى المدينة قم المقدسة، ولا شك أنكم قد قرأتم هذا فى الصحف.

ومنذ عدة أيام أثاروا فى مجلس الشورى موضوع **(العملة السوداء)**(*) وقد زاد موضوع العملة سوءاً لدرجة أن جميع التجار والمتكسبين قد أضيروا بسببه، فصدر قرار بعزل المسئول عن السك.

وأتذكر أنه قلت ذات يوم أننى لو كنت صاحب نفوذ لأصدرت قرارًا إلى الحاج محسن آقا بأن يأخذ أو يجمع جميع النقود السوداء من أيدى الناس. ولعل فكرتك قد نفذت إذ صرح السادة أمين الدولة ومشير الدولة وجميع الوزراء فى دار الشورى أن جميع النقود السوداء تعود فقط على أمين الضرب أو السكة،

* العملة السوداء : المقصود بها عملة صغيرة الحجم أو عملة نحاسية [المترجم].

وأصبح شرعيًا أن التعامل بهذه العملة غبن فاحش، إذ آن مكاسبها تعود على أمين السكة، وأنها قد خسرت جميع أفراد الشعب خسائر باهظة.

وقد بلغ قيمة النقود السوداء التى تم تداولها فى مدن إيران المحروسة كسكة للبلاد، عشرين كرور تومان، وربما كلها لا تصل إلى عشرين ألف تومان(*)، وقد وصل قرار المجلس إلى الملك المظفر، وتيقن من صحته، لهذا ألقى القبض على أمين السكة وساد الجزع والفزع.

حتى أننى لم أستطع أن أتعامل بنصف شاهى من تلك العملة الزائفة، كما ألقى القبض على ابنه وهو فى طريقه إلى مشهد، وفى النهاية فقد رشا الموظفين الجدد والقدامى من الأتراك والفرس بما يزيد على مائة ألف تومان. فذهب الموظفون المنصفون المخلصون إلى جلال الملك، حيث أنهم قد شكوا فى الأمر قائلين يقال إن هذه النقود السوداء زائفة ولا أصل لها. ووافق أمين السكة أن يدفع ثمانمائة ألف تومان للبنك وأن يجمع كل النقود السوداء، إذ أن ستة آلاف تومان كانت من تزييفه شخصيًا، وأن تظل النقود القديمة مستخدمة، وقبضوا على أمين الضرب، وقد

* من الواضح أن العملة الإيرانية المتداولة وهى التومان قد تعرضت لنوع من الغش أثناء ضرب هذه العملة وكان المستفيد الأول من هذا الغش هو المسئول عن سك العملة أنذاك.

استولى هـذا المحتال (   ) على كرور تومـان قائلاً لقـد حصلت على الأوامر بسك هذه العملة من الشخص كذا . . . وكذا.

وبحجة هذه الجريمة فقـد ضاع المال العام إلى يوم القيامة، وقد دفع أمين السكة ثلاثمائة ألف أشرفى(*) وقال على الملأ : أنا لا أنكر أننـى سككت هذه العـمـلة السـوداء، ولكننـى فى نفس الوقت مـلأت صنـاديق من هذه الأمـوال وأرسلتـهـا إلى أمـين السلطان، فلو كان جمع هذه العملة السوداء مسئوليتى فعلى أمين السلطان أن يعيد الصناديق المليئة بالنقود، فلو حكمتم علىّ فينبغى أن تحكموا عليه فأنا لا أتحمل وزر جريمته.

وعلى الرغم من أن أحدًا من أمثالنا لا يمكن أن يشهد على صناديق المال، ولكن يتـضح من طريقة الموضـوع بجلاء أن أمـين السكة قد استـأجر دارًا للسكة عدة سنوات فى مقابل ثمانـية عشر ألف عن كل عام، وبعد ذلك استأجر شرك(**) السيد عبد الباقى بمائة وعشرة آلاف تومان والآن فقد رشوا وزير البلاط بمائة وثمانين ألف تومان حتى يكون لهذا الوزيـر الربح الكلى، وقد ظهر الفرق فى العملة السوداء بسبب هـذا الأمر، وفى ذلك الوقت انخفضت الفضة عن قيمتها الحقيقية عُشرين.

(انظر الاختلاف من أين إلى أين)

* أشرفى : عملة ذهبية راجت فى أواخر العصر القاجارى [المترجم].
** هذه الشركة هى دارسك العملة [المترجم]

فهل استولى على هذه الأموال محاسبون أجانب؟ فليس من الممكن أن يجهل الصدر الأعظم هذه السرقة، بل إنه اشترك معهم أى (**نصف لى ونصف لك والله خير الرازقين**) وعلى كل فقد سقط السمك فى المصيدة، وأكل الطعم ، وفى البداية فقد عادت المعاملة بالنقود وفقًا للقاعدة، ولكن أصحاب الأغراض الفاسدة والطامعون الظلمة فضلوا المكسب الضئيل لمصلحتهم وخسروا الدولة والشعب خسارة جسيمة، وقد اعتاد رجال البلاط على الخيانة فكأنها قد غرست فى طبيعتهم حتى أنه أصبح من المستحيل تغيير ذلك فيهم.

(فقد رضعوها(*) لبنًا وهى تسرى فى أرواحهم)

وقد أصبح هذا الأمر سببًا فى فضحية الشعب والدولة الإيرانية ثم لو كان من الممكن أن يتجنس أمين الضرب بالجنسية الروسية على الرغم من أن الروس لا يقبلون مواطنًا إيرانيًا فى جنسيتهم علانية، ولكن يمكن تنفيذ ذلك عن طريق المال. بحيث يُضم إليهم، فإن لم يجد ذلك أن يطرد خارج البلاد إلى دولة أجنبية.

ويقينًا أن العشرين كرورًا أموال ضائعة ومسلم به أن جميع أهل إيران لن ينفقوا على مستشفى أو مدرسة قومية خمسة آلاف

* المقصود بها : الخيانة [المترجم]..

تومان، فأنتم تعرفون هذا أفضل منى وخوفًا عليك لا أستطيع أن أكتب فأنا يائس والآن فإن الصدر الأعظم ليس فى وظيفته.

ولا أحد يعرف أن من يتولى مكانه أمين الدولة أم مشير الدولة أم مخبر الدولة. وحتى الآن الأمر ليس واضحًا وبعد هذا سوف أواتيك بالجديد من الأخبار، والسلام الخاص للعم يوسف (حسن الكرمانى).

وفى الصباح أتى الضيوف الذين كانوا قد وعدونا بالمجىء، وقلت لرضا خان عند إبراهيم بيك مضمون رسالة مشهدى حسن الكرمانى. فأشار إبراهيم بيك أنها جيدة ولكن كما قلت لا يمكن كتمانها ووضعها، فقال رضا خان:

بالله قولوا الحق، فمع وجود هذا الوضع هل سيكون لكم إيراد أو دخل؟ ولماذا لا يكوّن الشعب هذه الشركة(*) وأول شىء ينبغى توفير الأمن المالى للشعب وكذا تأمينه على الروح وإعطاؤه حقوقه. وبعد ذلك نرى النتائج وأى تراب يضعه الشعب على رأسه؟! ألا يوجد شخص من هؤلاء يسأل هل (الحاج) كان قد خان أم لا؟ فلو كان قد خان لماذا لا تشكلون لجنة لتقصى الحقائق حتى تثبت جريمة الخيانة عليه ويقبضون عليه ويعاقبونه؟ وإن لم

* إشارة إلى شركة سك العملة التى شكلها أمين الضرب أو السكة وذلك لكى يستولى على أموال الشعب بغش عملة البلاد [المترجم].

يكن قد خان فلماذا تأخذون منه ثمانمائة تومان؟ وبهذا الشكل استولوا على أملاك أمين الدولة بدون محاكمة أو سند شرعى فهو ملك للتجار، وبذلك ستحصلون على الأرباح التى يحصل عليها! إنه لظلم! أن لا توجد حكومة حقيقية بينما توجد الأغراض الفاسدة الشخصية. وفى أى وقت يستطيع أى شخص إن سنحت له الفرصة أن يحرم خصمه من حقوقه ويستولى على حقوق شقيقه المواطن. فالاعتبار هنا للثراء الشخصى وشعب إيران بائس.

ولما أتى الحاج التبريزى بمفرده مع رضا خان، أرسل إبراهيم بيك وقت العصر ميرزا جليل ودعوا أيضًا الحاج محسن أقا، فقال رضا خان لإبراهيم بيك:

أيها السيد الجليل احكى لنا قليلاً عن كيفية مرضك، فقد كنت مثلى لمدة خمسة عشر عامًا، ولكننى شبعت من خير الدنيا وشرها من حسنها وقبحها، وشيئًا فشيئًا تعودت على ذلك، وتركت التعصب وإن شاء الله سوف تتعود أنت على ذلك شيئًا فشيئًا، وكلما كبر الإنسان فى العمر هدأ عن ذى قبل، وإذا ما أمعنا النظر وجدنا أن الأمر قد انتهى.

(إذا لم يتقدم عملك بالجد والعمل)

(فدع عملك لله)

فهذا ما يمكن أن أقوله لك، ونحن لا نستطيع أن نقوى مع كل هذا الظلم وهذه البربرية بما يكون فيه ازدهار ملكنا، والغريب أننا نريد أن نصبح أصحاب ثروة وشوكة وقدرة! مع أن الحقيقة أننا نشرف على الهلاك، فقال إبراهيم بيك:

إن وجهة نظرى فى هذا الشأن ورأى السيد؟ أنه كلما أتقدم فى العمر وتنحنى قامتى، فسوف تتزايد محبتى للوطن إن شاء الله يومًا بعد يوم، وحيثما تسير فى طريق الأخلاق والمحبة وتبذل جهدًا يصفو قلبك مثل المرآة الحلبية، ويصبح الإيمان أكثر متانة من القلعة الحديدية.

من يسير فى الإخلاص، يصبح نفسه مثل عيسى.

وعملنا هو دائمًا حب الوطن ودعاء الخير، ودائمًا نفكر فيه بغية إصلاحه وتعميره. قال رضا خان: إبراهيم بيك، لا أعرف هل هذه الكلمات من باب التعصب أم هى الحقيقة، فلو هى الحقيقة فإننى أتعجب من ذلك التعريف الذى قالوه لى فى غيابك، أخى العزيز إن تعمير أية مملكة وفقًا لقول الخاص والعام ووفقًا لكل آية وحديث مرتبط بالعدل وليس بالجور والفساد حيث يأمر الله بالعدل فى الحكم (**إن الله يأمر بالعدل والإحسان**) ويقول الرسول الكريم (ص) (**بالعدل قامت السموات والأرض**) ويقول أيضًا: (**بالعدل سلامة السلطان وعمارة البلدان**) ويقول حكيم:

(يا من تجلس على عرش المملكة كملك)

(اعدل لو تعرف الله)

(إذ استقرار الملك من العدل)

(وانصلاح حال الملك من العدل)

(والملك هو القدوة)

(والملك هو العادل وليس العادل فى وقت دون آخر)

(والنور كله من الظل البعيد)

(وظل النور أيضًا نور)

ويقول رسول الله: عدل ساعة خير من عبادة ستين سنة، والملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم، ولعل هذه الكلمات تذكركم بحكاية محمود واياز أو قصة خسرو وشيرين.

وهذه الأحكام اليقينية عاقبتها الظلم الوخيم، وأثبتت التجربة آلاف المرات أن الظلم قد خرب البيوت وأضاع الدول، وهو يهدم المملكة قبل الأوان، ولا يمكن لجيش واحد أن يهزم عشرة جيوش للعدو.

وسمعت إنك ذهبت لمقابلة الوزراء وزيرًا وزيرًا، وأنك أظهرت لهم إخلاصك وتعصبك للوطن وحبك للملك، فلو لم تذهب لهم ولم تظهر لوزير الحربية محبتك الزائدة فى حب الوطن

العزيز، لما رأيت ما رأيته من جزاءات، وأتأسف لك أننى لم أتفق معك فى هذا الرأى، ورابطه الصداقة التى بيننا تجعل هذا الأمر صعبًا، فأملك فى تحسن الأحوال وإصلاح أمر إيران يخالف توقعاتى تمامًا وأنا أختلف عنك فيما يتعلق بهؤلاء الحكام الظلمة وفيما يتعلق بهذه البربرية والفساد والاضمحلال.

وسوف يأتى اليوم الذى لا قدر الله نتشاجر سويًا ونمسك بتلابيب بعضنا وهذه الكلمات التى تتحدث عنها وذهبت إلى طهران وتحدثت عنها، لا يفهمها أولئك الأشخاص العلماء الموجودون الآن فى إيران. ولم تجل بخواطرهم قط. ولا يهتم أحد منهم بهذه الأسئلة، بل أن جميع حواسهم وأخيلتهم محصورة فى كيف يناقشون الوزير كذا، وكيف يغتابون الشخص المنافس لهم فى حضرة الملك، وكيف يحصلون على الرشاوى، ولو أحد يذكر أولئك بالوطن فإنه يعزل من منصبه ويحرم من دخله فى نفس اليوم، وينفقون الأموال على كل شىء تافه. فهم يعتبرون أن الشرف والإمام والرسول والدولة والشعب ووطنهم مالاً، ويعتبرون أيضًا أن خالق وطنهم مالاً وكفى.

حكاية: ذات يوم كان المؤذن يؤذن، وكان أحد(*) الأشخاص قد وقف تحت المنارة، وبمجرد أن المؤذن قال (الله

* أطلق المؤلف على هذا الرجل اسم المعترف بالحق [المترجم].

أكبر) ضرب قدمه على الأرض وقال: **(إلهك تحت قدمى)**، فتجمع الناس لهذه الكلمة التى تدل على الكفر وقتلوه لحقٍ أو ظلمًا. وعندما وصل هذا الخبر لحاكم المدينة والذى كان رجلاً حكيمًا، ركب الجواد واتجه أسفل المنارة وسأل:

أين ضرب الرجل قدمه فأشاروا إلى الموضع، فأمر أن يقتلعوا من الأرض **(هذا الموضع)** وأخرج دن الذهب وقال قتلتم الرجل ظلمًا وعدوانًا، لأنه كان يقصد أنك لا تنادى الله مخلصًا بل من أجل الذهب، وذلك الذهب تحت قدمى.

وهذه الحكاية هى نفسها حال وزرائنا، وكل شىء لديهم المال، المال، ولا يسألوا أحدًا إلا المال ولم يفهموا إلا المال ولن يفهموا إلاه.

وضحك الجالسون وأشار إلى ميرزا عباس: أن غير الحديث وقلت على الفور: وفقًا لقول الدراويش يا هو أدركنا يا على إنها ذيل الغنيمة وناديت أن يحضروا الشاى، فقال رضا خان: أشاركك الرأى يا عمى العزيز، وسأغتنم ذيل الغنيمة، وقولوا أنتم للسيد البيك أنها ذيل الغنيمة، نحن لا نملك أملاً كبيرًا من أجل الدولة والشعب ولدينا هؤلاء الصنف من الوزراء فإذا ما رأى إبراهيم بيك أن ضرائب إيران قد تضاعفت عشرات المرات وظهرت مدارس جديدة هى بواكير مدارس كاملة الفنون أى

مصانع لإعداد الرجال وقد أصبح الشعب آمنًا على ماله وروحه وحقوقه المشروعة.

فى هذا الوقت يحتمل أن تستطيع إيران أن تسير فى مصاف الدول المتحضرة، وتستطيع إيران أن ترفع رأسها بين الرءوس. واليوم إيران فى أشد الحاجة إلى العمل والمال الوفير وتلك الأمور مرتبطة بالضرائب التى تحصل وفقًا لياصا جنكيز خان(*)

والمدرسة قد ذهبت إليها أنت نفسك، وما القيمة فى قولى ووزراء إيران شوهوا المدارس والتقدم واعتبروهما منافين لإصلاح الدولة. وقد أخبروا الشاه كثيراً قائلين: نحن فداؤك ليس هناك فائدة من هذه المدارس سوى الخسارة، ألا تسمعون أن طلاب المدارس فى روسيا يقومون بالثورات كل يوم ويزجون بالدولة فى الاضطرابات، ولا ينبغى إيقاظ الشعب.

الخلاصة: لقد انتهى العشاء وانصرف الضيوف الساعة الرابعة، ونمنا نحن أيضًا، وفى الصباح جاءت محبوبة وقالت يا عم يوسف لقد قلت لى: عندما تشعرين بألم قولى لى، قلت: وأقول لك ثانية أنا فى مكان أبيك، وكل ما يشعر به الابن من ألم على الابن أن يبحث عن علاج له وليس أى شخص آخر، فقولى

* ياصا جنكيزخان: المقصود بها تلك القوانين القديمة التى وضعها جنكيز لقواده وجنوده. [المترجم].

كل ما تريدين، قالت: إنى أخجل من أن أتجرأ وأقول: لقد اعتكفت أنا ووالدة إبراهيم بيك لمدة عامين على وسادته وطلبنا الشفاء من الله له والآن فقد شفى ولا نرى وجهه، وكل يوم وكل مساء يأتى ضيف ويذهب آخر قلت: (على عينى) يا نور العين ها أنا موجود أمامكم، فهل لديك حديث آخر؟ قالت: لا أقول لك انصفنى ولكن لا تقل له أنت ما دار بينى وبينك، وقد كان له حق الرعاية علينا. كما أن الجلوس والأكل والحديث معه لمدة ساعة واحدة كان يمحو عناء وبكاء عامين بالنسبة لمحبوبة، وكان يكفى أن يكون ذلك عوضًا عن مشاقها وبكائها.

وفى تلك الأثناء جاء البريد، وكانت هذه الرسائل من جهات مختلفة وقد قرأها كلها، وأعطانى رسالة طهران فقرأتها.

(صورة الرسالة الخامسة من مشهدى حسن الكرمانى من طهران)

نفسى فداؤك وبعد أن واتيتك بأخبار الحياة العامة وكتبت لك أيضًا فى الرسالة السابقة أنه تم عزل أمين السلطان الصدر الأعظم ولم يعين رئيس للوزراء بدلاً منه، والآن مر ثلاثة أسابيع حيث تشرف سعادة أمين الدولة باللقب الجليل والمنصب الرفيع لرئاسة الوزراء. الواقع لم يسعد بهذا الأمر إلا عدد قليل من أفراد الشعب وقلة من علماء المملكة وذلك لرغبة جلال الدين فى

تعيينه. على الرغم من أننى خاصة أفضِّل أمين السلطان عليه. ولو أنكر عليه حقه فى ذلك فقد كفرت بالنعمة.

ولكن بالنسبة لعموم أفراد الشعب والدولة تعتبر رئاسة الوزراء من قبل أمين الدولة رحمة من الله، وكأنها نزلت من السماء ولا يمكن مقارنته بالآخرين، فهو مهذب وخبير وعالم وعاقل! وذكر الملك كثيرًا وأمر أيضًا مرات بقوله: إن الأمور فى البلاد متخلفة، وينبغى الإسراع بكل ما هو مستطاع لإصلاح ذات البيت فى الدولة، وعليكم - الوزراء - أن توفروا سبل الراحة للرعية، وأنا شخصيًا مستعد لتقديم أى عون فى ذلك، ولن أتغاضى عن أى تقصير لكم فى سبيل إنجاز تلك الأمور، والآن فإن سعادة أمين الدولة يستعد للعمل ويسعى فى سبيل إصلاح أمور الدولة والشعب، وهو لا يغفل لحظة. وجميع المواطنين لا يشكون فى أنه لن يمر عام واحد حتى تخضع جميع شئون الدولة والشعب للنظام والقانون، لأنه منذ عهد المرحوم نائب السلطنة والأراضى الإيرانية غير مسجلة والقليل منها موثق، وقد استولى الإقطاعيون وغيرهم على تلك الأرض حيث استولى كل واحد منهم على قرية، واستولى على عشر قرى مثلها من المواطنين، ولا تملك الرعية المسكينة شيئًا، وكأن أصبح قانونًا أن يحصل الإقطاعى على الرواتب من خزانة الدولة وأن يستولى على القرى وكذلك أن يحظى بالمال والسلع، وكذلك فإن الصدر الأعظم يريد

أن يخضع هؤلاء المحاسبين وهم أساس خراب الدولة يخضعهم للقانون إذ أن البعض منهم يحصل على رواتب وأموال لا حصر لها، وفى مقابل هذا سوف يمنح هؤلاء حقوقهم من خزانة الدولة وفقًا للقانون، وسوف تُبنى فى كل مدينة وقصبة المدارس الابتدائية والمتوسطة والإعدادية، وسوف تخضع كثير من الأمور فى الدولة للبحث والدراسة، ولكن الشىء المحقق هو: مع كل هذا ففى رأيى أن صدارة أمين الدولة لن تطول لعدة أسباب:

أولاً: أنه عادى جماعة المحاسبين العظام والمشهور عنهم جرأتهم فى الكتابة.

ثانيًا: أنه جهل فرقة من جواسيس الدولة المخربين أى رجال البلاط خصومًا له.

ثالثًا: أنه أساء لجماعة من رجال الشريعة أى أدعياء العلم، إذ أن جميع أفكار أمين الدولة قاصرة على خير الدولة والمحافظة على حقوق الشعب، وهذا بالنسبة لأولئك ضد مصالحهم الشخصية.

كما أن بعض سفراء الدول الأجنبية غير راضين عن صدارة هذا الرجل، لأن أمين الدولة لن يجارى هؤلاء فى أفكارهم الذاتية، ولما أن أمين الدولة قد أظهر اعتداءهم على حقوق الدولة والشعب، وأظهر أيضًا تواطؤ الأجانب مع هذه السياسة، وأمين الدولة رجل غيور وعالم ومدبر ومحب للوطن ومتدين، لهذا لم

يغض الطرف قط عن حقوق المجتمع، وأخشى أن يعزلوا أمين الدولة بذنب العلم وطلب الخير للشعب والدولة.

(كونك من أهل العلم والفضل فهذا جرم كاف لإدانتك)

ولماذا يعود العلم فى إيران على صاحبه بالوبال والذلة، ومثلاً كان المرحوم ميرزا تقى خان أمير نظام يعتنق نفس الأفكار السامية التى يؤمن بها أمين الدولة ولم يكن له ذنب أو جرم سوى هذا.

الخلاصة : أن الصداع قد زاد فى رأسى وأطلب عفوك، وأبلغ سلامى الخاص للعم يوسف، أدام الله باقى أيامك عزة. **(حسن الكرمانى)**.

وهذا رجلنا مشهدى حسن ولا عيب فيه سوى أنه ثرثار ويظن نفسه من كبار ساسة العالم، رجل مجنون فأين أنت وفهم الأفكار السياسية؟ وكيف فهمت كل هذا حتى تفسر رأينا؟ وكيف لك أن تستطيع أن تفسر هذه الرؤى المستقبلية.

والخلاصة : على الرغم من أن إبراهيم بيك قد أساء إلى مشهدى حسن، ولكننى قد أصبح واضحًا لدى أن مشهدى حسن قد قال الحقيقة، لأن الطبيعة الإيرانية طبيعة خبيرة ولأننى كنت أعلم أن مشهدى حسن رجل عاقل، وهو ذو خبرة فى كل مكان، وهو يدقق النظر فى كل شخص وكالنبات الذى يتسلق الجدار، علاوة على أنه كان قد قال عدة أشياء فى الخلوة لى، وكانت جميعها صادقة وتطابق أفكاره، وينبغى الانتظار حتى تشاهد

عواقب هذه الأمــور، وبعد ذلك فــقد وصلت بعض الأخــبار من مشــهدى حسن، ولكن لما أنهــا كانت غيــر جديرة بالذكر، فــقد صرفنا النظر عنها.

وبينمــا مــرت ثلاثة أشــهــر على هذه المقــدمــة، ذات يوم استدعتنى والدة إبراهيم بيك:

يا سيد يوسف الآن أنت بمثابة الأب لإبراهيم بيك ومحبوبة وتعلم أن المرحوم والد إبراهيم كان قد أوصى أن لا يتزوج إبراهيم حتى يبلــغ الثلاثين من عمــره، وقد أوصانى أنــا فى هذا الشأن، وأنت نفسك تعلم كم ضــحت هذه الفتاة وكم عانت فى ســبيله، وكان قــد خطبــها لإبراهيم والآن بلغ إبراهيم الثــانية والثــلاثين، وعلى الرغم من أنه لا يفكر فى الزواج، ولكنك تــعلم حال هذه الفتاة أكثر منى، إذ أنها قــد حرمت نفسها من النوم والأكل، فإذا نظرت إلى إبراهيم فإنها ترتعد ويتغير لون وجهها.

وبالأمس صعدت فــرأيت أنها تعزف على آلة القــانون عزفًا جيدًا وتغنى ثم تبكى، وتغــنى أشعارًا فارسية وتركــية، وقد تعلق بذهنى هاتان البيتان، فاحتــرق قلبى لحالها وأخشى أن تتفشى هذا المحبة، وأرغب أنا أن تخبر أنت أو ميــرزا عباس بأن يخبر إبراهيم بيك أن نأكل الحلوى بســرعة وأن نقــيم الفرح فى الربيــع، وآخر أمنية لدى أن أرى (**زفة**) عروس ابنى، فقد انــقضى عمرى، ولا

أريد أن أموت قبل إتمام هذا العرس، علاوة على أن البنت قد كبرت، ومع وجود إبراهيم بيك لا يجرؤ أحد أن يخطبها، وقد قلت منذ البداية لكل شخص أننى لن أزوج الفتاة لأحد طالما إن إبراهيم لم يتزوج قلت: سمعًا وطاعة، حينما تسنح الفرصة سوف أخبر إبراهيم بهذا.

ومر على هذا الموضوع عدة أيام، وأخبرت ميرزا عباس بهذا الأمر، فأومأ برأسه لكنه استغرق وقتًا دون جواب ثم قال بعد تأمل وتفكير:

اصبر حتى أخبره بهذا الموضوع وهو بمفرده.

واليوم أتى البريد ووصل خطاب رقم ١١، وفتحت الخطاب وقرأت:

(صورة الخطاب رقم ١١ من طرف مشهدى حسن الكرمانى فى طهران)

نفسى فداؤك: نظراً لعدم وجود موضوع مناسب حيث كانت إيران فى اضطراب، وكنت قد كتبت منذ ستة أشهر عن صدارة أمين الدولة، الآن فقد خلع أمين الدولة من رئاسة الوزراء، ونصبوا بدلاً منه أمين السلطان حيث أحضروه من قم المقدسة. وقد كتبت قبل ذلك عن سبب عزله علاوة على أن الخزانة كانت خاوية تمامًا، وقد شاع أن المرحوم الملك السابق قد

ترك خلفه مائتى كرور من المـال فى خزانة الدولة، وإما أن الخزانة كانت بلا مـال وإما أن اللصـوص قد استـولوا عليهـا أثناء دخول الموكب الهمايونى فى دار الخلافة.

وأنهم قد استولوا على المال بسـهولة على أسـاس أن مال السلطنة هو مـن هدايا الهند؟!، ومنح بعض هذا المال كـهـدايا، مثلمـا منح حافظ سمرقند وبخـارى من أجل خال هندى، وعلى كل فإن المال ضرورى من أجل إصلاح أمـور البلاد. ولا مفر من أن صدر الأمر بالاسـتدانة وكان يكره أمين الدولـة الاستدانة، أى أنه لا يميل إلى القروض ومن قـراراته أنه يمكن أن تقترض إيران ولكن بشرف أما اليوم فلا تيسر لها الاقتراض بهذا الشرف.

يعلم الله أنهـم يقولون أن البـنك الإنجليزى قـد وعـد بأن يقرض مـبلغًا كبيـرًا من أجل الصداقة، وها هم يقتـرضون المال، أجاب أمين الدولة:

أنا لا أوافق على قرض دون هـدف، وإننى أعتبـر هذا عار تاريخى، وأعلم أن باقـتـراض المال لا ينفق على تعـميـر المملكة والجيش، بل سيبدد هباءً، ولا يرضى ضميرى أن أقدم على عمل يكون فيه ندمى، ويبقى لعنة أبدية لى، ويضيع الشعب تحت وطأة القروض.

ويقال أنه أرسـل رجلاً إلى هولندا وبلجـيكا حتى يقـترض منهما باعتبار أنه ليس لهـما نفوذ سياسى فى إيران، ولكن اتضح

بعد ذلك أن هدفه الثراء وإسكات الحكام والحقيقة أنه لا يريد أن يقترض، ومن هنا فإن أمين السلطان قدم مبلغًا من المال لأتباعه حيث أنه له فى كل مكان داخل إيران جواسيس وأعوان قدامى، وكان هذا من أجل تضييق الخناق على أمين الدولة، فمن جانب اعتدت القوات الروسية على حدود خراسان، وذكر ذلك فى روايات مختلفة، وذكر البعض أن الأعداء جاءوا من أجل الغزو والاستيلاء. وذكر بعض آخر أنهم تحركوا حتى (**قرانتين**).

ومن ناحية أخرى فإن الدولة الإنجليزية(*) أرسلت جنود المشاة إلى ميناء بوشهر بحجة تواجدهم فى هذا المكان، ولكن الغرض الأساسى كان التنافس مع القوات الروسية، وأى غاز يأتى من ناحية خراسان فلابد أن يقابله العدو الثانى من بوشهر، وكل هذه السيناريوهات كانت حججًا واهية فى النهاية أضاعت الدولة.

ومن ناحية أخرى فقد أساء أدعياء العلم ورجال البلاط لهذا الرجل (**أمين الدولة**) لدرجة أنهم حملوا القرآن وأقسموا للملك أن هذا الرجل يفكر فى الحكم الجمهورى.

وقد سعى السفير الروسى فى عزل أمين الدولة سعيًا دءوبًا، كما خُطط لهذا فى بطرسبوج تخطيطًا محكمًا، وعلى كل فقد أُقيل أمين الدولة من رئاسة الوزراء، وطلب أن يحج بمكة المكرمة

* يلفت الكاتب نظر القارئ إلى صراع بريطانيا وروسيا فى إيران. [المترجم]

فـربما يأتى إلى مـصر، ولو أنه لم يزرها مـن قبل، فـلا شك أنه بوصوله إلى مكة سوف يقوم بزيارتها فهى نادرة الزمان.

(لقد تلألأ جيداً ولكن الدولة قد استعجلت)

وإذا ما حدث وقائع جديدة فسوف أواتيك بها. ولى مطلب وهو أن ترسل لى ثوبين شـاميـين أحدهمـا أسمر والآخـر بنى، أحدهمـا لحضرة الإمـام الذى كنت قد وعدته به، والآخـر سوف أرتديه أنا، وآمل أن أحظـى بشـرف ارتداء خلعـتكم، وسـلامى الخاص للعم يوسف.

حسن الكرمانى

قال إبراهيم بيك: هل ربطوا الجياد بالعربة؟ وأرسل شخصًا إلى رضا خـان المازندرانى، وركبوا العـربة وذهبوا فى نزهة، وفى العـصر عـاد بمفـرده وقال: يا عم يوسف أخـبـر رضا خـان أننا سنذهب إلى أوروبا، وسـيذهب ذلك إلى (مـارسيليـا) وسوف أذهب إلى (فيينا)، حتى أمكث شهراً فى المياه الدافـئة، وسيقضى ذلك أيضًا أسـبوعًا، وبذلك نقـضى أسبـوعين فى المياه الدافـئة، وبعد العودة سوف يذهب إلى إيران، وأعددت بعض الأمور حتى أذهب وأستأذن من الأم، ووصلت التذاكـر وأعدت وسائل السفر ورحلوا، واستغرق السفر ثلاثة أشهر حتى عادوا.

وبدلاً من أن يعود السفر عليه بالصحة، على النقيض أصبح أكثر اضطرابًـا، وسألته عن الأخبار عـدة مرات فلم يجب. وفى

النهاية اتضح أنه قرأ فى صحف الغرب بعض الأخبار السيئة عن إيران ولم تتفق وطبعه، وأخذ رضا خان بعض مقالات الصحف وناقشها مع إبراهيم بيك وأصبح هذا الأمر سببًا فى تعبه وانفصال الصديقين الجديدين.

ومرت عدة أشهر على هذا الموضوع، ووصلت رسالة من مشهدى حسن.

(صورة الخطاب ١٦ من طرف مشهدى حسن فى طهران)

نفسى فداؤك، وبعد رجوعك بالسلامة فإنى أشكرك وأمتن لك، وقد وصلنى الثيابان الشاميان وهما من القماش المصرى عن طريق أحمد الخراسانى، أطال الله لنا عمرك وبارك لنا فيك.

وكنت قد أخبرتكم فى الرسالة السابقة بأن رجال البلاط يفكرون فى الاقتراض، وفى النهاية فإن هذا الاقتراض قد رسا على الدولة الروسية، وقد اقترضوا عشرين كرورًا رهنوا أمام ذلك الجمارك لمدة خمسة وسبعين عامًا وبفائدة ٥٪ لا تقل عن ذلك، حتى لو اقترضت إيران من مكان آخر لا تقل الفائدة عن ذلك. ولا شك أن شروط هذا القرض مشينة للغاية، وحصلت الدولة الروسية فى ظل هذا القرض على امتيازات كبيرة فى إيران عادت بالخراب عليها.

وشرح هذا الأمر فى هذه الرسالة غير ميسور، وأضرار هذا القرض المصرفية لا يمكن تخيلها.

وأعلن فى الصحيفة الرسمية أن الدولة الإيرانية تحملت خسارة كبيرة بسبب إلغائها لامتياز (**روجيه**)، ولهذا كان عليها الاقتراض، لهذا تقترض من إنجلترا وأن تدفع للبنوك بعض الأموال والرشاوى والقروض غير الرسمية وأن تغلق حدود الأهواز، وأن توصل المياه إلى قزوين، وكان فرضًا عليها أن تفتح بباقى القرض بنكًا حكوميًا وهو ما سُمى بالبنك الإمبراطورى ويا له من بنك؟ إنه مثل دودة تمص دماء الشعب خاصة الأرامل من النساء.

وقد رضى الشعب بالاقتراض بسبب الأمور التى ذكرت أى أنهم لاذوا بالصمت، ولكنهم أدركوا أن النفقات التى ذكرت لم يستفد منها أحد، وكأن قرض (**روجيه**) الذى حصلت عليه إيران من الروس يحد من نفوذ منافسهم إلى حد كبير، وقد شاع بين الناس بعد الاقتراض المشهور أن ملك إيران سوف يسافر إلى الغرب، ولكن لم يصدق أحد أن هذا الأمر قد تحقق الآن وها هم يعدون العدة للسفر للغرب، وقد قدم رجل أرمنى عشرة آلاف تومان للصدر الأعظم حتى يحصل على النياشين ولكن صنيع الدولة أعطاه اثنى عشر ألف تومان ورد للأرمنى ماله.

وبالأمس أرسل ابنه إلى إسلامبول واتضح أن النياشين تصل قيمتها إلى مائة وخمسين ألف تومان. ويكسب صنيع الدولة أموالاً من وراء كل نيشان من هذه النياشين وجميع منافسيه

يحسدونه على هذا المكسب الكبير. واليوم فإن جميع كبار الدولة الشيوخ منهم والشباب يقبلون يد أمين السلطان وقدمه بل ويسجدون له حتى يكونوا مشاركين فى هذا السفر، إذ أنهم سيحصلون على غنائم كثيرة من وراء هذا السفر، والأشخاص الذين تآمروا على عزل أمين السلطان قبل ذلك بعد إعادته لرئاسة الوزارة، أقال بعضهم ونفى البعض الآخر وشتت شمل الجميع، وبالفعل ففى كل إقليم يوجد فوضى حتى أنهم - أتباع رئيس الوزراء - ينفون الحكام خارج البلاد ويخربون بيوتهم، ومن ذلك فقد هاجموا بيت نظام العلماء وكذلك بيت شقيقه علاء الملك الذى شغل منصب كبير السفراء فى تركيا بحجة أنه خزّن الغلال ولم يبعها فى حين أن علاء الملك لم يفعل ذلك مطلقًا، وقد ظلم وهو ليس رجلاً سيئًا.

واتضح كما يقولون أن اللصوص قد جىء بهم من أجل قائد الجيش. فعاثوا فسادًا فى بيت علاء الملك وبذلك جعلوه ضحية أمير الجيش، الخلاصة لا يوجد خبر طيب، وقد زادت الجرأة، سلامى الخاص للعم يوسف.

حسن الكرمانى

واليوم جذبنى ميرزا عباس إلى أحد أركان الحديقة وقال: بعد حديث طويل أقنعت إبراهيم بيك بالزواج ولكنه يقول: فلتؤكل الحلوى ولكن الزواج العام القادم، وهو يفكر فى أن يقام

فرح كبير وزواج شهير. كما قال: لدينا أقارب ومعارف وينبغى أن نخبرهم فى إيران وإسـلامبول جميعًا قـبل الزواج بثلاثة أو أربعة أشهر، وأوصانى أن أبلغ والدته: أن مـراسم زواجه ينبغى أن تتم وفقًا للطقـوس الإيرانية من البداية حتى النهايـة. ولا ينبغى تقليد عـادات العرب والأتراك والغـرب. وذهبت إلى والدته فـسعـدت كثيـرًا وأمرت بأن يحضر من الـنساء الجارات والمعارف للاحـتفال باليوم الثانى عشر، وأن أحضـر شالاً ودبلة ومجموعة من المرايا، وعلى الرغم من أن كل هـذه الأشيـاء مـوجـودة فى المنزل ولكن يجب إحضار المزيد، وأدركت أن جميع هذه الأشياء تشترى باسم محبوبة قلت:

أوصانى البيك أن تُراعى جميع الرسـوم والتقاليد الإيرانية.
قـالت: حـسن جـدًا ولكن أنا أطـلب منك أن تكون الأب إذ أن الاثنين ليس لهـما أب، وليس لدينا غيـرك وأنا أم الاثنين، ولكن يجب أن نستأذن أولاً من محبـوبة ولأرسل زهرا هانم والدة رفيقة حتى تحصل على الإذن منها، قلت:

لقد عـرفت أسرارًا كثـيرة أثناء مرض إبـراهيم بيك وسوف أقول أنا بنفسى لها، واستأذنتها.

وفى المساء ذهبت إلى حجرة محبوبة وقلت:

أيتها السـيدة الصغيرة لقـد نذرت نذرًا وهو أن ترقصى أمام

الحاجة الكبيرة، وفى اليوم الثانى عشر من هذا الشهر لدينا ضيوف، وها هو وقت الرقص، فضحكت وقالت: أى ضيوف؟ قلت:

الأمر خير وشيئًا فشيئًا وضحت ما كنت قد لمحت له كناية قائلاً: أجيبى، فأطرقت برأسها ولاذت بالصمت، فقلت: ينبغى أن أسمع ردك إذ أن هذا هو العادة والسنة فقالت ببراءة شديدة :

(ليس ذاك حيًا وهو شهيد سيف الحبيب)

(والقلب أسير قيد الحبيب)

قلت : أيتها الشاعرة: هذه المناسبة تحتاج إلى جواب صريح، ولا يناسبها صريع القيود والأغلال. وانظمى شعرًا ما شئت. قالت:

هذا ليس شعرى وإنما شعر الشاعر **(قا آنى)** وقد جرى على لسانى دون أن أدرى، قلت:

ليكن مباركًا فأنت راضية، فسكتت ومعلوم أن السكوت دليل الرضا.

وذهبت إلى ميرزا عباس وقلت: قل لإبراهيم لنذهب سويًا ونأخذ الشال والدبلة حتى تكون هذه الأشياء جاهزة فى اليوم الثانى عشر. وأرسلنا رجلاً ثم أتى ورأينا إبراهيم بيك يبدو عليه

الخجل والحياء، قلت: يا نور العين هذا حكم من الأحكام الإلهية والسنة المحمدية، وليسر الله هذا الأمر، والحياء لا يجدى فى هذا الأمر، وينبغى أن نبدأ هذا الأمر بمنتهى السعادة والفرح، لم يقل إبراهيم شيئًا، وكتب شيكًا بمائة وخمسين جنيهًا وأعطاه لى وقال: اصرفه من البنك، واشتر كل ما هو لازم، وذهابى معك لا ضرورة له. واشتريت جميع الأشياء وأخذتها لوالدة إبراهيم بيك فأعجبتها، وكانت على موعد مع الضيوف، وأحضرت الحلوى وجميع اللوازم الأخرى.

وفى اليوم الثانى عشر أعدوا العربة وركب إبراهيم بيك مع ميرزا عباس وذهبوا فى جولة، وتجمع كثير من الضيوف من حوانيت المصريين والعجم، وكما هى العادة زينوا محبوبة ونثروا شعرها على كتفها، وفى الواقع قد أظهرت المشاطة قدرة فائقة فى تزيين محبوبة لدرجة بدت فيها محبوبة جاذبة للقلوب ومحيرة للعقول.

(لا حاجة للمشاطة أمام هذا الوجه البرىء)

وكنت قد جلست فى حجرتى وفجأة أحضروا محبوبة فى زينتها أمامى وقد وضعت الخاتم فى يدها ووضعت طرحة الزفاف على رأسها، وقد منعها الحياء من دخولها على، ثم دخلت وألقت السلام، فنظرت أية محبوبة هذه فجمالها وحسنها أمر

مسلم به، وبدت فى أتم زينتهـا، فقلت دون أن أدرى: تبارك الله أحسن الخالقين،

(فالقامة مثل السروة، والوجه كالقمر)

وأتت مرتدية الحجاب وقـبلت يدى، ورأفت بها فقلت هذا الشعر:

(ليجعل الله تعالى إن شاء الله حظكما حسنًا)
(وليجعل طالعكما سعدًا ويومكما ربيعًا)

وأخذت سكينـة فى الضحك، فقـالت والدة إبراهيم بيك: العم يوسف شـاعر، فقـالت جميع السـيدات أنت شـاعر. . . . شاعر، وأخذن فى الضحك، فـقلت لسكينة: لقد ألهمنى شيطان الشعـر، فقلن أنت شاعر . . . شـاعر ولا مناص من أننى هربت وواصلن الضحك، ومر اليوم علينا فى سعادة وفرح غامرين، كما كانت محبوبة أيضًا فى سعادة إذ لديها عالم غريب.

وفى الواقع إن هذه الدنيـا لها قـانون عـجيب، ولو يتـأمل الإنسان قليـلاً ، سيدرك كم مـرحلة يتخطاها وكم مـقام يطويه، ولكن واأسفاه واأسفاه إذ أن بقـاء الحال وثباته من الأمور المحال، والورد بلا شوك والعسل بلا مرارة والشـهد بلا سم أمور ليس لها وقت محـدد وقد امـتزج العسل والمرارة والحـزن والسعـادة وكأن الحالتين توأمان.

والليلة تجمعنا فى بيت الحاج محسن وتحدثنا حديثًا مازحًا لا يخلو من ظرف وطرافة مع إبراهيم بيك، فقال الحاج محسن: لقد أوردت صحيفة الحبل المتين قصيدة، استمع إليها سأقرأها:

(قصيدة وطنية ذات كلام بديع)
(اسع للمحافظة على الدين والشرف)
(فقد أصبحت راية الإسلام فى العالم منكسة)
(واسع للوحدة فلا قوة لشعب)
(إلا باتحاد الأفراد)
(واتفقوا أيها المسلمون)
(إذ بسبب النفاق أصبح نجم سعدكم منحوسًا)
(وبالوحدة يكون عرضكم واسمكم محفوظًا)
(وبالوحدة تكون أرواحكم محروسة)
(وللإيقاع بكم نصبوا الكمائن فى كل مكان)
(فهذا نمر القطب الشمالى وذلك تمساح المحيط)
(فأحدهما على البر والثانى على البحر)
(أحاطوا على الفانوس مثل الفراش)
(أيها الصديق استعد لصد العدو)
(ولا تخف منه فهو دجاجة من ديك)
(وتهيأ وكن ذا أمل)
(ولا تيأس من رحمة الله)

(وكم من عبيد أصبحوا أحراراً بالعلم)
(وحتام تظل أسير قيد الجهل)
(وفى هذه الأيام تغير الزمان)
(وأصبح العلم والفن فى متناول الجميع)
(والعمل غير المناسب لا يقبل اليوم)
(حتى أنه بقى إرثًا لك منذ عهد دقيانوس)
(ويأتى الذهب والبندقية بالعمل معًا)
(وفى هذا العصر لا يجدى السيف والحربة)
(وا حسرتاه فإن العدو قد دسَّ)
(الجواسيس فى كل مكان بسبب الغفلة وعدم اليقظة)
(ويتذرع أحدهما بالتجارة لتحقيق أغراضه)
(والثانى يتزرع باسم الديانة)
(وتدبيرهم الفاسد أن يسحقونا)
(مثل الشعب اليهودى والمجوس)
(الخلاصة استيقظ وافتح عينيك)
(ولا تنخدع بهذه الجماعة التى لا شرف لها)
(ولو بقيت فترة أخرى على هذا النحو)
(فسوف يُغرس غصن الكفر فى ديارك)
(وبدل صوت الآذان لن ترى إلا)
(المسيحية وأجراس الناقوس)

(واصمت يا بديع إذ إننا)
(قد تقدمنا فى هذا الزمان ولكن بشكل معكوس)

فقال الحاج التبريزى فى وجد وطرب عجيبين: ليوفق الله هذا النوع من الشعراء، فلو أن جميع شعرائنا قد سلكوا نفس المسلك، ونظموا شعراً على هذا النحو، لعبروا حقيقة عن حبهم لوطنهم، ولكانوا أنقذونا من التردى فى الجهل وبلغوا بنا شاطئ النجاة، ولكننا وصلنا إلى السعادة بعد التيه فى الضلال، ولغرسوا فى قلوبنا أساس المعرفة، وما كنا وصلنا اليوم إلى أن أفراد الشعب قد جلسوا فى ظلمة الجهل، وراحوا يرثون الوطن ويبكون عليه.

ونظم الشعراء والأدباء فى سائر الشعوب والأمم مثل هذه الأشعار ذات الرثاء، وكتب كتاب الصحف بأقلامهم الفصيحة عن تلك الأمور على صفحات الصحف قبل نزول البلاء، فكانت أصواتهم المحذرة تدق أجراس الخطر فى مسامع الأفراد، وبذلك أيقظوهم من غفلتهم وأخرجوهم من حيرتهم، وبذلك قدموا خدماتهم الجليلة لأفراد الشعب، فزاد ذلك فى احترامهم وقدرهم ولكننا نحن الإيرانيين لسوء الحظ لدينا صحيفة واحدة هى الحبل المتين وهى تصدر خارج البلاد، وننظر إلى كتابات تلك الصحيفة ونصائحها الحكيمة نظرة تحقير وننشغل بحكاية القط والفأر واللص والقاضى، وبدلاً من أن نشكر مديرها المحترم ونجله، نقدح فيه ونذمه. ويقال فى هذا المقام:

(أنا لا أسمع شيئًا عن رائحة الخير لهذه الأوضاع)
(وفى الحقيقة ينبغى الاعتراف أن قلوبنا ميتة)
(فأين نفس عيسى الذى يحيينا)

ولم يعلق إبراهيم بيك بأى حديث على هذه الكلمات، ثم قال: سوف تتحدثون بعد ثلاث أو أربع سنوات عن هذه المقولة، وذنبنا أننا استيقظنا متأخرين ومهما تأخرنا، ففى القريب العاجل سوف يلوح الأمل وتهب نسائم الرحمة؟

(انتظر حتى يشرق صباح دولتك فلا زال هذا من أثر السحر)

وقد ذهبت إلى السويس حيث كان لى بعض الأمور الضرورية، وأنهيتها وعدت، وبعد مجيئى بيوم واحد أتى البريد ولم يكن سوى طرد مكتوب من طهران، فأخذته وأحضرته إلى إبراهيم بيك، فقال:

ألا يوجد غير هذا الخطاب؟ قلت:

لا ، قال: على الرغم من أن كلام مشهدى حسن ليس دقيقًا، أو واضحًا مع ذلك افتح الخطاب واقرأ لنرى ما كتب، ففتحت الخطاب، فكان على هذا النحو :

(صورة الخطاب رقم ١٥ من طرف مشهدى حسن من طهران)(*)

* هذه صورة الخطاب رقم١٥ وقبل ذلك كانت١٦ وهذا دليل على اضطراب اسلوب المؤلف.

نفسى فداؤك، ليس هناك موضوع جدير بالكتابة حتى أخبرك به ولكن لما أن البريد سوف يتجه إليك، فإننى أكتب كلمتين من أجل سلامتك وشفائك.

لقد كتبت قبل ذلك أن جلالة الملك يفكر فى السفر إلى الغرب، وبعد عيد الأضحى فقد اتجه الملك إلى الغرب وكان فى معيته الفأر والبقر والأرنب(*). ومع هذا فقد حُرم أكثر أولئك الذين كانوا مشتاقين لهذا السفر أى أن الصدر الأعظم كان من الأشخاص الذين يحيط الشك بحبه للخير، وقد عين بعضًا من هؤلاء موظفين، وعزل جماعة منهم، واستبعد جماعة من السفر مع الملك.

وزاد القيل والقال وسط الذين حُرموا من السفر، وهذه الجماعة هى العنصر الأساسى فى عزل الصدر الأعظم، فأخذوا يتحدثون فى كل محفل ومجلس عن خياناته واحدة تلو الأخرى، وأخذوا يتعللون فى مسألة عزل أمين الدولة، وأخذوا يشيعون فى كل مكان أن الاستدانة لم تكن من أجل هدف معلوم ومحدد ونسيت حدود الأهواز تمامًا، وأوقف تأسيس البنك الحكومى ونسيت أمور الجيش وتعديل الرواتب، ونُسى موضوع تمييز الدولة وتنظيمها. وقسم الصدر الأعظم الأموال بينه وبين أصدقائه

* هذا نوع من السخرية لإظهار أن الملك قد حمل معه كل شئ. (المترجم)

المقربين. وأخذ كل واحد يتحدث كما يحلو له فى هذا الشأن، وأكثر هؤلاء الأدعياء كانوا فى غاية الغضب والحزن لأنهم لم يستفيدوا من هذه القروض. ولا شك أن البعض وأنا منهم قد حزنا لذلك وهذا من باب المحبة للوطن والتألم لأبناء الوطن، وقد سُرقت هذه الأموال وبقى القرض على عاتق الشعب.

الخلاصة : فقد كثر خصوم رئيس الوزراء، وبعد عودته سوف يؤدى رئيس الوزراء خدمة عظيمة لهذه الجماعة التى أخذت تتحدث فيه بالنميمة ! وسوف يعاقب واحداً تلو الآخر، وسوف يضطرب حال تلك الجماعة بعد عودته، وسوف يشى كل واحد من هؤلاء بما بدر من صديقه، إذ أن هذه الجماعة أسوأ من أهل الكوفة، والذين ذات يوم قد بايعوه ثلاث مرات ثم ارتدوا عن المبايعة، فهؤلاء دينهم ومذهبهم وإيمانهم ووطنهم وشرفهم وغيرتهم وحميتهم المال فقط.

(طلب المال أفضل من أى شىء آخر)(*)

(ورسالة التومان حديث مهذب للروح ؟!)

لا يعرف الصداقة والأمانة أى واحد من هؤلاء. والأشخاص الذين أشعلوا مصباحهم لمدة ليال طويلة واغتابوا

* فى رأيى بعض الإيرانيين الذين ينتقدهم الكاتب. (المترجم)

الصدر الأعظم ولعنوه، اليوم يسجدون له ويقبلون قدمه، إن لدينا عالمًا عجيبًا، ونحن شعب عجيب، فلا نحن نثبت على أقوالنا، ولا نحن نستقيم فى أفعالنا، ونحن نهرع للخير والشر، ولكن لا نخطوا خطوة واحدة فى تنفيذه.

(يا من هو فداء ذلك وقلبه يتفق مع لسانه)

لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء مذبذبين بين ذلك خسروا الدنيا والآخرة.

وإجمالاً أوضاع البلاد خربة، والمملكة سراب والخبز ووسائل المعيشة بها نقص، وقلوب أفراد الشعب فى عناء، والطريق الصحيح مسدود، ولا يصدر عن أى شيخ أو شاب فى أية قرية من القرى سوى نداء الجوع والسلب والنهب. وقد استقرت جماعة من الجوعى من آذربيجان وهم فى قمة الحاجة والعوز فى البلاد، ولا يمر عليها وقت طويل إلا ويظهر منها الأثرياء والذين بلغوا ثروة قارون. ويدعون أنهم أتباع نمرود وفرعون.

وفى كل بيت لا يسمع إلا حديث عن الفساد والاقتراض وإنى أطلب اليك أن يخبرنى بأخبار الغرب، وسلامى الخاص للعم يوسف.

حسن الكرمانى

وكان قـد كتب فى هامش الرسالـة : وفى الواقع أن الحبل المتين صحيفة مظلومة ولها حق عظيم فى أعناق الشعب، فهى لم تغفل عن نصـيحة المواطنيـن وإيقاظهم، ولو كانت لدى شـعوب أخرى لوصلت مكانتها درجة رفيعة، وينبغى على الدولة والشعب أن يعترفا بقدر جوهـر العلم هذا، وأن يعطياه حقه. ولكننى أؤكد أنه لو يتابع أحد كتابات هذه الصحيفة الغراء، فلن يمر وقت حتى يصدر هؤلاء الخونة فى الدولة أمراً بمنع هذه الصحيفة من الدخول إلى إيران وذلك خوفًا من ظهور خيـاناتهم وخشية إيقاظ المواطنين من غـفلتهم، وبذلـك يحرمـون الشعب من فـيض مطالعـة تلك الصحيفة الغراء. كفى بالله نصيراً.

وبعد العشـاء طُرق الباب، وأتى الحاج مسـعود وقال: هل سيأتى الحاج مسعود مع مـهدى بيك، فقال إبراهيم بيك: ليرفعوا المصباح وقل لهم تفضلوا، فنهضنا وصعدنا، فقال الحاج محسن: يا عم يوسف لقد جاءت الحـبل المتين وبها قصـيدة وطنية، وقلت لمهـدى بيك، قلت لنذهب ونقـرأ القـصـيدة عـند إبراهيم بيك، ويكتب العم يوسف قبل الحديث:

(استمع للناى عندما يحكى)

(قصيدة وطنية من كلام بديع)

(حتام تصف أيها الشاعر الفصيح المعشوق)

(وأنت تملأ القرطاس بالوهم قائلاً أنا شاعر فصيح)

(وتذم الممدوح لغرض فى نفسك وتمدح المذموم طمعًا فيه)

(وتثرثر أحيانًا عنِ العرفان، وتتحدث فى الحقيقة والمجاز)

(ومن أجل وصف المحبوب الموهوم حينًا تسهب وحينًا توجز)

(فتقول يا ذا المعشوق المحسود.. وتنادى يا قبلة أهل الحاجة)

(فشعرك سالب للقلوب وغمزك فى الوصف جاذب لها)

(ووجهك قمر وقدك مياس من الدلال)

(ومن الحسرة عليك أصبحت الأمنية لدى مريرة، وشاع سرى بسبب المحنة)

(وكم أنا أحترق وألتاع لفراقك بسبب نار الحسرة)

(لو تأخذ هذه الأحاديث إلى السوق فلـن يشتروها منك بثمن الثوم والبصل)

(ولا تتحدث بتلك الترهات التى لا تجدى فى شىء من قبل)

(حزن قيس وقصة ليلَى وحديث محمود وسيرة إياز)

(فقد بليت هذه الخرافات كلها فتحدث حديثًا جديدًا آخر)

(ودع هذه الحكايات وهذا الخداع ولا تنظم من تلك الحكايات البالية شيئًا آخر)

(فإن كان يشغلك حديث فتحدث كما شئت عن الوطن)

(ولتتوقف عن هوس العشق وتستبدله بعشق الوطن)

(ولا توجد محبة أفضل من محبة الوطن، فاخلص القلب للوطن عند الحاجة)

(وانظم شعراً فى رقى الوطن، وتخير منه الممتاز)

(وإلى متى لا تعرف المتدنى من الممتاز فى ظل الجهل والغفلة)

وإيران بين أولئك الخصوم مثل طائر صغير بين عدد من الصقور والإسلام أمام الكفار هو طعام للخيول المسومة.

(وبالله العليم فإن العلم أساس كل سعادة)

(كيف يتقدم شخص بدون علم، وكيف يطير طائر بلا جناح)

(حصل العلم إذ أن سلم العلم يبدأ من السفح إلى القمة)

(اصمت عن هذا الحديث يا بديع)(*)

(فإن الموتى لا يتحدثون)

وقال إبراهيم بيك بعد سماع هذه القصيدة:

يا له من شعر جيد وشاعر جيد، ومرحبًا بشاعر ذهبى القلم.

وفى الحقيقة هذا هو أصل الشعر وحديث الصدق والديانة.

وفى هذه الفترة لم يظهر شاعر نجيب حتى ينظم هذا النوع من

* بديع اسم الشاعر. [المترجم]

الشعـر. إذ أن شعـر أولئك الشعـراء الكاذبين اللؤماء كله صـنعة وبديع، وهم لا يسـتحـون أبدًا، إذ أنهم يصفـون الممدوح العـبد الأسود بأنه الصـديق يوسف ويصفـون عينيه العـميـاوين واللتين (تريان بلا بصر) بأنها مثل زهرة النرجس. وهو يصف من يبصق فى وجهه ويصـفعه على رقبتـه ولا يستطيع أن يذهب إلى الخلاء بدون مصبـاح يصفه فى الشجـاعة بأنه مثل (رستم) بل ويتفوق على (نريمـان)، ويعـتبـر هؤلاء الشـعراء أن أحـقر المخلوقـات أصحاب فضيلة ولا يخـجل الممدوح السفيه من ذلك قط، مع أنه يعلم الأوصاف التى يوصف بها كلها غير حقيقية تمامًا.

ولا أعلم ماذا كـان يفعل الشعـراء المزيفون لو لم تكن هذه الأشياء مـوجودة: الورد والشوك وليلى والمجنون وفـرهاد وشيرين وخـسرو وبـرويز والقمـر والشـمس؟ ومـاذا كـانوا يشبـهـون به ممدوحيهم.

ومنذ خمسة قرون لم يغير الشـعراء شعرهم، وكان شعرهم فى مدح الـظلمة وأعداء المـدنية والإنسانـية، وقد جـعلوا أولئك أفـضل درجة من أنـوشيـروان. بل ويعـتبـرون من غلمـان بلاط ممدوحـهم. ولفـهم معنى بـيت واحد، لابد أن يعـود إلى كـتب اللغة، فلو لم يرجع هذا الشاعر نفسه لأخفق فى إيراد باقى القافية فهـذا هو الشعر، وهذا هو حـال فضل الشـاعر وفنه الذى يكون اللفظ فى شعره له معنى واحد . . . بارك الله.

قلت: يا حضـرة البيك نفس حديثك الذى قلتـه فى قزوين لشمس الشعراء، قد نظمها الشاعر بديع شعرًا، قال الحاج محسن آقا: اصبر فلدى قصيدة أخرى.

(قصيدة وطنيه من شعر بديع)

لماذا لا تفكر فى حال الوطن
ولا تسمع إلا لآنات الوطن
ومن الجهل أصبح ليل المواطنين نهاراً
وأصبح الخريف من الجهل ربيعا
وقد اعتل مزاج الوطن
فأين الطبيب الذى يعالج أمور الوطن
ولماذا لا يفكر أهل الوطن فيه
وكأنهم يخافون التفكير فى ذلك
لا تغفل أكثر من هذا عن الوطن
فمن الغفلة اضطربت أيام الوطن

وهنا تأثر الجمـيع بهذه الأشعار، وأمـسك بها إبراهيم بيك وأخذ يـبكى، فقـال الحاج مـحسن: وقت البكاء لم يأت بـعد، استمع حتى النهاية:

ينبغى العمل على تضميد جراح الوطن
وأن يتدفق الماء فى جداول الوطن

الوطن مثل روح عزيزة لا تذلها
فإن مساء الوطن خير من صبح غريب
لو شاكك شوكة من روض الوطن
فلا تحزن فشوك الوطن خير من الورد
لقد قال النبى (ص) حب الوطن من الإيمان
فلماذا لا تحب الوطن بروحك
أولئك الأفراد الغيورون ضحوا من أجل الهمة
فأصبحوا عاشقين بأرواحهم للوطن
لم يمت الأشخاص الذين ضحوا بأرواحهم
فى سبيل الغيرة والرجولة
فقال إبراهيم بيك : فلو لم يمتوا إذن أين هم؟
وفى هذا الزمان من يكتحل
بغبار الوطن هو شخص ذو نظر
وقد انطلق كسفينة
بلا قبطان وخطاف من أعماق الوطن
وقد ظهر خصمان قويان من الجبهتين
واحد من اليمين وآخر من اليسار
فالتمساح(*) من البحر والنمر(*) من الصحراء
الفم مفتوح لالتهام صيد الوطن

* المقصود بالتمساح والنمر روسيا وانجلترا. (المترجم)

فاجعل القلعة حصينة بالعلم

يبقى الوطن فى خير من جميع الجهات

وما أكثر المال الذى سلبه الأجانب

وقد ظهر الخلل والفساد فى أركان الوطن

لو تتألم من أجل الوط

فهذا كنز عظيم له، فما أكثر آلام الوطن

وأين ذلك الشخص الذى يحزن للوطن

ويبين حال الوطن لحاكمه

وامدح مظفر الدين شاه الملك العادل

فوجوده سبب فخر الوطن

وهو ملك رفيع الدرجة فى الدنيا

والذى وضع فى يده زمام الوطن

فقال إبراهيم بيك دون أن يدرى : قولوا آمين ، فقال الجميع : آمين

لقد أحسن التعبير عن حب الوطن

فأين ذلك الشخص الذى يصبح معينًا للوطن ومحبًا له

إن شعر بديع نموذج

للأشعار المشرفة للوطن.

وأخرج الجميع المناديل وراحوا يبكون، وأخذوا يثنون على (بديع) ويدعون له، وقال إبراهيم بيك: أهذا عدل أم ظلم أن يصدروا الأوامر حتى لا تدخل مثل هذه الصحف إلى الوطن، تلك الصحف الزاخرة بمثل هذه النصائح! ولا يستمع المواطنون لكلامها الحلو. وحتى لا يتألم أحد لآلام الوطن! وحتى لا يتظلموا من أيدى الظلمة، وحتى لا يثوروا على الظالم. ويا له من سوء حظ شملنا، فقراءة كل طبقة من طبقات الشعب لهذه الجريدة أمر ضرورى، فهى زاخرة بكم هائل من الفوائد المادية والمعنوية، إذ أن أصحاب المصالح الفاسدة يحرمون الأمة المحترمة من فيض قراءة مثل هذه الصحيفة العظيمة لمجرد اختفاء سوء أعمالهم الفاسدة. فى حين أن الأحباش والزنوج فى قلب إفريقيا ينعمون اليوم بمثل هذه الصحف والمعارف، والجميع يعلم بسوء هذه الأفعال شيئًا فشيئًا، وبذلك يصبحون متحضرين ويتعلمون الإنسانية الحقة.

وفى الماضى انتشرت العلوم والفنون من إيران فى جميع أنحاء العالم والآن مع الأسف، إيران بعيدة تمامًا عن الإنسانية ولا تعلم شيئًا عن المدنية. وأصبحنا جهلة بكل العالم، واعتبروا أن اكتساب حسنات المدينة ينافى حب الدولة، وهم يحرضون الدولة على ذلك بشتى الطرق، وكأنهم (**صم بكم عمى فهم لا يعقلون**) صدق الله العظيم. وقد نزلت هذه الآية فينا، ونحن

لا نحرك ساكنًا، وعمومًا فقد انتهى المجلس بمثل هذه الأحاديث، وعاد كل واحد منا إلى بيته، وفى الليلة التالية أتى الحاج مسعود وقال: إن الحاجة الكبيرة تريدك، فذهبت، وكانت الأم وابنها قد جلسا، فألقيت السلام، فقالت والدة إبراهيم بيك: يا ميرزا يوسف، نحن أنا وإبراهيم مختلفان فى أمر، وقررنا أن نقبل ما تقول به أو تحكم به.

قلت: ما هناك ؟ قالت:

أقول له أن يجهز الغرف العلوية وأن يلونها بالبوية وأن يستبدل الورق.

ويرفض إبراهيم، فهو يقول هذا غير لازم، وما أفكر فيه أن يصبح كل شيء جديدًا، وكم أتمنى أن ترشدنا إلى الخير، قلت: لا شك أن تجهيز الغرف الأربع لا يكلف ثلاثين جنيهًا، فى حالة الإنفاق عليها وهذا أمر لازم، وأن تستبدل الأوراق.

وأنا أتفق مع الهانم الكبيرة ولا شك أن إبراهيم لن يعارض فأومأ إبراهيم برأسه موافقًا فاستأذنت وخرجت ورأيت **(محبوبة)** تنتظر خلف الباب، قالت: يا عم يوسف كنت أخشى أن تقول ليس لازمًا، أطال الله عمرك، فأنا شاكرة، أما عن الأوراق فأحضر أنت عينة حتى أختار المناسب منها للون الستائر، قلت: لا تخشى فسوف أغير الستائر وسوف يكون كل شيء جديدًا، فسعدت بذلك وانصرفت.

واليوم ذهبت إلى السوق، فرأيت أن تلغرافًا قد وصل يقول إن إحدى الرصاصات قد أخطأت الملك وهو يسير فى باريس، وربما كان يركب العربة مع الملك الصدر الأعظم ووزير البلاط، فأمسك وزير البلاط ذلك المجرم وانتزع الطبنجة من يده، وقد أثنوا على جرأة وزير البلاط وشجاعته، ولم يعبأ جلالة الملك بهذا الحدث وتماسك بوقاره وثباته، ولم يتوقفوا عن التنزه فى باريس، وظهرت شجاعة الآسيويين أمام الأوروبيين بشكل ملفت للنظر. وأخذ يردد المواطنون الفرنسيون فى صوت واحد ليحيا ملك إيران، ويظهرون الشكر قائلين أن وزير البلاط الملك قد أبدى شجاعة فائقة، ولم يسمح أن يكتب اسم الشعب الفرنسى فى التاريخ كقاتل للضيف، وبعد معرفة هذا الخبر سعد إبراهيم بيك سعادة فائقة ببشرى الحراسة الإلهية التى حفظت جلالة الملك من كيد الأعداء. وألقى القبض على العدو بسبب غيرة وزير البلاط وشجاعته وفضل عناية الخالق التى ليس لها مثيل، فأنقذوا إيران والإيرانيين من اليتم، وبذلك فقد ترك انطباعًا عظيمًا فى ذمة الملك ومحبى الملك.

وعند سماع هذا الخبر سجد إبراهيم بيك شكرًا بفضل هذا الخبر السار، وعلى الفور خلع خاتمه الياقوتى من إصبعه وأعطاه لى كهدية للبشرى.

وفى الحقيقة، نفسى فداء مثل هذا الملك الجسور والوزير الغيور إذ أنه فى مثل هذا الوقت تتطلب الجرأة والشجاعة حتى لا

يضيع الإنسان نفسه، ولا يتسلل الضعف إلى نفسه أيضًا، وفى الواقع فشجاعة أهل آسيا شئ وراثى.

(كان قد وصل البلاء ولكنه مر بخير)

وانتظرنا حتى تكتب الصحف الأمر بالتفصيل، وبعد أسبوعين جاء مهدى بيك والحاج محسن آقا مع الحاج تبريزى، فقال الحاج تبريزى: لدى ورقة عن حادثة ذلك الرجل الذى أطلق رصاصة على الملك، ولكن نصف الورقة يتعلق بك، فسألت من ذلك الرجل؟ قال: رضا خان المازندرانى الذى قضى فترة فى الغرب من أجل السياحة فى باريس، فقال إبراهيم بيك: أيها الحاج لا أصابك الله بسوء، رضا خان ليس رجلاً طيبًا ولا رصينًا: وقد عرفته هنا كرجل محنك، وسافرت معه، ولم يتعلم سوى العبث والهراء، ويعتبر نفسه عالمًا. ولم أقل لك أنه حدث بيننا اختلاف، ولكننى فضلت الابتعاد عنه.

ولهذا السبب يبلغك السلام، وقد خصص الخطاب لك فاستمع حتى أقرؤه عليك، لتروا ماذا كتب؟

(عنوان رسالة رضا خان من باريس)

يا ليت صديقك إبراهيم بيك كان فى باريس، لكان رأى بنفسه الأعمال غير المناسبة، والأفعال غير المحببة والأشياء المستهجنة لأولئك الأخساء، فربما تخلص من تعصبه الفظ، وأكرر

ثانية أن حال إيران لن ينصلح على يد هؤلاء الـرجال، فلا تعذب النفس واسترح بالاً وابتعد عن تـلك الأشياء حتى لا تكون حزينًا مثلى، وبحق الخـبز والملح اللذين أكلناهما معًـا لا يوجد شخص يفكر مـثلما يفكر إبراهيم بيك وسط هذه المجـموعـة التى تشكل حكام السلطنة، وليس فيهم من يفكر فى المدفعية وفى المعسكرات الغربية، أو يتحدث عن العلوم المتنوعة، وثقافة هؤلاء وليس فيهم من يفكر فى تقدم البـلاد ولا يعلمون كيف هؤلاء عرفـوا السبيل إلى التحـضر، ولـم يعرفـوا كيف أن طريق التقـدم ليس له نهاية، وفكرهم محصور فى التجوال والتفرج على بلاد الغرب فقط وهم لا يفكرون بأى أسلوب تدار هذه المصانع والماكينـات وهم يبحثون عن الأشيـاء الزائلة ويشترونهـا ويضيعون أمـوال الشعب والدولة عبثًا.

فإذا تجمع ثلاثة أشخاص فى مكان لا يكون حديثهم إلا عن كيف أحدهم اصطحب الفتاة الفلانية، وكيـف أن هذه الفتاة كانت جـميلة، وكـيف كـان لديه فلان وفـلان. ولم يتـعلموا اللغـات الإيطالية والفـرنسية وسـائر اللغات الأجنبيـة حتى يستفـيدوا من سياسة الدول فيقرأوا الكتب الفنية وقوانين الحضارات فيترجموها، حتى تستفيد طبقات الشعب من ذلك، ولكن تعلموا تلك اللغات من أجل مصاحـبة الفتيـات وعشق النساء ليقـولوا مثلاً: كم أنت جميلة؟! وقد تعلموا هذه الأشيـاء، فى حين أن الفتيات لا يطلبن

من هؤلاء سوى جـملة من فضلك فقط. وكنت قـد رأيت عبث هؤلاء الظاهر والباطن ورأيهم الباطن أيضًا.

(العالم الظاهرى مثل العالم الباطنى)

فإذا ما استيقظوا فى الصباحِ من النوم لا يفكرون إلا فى من أين تأتيهم الرشاوى، ويهتمـون مَن من الأفراد؟ حتى يسلبونه كل شيء، وضـمائرهم مـولعة بهـذا السلب والنهب، وخارج الـبلاد على النقيض فـإنه تسيطر عليهم مـالخوليا الإنفاق ولســان حالهم يقول اليوم أين ننفق هذا المال؟ ولمن نعطى هذا المال وكيف نبذره، وهم ينفقون بيسر على الفاحشة عشـرين جنيهًا والتى قيمتها بضع جنيهات، وهم يتفاخـرون بذلك ويتحدثون عنه وكأنهم **(صادوا الذئب من ذيله)** واستولوا على قلعة، ويُعـتبر هؤلاء حثالة باريس ويستولون على أمـوالهم. وهم يشترون من المحال بقيمـة أكبر من قيمتهـا الحقيقية، مما يحير الإنسان ويجعله يتـأسف كثيرًا، لأن ما يشترونه يكون مثيله فى إيران أقل كثيرًا، ولكون هؤلاء لا يدفعون الجمارك فإنهم يشترون كل ما يقابلونه من سقط المتاع دون تفحص أو نظر. وبالأمس ذهب واحـد من هؤلاء مـعى إلى أحد المحـال المخصصة لبيع الزجاج وقسمًا بروحك العزيزة فقد اشترى بما قيمته أربعة آلاف تومان، ولا يوجـد بينهما مصبـاح أو لمبة أو أباجورة، بل كان كلها أشيـاء توضع فوق المنضدة أو المكتب وهى من لوازم المشـروبات الروحـيـة الزجاجـيـة، ومـا إلى ذلك، وكلمـا قلت

بالفارسية له يا صاحب السعادة هذه الأشياء غالية الثمن لا يهتم بكلامى.

إذ أن البائعة آنسة وفتاة جميلة ولطيفة وحسنة المنظر، وظلت تشير بأسلوب خاص بالأجانب مبتسمة وتدون (**المشتريات**) لمدة ساعتين وأكرمتنا إكرامًا كثيرًا، وكانت تقدم البيرة والسيجار حتى انتهى الشراء، فجمعت الحساب فوصل إلى واحد وثمانين فرنكًا، فأعطاها قدراً من المال وأمرها بلف المشتريات، ولا أعلم من أين جاءوا بكل هذه الأموال؟ فهم ينفقون بسخاء كأن المال حصى رمال، وأنا فى حيرة من أمرى بسبب كل هذا البزخ والإنفاق الزائد فما هو مصير الدولة؟

(ينبغى البكاء على أحوال ذلك الشخص)

(الذى ينفق عشرين ودخله تسعة عشر)

والغرض من كتابة هذه الموضوعات هو أن تقول لإبراهيم فلتترك هذه الاعتراضات وهذا الشجار الذى فعله معى فى فندق (**أورينتال**) ولا أنسى الكلمات العاتبة على والتى قرأتها فى عينيه، وقالها فى حقى، وعانى بسببها، وليأت إلى باريس وسوف أتكفل بنفقة سفره ليرى بعينه حتى لا يعتبرنى من الكارهين لهذا الوطن فلا يذمنى ولا تحزن فما رأيته هناك أكثر منه.

(إن أردت أن لا تفتضح فكن مع الجماعة)

والمثل المشهور: دع الذين لا يتألمون يفكرون فى أنفسهم ويحزنون، وذات يوم أتى فلاح يقول : إنه ذات يوم أراد حرث الأرض ببقرته، وكانت البقرة نائمة، وبالرغم من أنه ضربها لم تنهض من مكانها فضاق ذرعًا بها وضربها بالعصا وقال: لقد رأيت فى الحلم أن المالك قد مات وغدًا سيحل الشتاء وسيأتى الدائن فإما أن يبيعنى أو يبيعك.

وهذه الحكاية تصدق على هؤلاء، فإذا لا قدر الله نزل بلاء بإيران، فينبغى أن ينزل ببيوت الأمراء والوزراء لأن بيوتهم كبيرة ومناسبة للسكنى، ولكن تجارة التجار وزراعة المزارعين لن تضيع من يده بل سوف تتحسن كما هو موجود فى مصر والهند وسائر الممالك الأخرى. فالحرفى سوف يبقى فى حرفته، ولن يتغير شىء منه، ولكن أى وزير لن يبقى فى وزارته، وما لحق بالوزير سيلحق بالأمير، وعلى النقيض سوف يصبح أكثر إذلالاً وهوانًا وسوف يتبدد نفوذهم، قال إبراهيم:

إنه يذكر نفس كلامى وهو نفس الحديث الذى قلته أمامه فلا داع لإعادته.

(لا تقارن أمر الأصفياء بنفسك)

(*على الرغم من أن الأسد هو نفس الأسد فى كتابته*)

(ذلك الأسد أسد فى البادية)

(والثانى أيضًا أسد فى البادية)

(وما أكثر الأبالسة على وجه الأرض وهم فى شكل بشر)

(ولكن ينبغى أن نعمل بمفاد الآية التى تقول : ولا تزروا وازرة وزر أخرى).

وقد قرأت هذه الأشعار بخصوص هذا الموضوع لرضا خان، فأنا غاضب منه وهو يكرر نفس الأحاديث.

وحول جهله بكثير من الأمور هناك الكثير من الأحاديث التى تبين مقصده، فلو أن شخصًا من أصل إيرانى وسمع ما سمعه هو فلا ينبغى عليه أن يتغاضى عما سمع. فاكتبوا فقد قرأت خطابكم لفلان، فأجاب بهذا: عمومًا كنت قد أرسلت قبل شهرين نقودًا إلى كلكتا من أجل الحصول على جريدة حبل المتين، وكان اليوم أول مجيئها حيث وصل عددان منها، وأخذتهما إلى إبراهيم بيك فقال: لو كانت هناك صحيفة وطنية من الشاعر بديع فأقرأها، قلت: لدى قصيدة وطنية ولكنها ليست من بديع، فهى من منير، وهى أول مرة تصل إلينا، واسمع أنا عن اسم هذا الأديب لعله مازندرانى من التجار المحترمين واسمه: آقا محمد إسماعيل عطاء الله أوف.

(قصيدة وطنية من شعر منير آقا محمد إسماعيل عطاء الله أوف التاجر المازندرانى)

نقلاً عن حبل المتين

(لو للعنكبوت عش فللإنسان وطن)

(وأنت مثل العنكبوت فانسج الخيوط حول الوطن)

(ينسج العنكبوت خيوطه من أجل المحافظة على عشه)

(أيها الغافل تعلم من العنكبوت المحافظة على الوطن)

(يعتبر حب الوطن من الإيمان)

(ومعنى الإيمان حب الوطن بدون شك وظن)

(لو أن الشيخ لم يعرف اسم الوطن فاعذره)

(فهذا الوطن اسمه إيران فتعال اسمع منى)

(هذه إيران وهى فى الروح، كالطاحونة)

(والطاحونة هى الصدف لإيران فى جنة عدن)

(أيها الغافل هذه هى إيران منذ أيام السلف)

(فقد نمت فى هوائها وعشت على أرضها)

هذه هى إيران والتى تشبه شجرة صفصاف فى قوتها ارتعشت فى جسمك القوى

وفى المثل الدنيا مثل هضبة صحراء بها خضرة

وإيران بستان فل فى ذلك الوادى

وهى مثل امرأة ذات فلة بالخد سروية القد بضة الساق

ومن كثرة ما تحمل انحنى الظهر من السنابل وتناثرت الضفائر

(غلب النوم النرجس ذات العيون السوداء فهى صامتة)

(وقد منحها الماء الحياة عن طريق الشفاه الحلوة فى الحديث)

(هذه هى إيران التى تركها بهرام فى رحلته إلى الهند)

(فأخضرت صحراء الدكن من بكائه)

(هذه هى إيران التى تعد أساس العدل)

(ومن جفاء الدهر حزن كل سلطان أراد بها سوءاً)

(هذه هى إيران التى هى أمن وأمان لكل صديق)

(وقد اتجه بطلها القهار نحو اليمن)

(وهذه إيران الزاخرة بكل النعم)

(وما وعد به الله ذو المنن تجده فى الفردوس الأعلى)

(صحراواتها مثل الجنة وبناتها مثل الحور)

(وعيون مائها كوثر وأنهارها مثل اللبن)

(كان همايون ملك إيران لقرون من الزمان)

(الآن أصبح لا نفوذ له فى آل كيان وهو كالدواجن)

(هذه الدواجن جماعة من الجهلة والسفلة الأراذل)

(فلا مروءة فى شخص واحد ولا محبة بين شخصين)

(وليس بينهم من يعترف بالنعمة فهم أناس غير شاكرين)

(فلا عقول لهم ولا قلوب، جهلاء مثل اهرمن)

(الرأس ليس به عقل والجسد مثل جوال الزكاة)

(والفكر مستغرق فى الفتن عاجز عن الفطن)

(واستمع جيداً مما يئن الحزين)

(فهذا الملك عين إيران له قلب حزين)

يحترق القلب من أنين الألم

نعم عندما يئن المتألم يحترق القلب

يتألم القلب أين ذهبت قبيلة اسفنديار

فقد هاجمنى كثيرون مثل (ارجاسب)

من أجل الأموال المقترضة من الروس وبسبب الطمع الزائد

أتت النار على الأخضر واليابس

(انهض من التراب الأسمر يا ابن حكايات الزمان)

(وارتد الدرع وتهيأ للقتال)

(الشيطان الكبير ذوبيان فلا تبك على السحر)

(وافتح اليد الأخرى واجعل السحر بالجسد)

(لقد قُبل أنين هذا المتضرع فى حضرة الملك)

(حتى أصبح مظفر الدين شاه العادل ملك الملوك)

(وقد تشرف العرش عرش جمشيد بجلوس هذا الملك)

(فانتشر ببركة هذا العلم والفن)

(لهذا الملك طلعة الشمس ذو قلب أسد زائر)

(وكأنما الشمس على قلنسوته رمز منقوش على حرير)

(الملك مثل أساس قوى ثابت، وإيران مثل البلاط)

(الملك مثل الروح المقدسة وإيران الجسد)

قصيدة وطنية أخرى من الرسالة المقدسة لحبل المتين

(هجم العدو على دياركم)

(فلماذا تبحثون عن العار والخزى يا قوم)

(تذكروا همة أولئك النائمين فى التراب)

(أسلافكم أصحاب المقام العالى والجنس الرفيع)

(وهم الحكام الذين يتوقف عليهم دوران الفلك)

(وقد جاء دوركم فى هذه الأيام)

(ومن ينس الأيام السالفة)

(أيام القائد رستم واسفنديار)

(ومن ينس حرب الأيام الأربعة والأيام الثمانية)

(التى خاضها بهمن بدافع الغيرة على شعاركم)

(ولا زال ذلك الفلك يذكر السنة والشهر)

(والسيوف القاطعة لأعناق العدو)

(حتى أنه أنار شمس العالم، ولو فشل فى هجمته لكانت هزيمتكم)

(وقد زاد الله من شأنكم)

(بسبب اعتناقكم لدين محمد المبين (ص)

(وقد استعدتم مجد ملوك الديالمة)

(وأصبح ثياب العزة دثاركم)

(وقد ترك لكم نادر شاه تلك الوديعة فى قدرة الزمان)

(وصار هذا الأمر مبعث افتخاركم البالغ)

(وبرجولة أغار)

(فهزم الهند والروم والتتار)

(ولم يكن فى جيشه سوى أسلافكم)

(فاختار الفلك من حربه تلك)

(ولم يكن فى بلاطه سوى أجدادكم)

(فاختار الزمان جدكم)

أيها الخلف السيئ لا تظلموا

ولماذا يضيع شرفكم وقوتكم هباءً

أخذت السماء العزة منكم

فلماذا الآن يذلكم الفلك

تعفن العقل كثيراً بسبب ما احتسيتموه من الخمر

فأمركم خمر وبلاطكم قمار

ولما أصبح بلاطكم شرابًا وأمركم قماراً

صار صغاركم وكباركم عاراً عليكم

يطوف أهل الشرق والغرب فى مملكتكم

وملككم يطوف بلاد الآخرين

وما رآه الملك من اختلاف فى البلاد الأخرى

ليس سوى منطقة جبلية عندكم

(يموت الفرنسيون من الغيظ حقداً منهم على الفرس)
(فلماذا خطفت باريس قلوب الإيرانيين)
(يتألم الإيرانيون من أجل حديقة أوروبية)
(فى حين يتألم أهل الغرب بسبب بساتينكم)
(عندما تصفو قلوب الناس)
(فإن الله يسوق المطر للبساتين)
(ولماذا يمر بمدينة الرى ولا يسقط الغيث فى فارس)
(وحاشية الملك الفارسى بمثابة زهور الزينة)
(إن باريس ليست قطعة من الجنة)
(ولكن فخركم بأنفسكم ليس بالقدر الكافى)
(أنتم مفتونون بباريس ولكن
(تراب فارس أجمل كثيراً)
(لماذا تنفقون أموال إيران على باريس)
(وسوف يحاسبكم الله يوم البعث والحساب)
(أصبحت أوروبا عماراً بإسرافكم)
(ولكن قلاعكم وأبراجكم صارت خرابًا)
(شعر منير لؤلؤة من الحكمة)

(فاستمع إليه جيداً وضعه قرطًا بالأذن)

فقال الحاج التبريزى مهمومًا:

لقد زادت هذه الأشعار من همكم، الآن استمعوا إلى هذه الفقرة والتى حكايتها تستحق الاستماع إليها، وهو حوار لشخص إيرانى مع آخر غربى فى برلين وكلها أحاديث باعثة على الألم.

استمع إلى الناى عندما يحكى

(حديث إيرانى مع آخر غربى فى برلين)

إن أولئك الذين شاهدوا الحدائق الأوروبية الشعبية أثناء فصل الربيع والصيف، يعرفون جيداً إنارتها ليل نهار، حتى أن المصابيح الكهربائية تنير ساحتها وتجعل الحدائق كالجنة، ولا شك أن وصف هؤلاء ليس فى محله، وتعريف هذا الأمر لا جدوى منه لأن بعض الشرقيين لم يروا هذا الوضع المدهش من قبل، لأن صدورهم لا تتسع لمثل هذا، وكذلك عقولهم، وليس من السهل قبول ذلك، وقد أدى هذا إلى المبالغة والكذب ونرد على هؤلاء بهذه الشطرة.

(إن السائح يكذب كثيراً)

والأفضل من هذا كله أن نصرف النظر عن الوصف والتعريف ونبدأ الموضوع:

فى شهر مايو عام ١٩٠٢ وفى ليلة من الليالى خرجنا من المنزل بصحبة شخص إيرانى وهو صديقى الذى كان من إيران بغية التجوال، فدخلنا الحديقة للتنزه وبعد قليل من التفرج جلسنا فى

ركن من أجل الراحة، ولتجديد النشاط طلبنا شايًا فكنا مشغولين بشرب الشاى، وكان البعض منا ينظر إلى هذه الحياة المريحة الجميلة التى هى من نصيب الأوروبيين بعين الحيرة والغبطة. وكان كوكب سعادة هذه الأمة قد تلألأ فى تلك الليلة بينما كنت أنا ألاحظ عظمة هذه الحديقة وأدقق فيها وكنت أفكر فى نفسى كيف أن هؤلاء الأوروبيين البرابرة قد وفروا كل أسباب الراحة من أجل راحتهم، وباتباع علم من العلوم جملوا هذه القطعة من الأرض مع صعوبتها وعدم استوائها من أجل سعادتهم، فجعلوا منها قطعة من الجنة، وكيف أنهم حققوا أول نعمة فى هذه الجنة والتى هى أساس الحياة الأبدية للسكان فى تلك المنطقة، كما حققوا أيضًا النعمة الأخرى ألا وهى الحرية الفكرية، وأى علم فى ظل التربية بلغ بهم هذه الدرجة من المعيشة واتبعوا هذه القواعد والترتيب والتنظيم وأخذت أفكر مستغرقًا فى هذه الخواطر متحسرًا، وفجأة وقع بصرى على رجلين وامرأتين وقفوا أمامنا، وكانوا يبحثون عن مكان للجلوس فيه حيث أن جميع المناضد فى الحديقة قد شغلت بل وشغل أيضًا أطرافها، فرفعَ أحدهم قبعته بمنتهى التواضع والأدب وألقى السلام علينا وفقًا لعادتهم وقال: أيها السادة لما أن كل المناضد مشغولة فلو تأذنون لنا بمشاركتكم المنضدة فنجلس قدرًا من الوقت لنستريح وسوف أكون شاكرًا لكم، فأجبت أنا بكل ود وبشاشة، يسرنا هذا ويسعدنا مشاركتكم، وبعد تقديم الشكر لنا أشار إلى أصدقائه بقوله :

تعالوا فأتوا وجلسوا، ونادى علـى الخادم وطلبوا كل ما يريدونه، وبعد ربع ساعـة حدثنى أحدهم قائلاً: أيها السـيد أتسمح لى أن أتحدث مـعك، فأجبت لو كنت تـعتبـرنى جديراً بالمحادثة فـافعل ولك ما تريد، فسُر من هذه الإجابة وأبدى لى الشكر على طريقته وأمسك يدى وقال: يبدو من لبـسكم للقلنسوة التى ترتدونها على رءوسكم أنكم من أهل إيران ولكن هـل أنتم من حاشـية جـلالة ملك الملوك؟ أم لا؟ فـأجـبت بالنفى، قـال: هل أتيـتم من أجل التجـارة؟ قلت لا، ولكن جئنا من روسـيا للسـياحـة لعدة أيام، فسأل أى لغـة من اللغات الأوروبية تجيـدون، قلت: أعرف قليلاً من الفرنسيـة والألمانية والروسية فسأل عـن بعض الكلمات باللغة الألمانية، فرأى أننى لا أعـرفها فأراد أن يتحدث الروسـية، فرأيت أنه هو لا يجيد الروسـية فقال: أردت أن أتحدث معك بالفـارسية لكننى خشيت أن تضـحك علىّ، قلت: لا تظن أننى لست مؤدبًا فشكرنى عـلى هذا الرد، والتفت إلى زملائـه وقال: أرجو قـبول عـذرى لأننى لم أتحـدث معـكم واستـأذنكم لأنكم لا تعـرفـون الفارسية، وقد تضيقون بذلك ولكن سوف أترجم لكم حديثى فى المرة الثـانيـة، فرد زمـلاؤه أنهم كـانوا مـشغـولين هم أيضًـا مع بعضهم، فاشغل أنت ضيوفك، وبعـد الاستئذان من أصدقائه قال لى: لدى انطباع عنك ولا أعلم حقيـقته؟ قلت تفضل. قال: إنى أراك فى أول الأمر تفكر ويبدو عليك الحزن فيما كنت تفكر؟ وما هذه الأفكار؟ فرأيت أنه يتحدث الفـارسية بشكل فصيح وواضح،

ومع أننى إيرانى إلا أننى تركى اللسان وسوف أخجل فى الحديث معه، فقلت دون حرج : أحسنت أين تعلمت الفارسية؟ فإنك تتحدثها مثل أهل شيراز، قال: أحسنت الملاحظة لقد تعلمت هذا فى مدارسنا الابتدائية، ولكن كنت موظفًا لمدة ثمانية أعوام فى بوشهر وشيراز، والآن أنا معلم اللغات الشرقية فى مدرسة برلين الشرقية.

ولم ينس السؤال، قائلاً أجب عنه وسألنى فيما كنت تفكر وفى أى عالم كنت شاردًا؟ قلت: خالق العالم كله واحد، قال: نعم لا أحد يتحدث عن وحدانية الله ولكننى أخمن أنك كنت تفكر فى الحياة هناك فى وطنك المقدس، قلت:

(كل مكان هو بيت عشق سواء المسجد أو الكنيسة)

فقال ضاحكًا: أنا لا أبحث معك مسألة فلسفية ومعلوم أن الإنسان الكامل ينبغى أن يكون على هذا النحو، ولكن هدفى شيء آخر ومما يقوله حكماؤكم :

(الجنة ذلك المكان الذى لا يكون فيه تكدير)

(ولا يكون لأحد مع أحد آخر شأن)

ثم تحدث لأرى إذ أن هذا المكان يعتبر جنة للمرء أم أنكم تعتبرون إيرانكم هى الجنة؟ يا للعجب نحن بالفعل فى جنة أم لا؟ قلت:

(الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر)

فأخذ يضحك بصوت عال وقال:

بين معنى الكفر والكافر لنعرف ما صلة العبارة؟

قلت: ليس لدى تلك الدرجة من العلم والمعرفة حتى أستطيع أن أتحدث فى هذا الشأن ولكننى سمعت هذا أن الكفر بمعنى إنكار الحق وستره وإخفاء كلمة الحق والشخص الذى يكتم الحق كافر: قال:

(لا يجب الحديث مع الخصوم)

لقد خانك الإنصاف لماذا يجب أن تكون الدنيا سجن المؤمن؟ إن الله خلق بنى آدم فى هذه الدنيا وخلق النعم للجميع.

حتى ينعموا بالراحة ويشربوا ويشكروا نعمته. ولكن بالنسبة للمؤمن نعم الدنيا بديل لنعم الآخرة، وراحته فى الدنيا بالنسبة للآخرة ليست من قبل السجن وعذاب السجان. وحاشا لله أن يكون الله قد حرم المؤمنين فى الدنيا من نعمة إذ أن مفهوم الرحمة ليس هذا، إذن ينبغى التسليم بأنكم تعذبون أنفسكم فى هذه الدنيا دائمًا، ولم تفهموا معنى بعض الأحاديث، واستسلمتم للراحة والكسل، وتجيبون على الأجانب بما فهمتوه. وعلى سبيل المثال فقد تجمع فى هذه الحديقة على الأقل عشرة آلاف شخص من صغير وكبير امرأة ورجل، حاكم ومحكوم واختلطوا مع بعضهم البعض يأكلون ويشربون، وكل واحد يأكل ويشرب مع الآخر بمنتهى الحب والصفاء والنقاء والبشاشة، بل ويتحدثون معًا ويلهون، وليس لهم شأن بالآخرين.

كمـا أن هؤلاء الأفراد لا يغـتابون أخـوتهم ولا يحـسدون الأغنيـاء ولا يفكرون فى خـسارتهـم ولا يتحـدثون بالسـوء على الدولة، ولا يتظلـمون من الحـكام ولا يشكون من إدارة الحكومـة لأن وظيفة كل شـخص معلومة والمكافأة على العـمل محددة، ثم أنهم بعيدون عن القـيل والقال ومشغولون بـأحاديثهم الراهنة ولا يتـملقون الغنى ولا يصـدون الفقـراء والمساكـين، وليس بيننا من يقول للآخر لا تجلس معنا وأنت لست جديراً بالجلوس معنا.

(تعال وقل ما تريد وانصرف)

(ليس فى هذا البلاط كبر أو غطرسة أو حاجب أو حارس)

ويأتى للتـمـتع والراحة فى هـذه الحديقـة كل ليلة الحـاكم والمحكوم الملك والصعلـوك، الفقير والغنـى ويعودون إلى منازلهم حيثما يريدون، ولو أنكم تتجمعون فى إيران فى عدد عشرة آلاف فى منتـزه، فإن جـماعـة منهم ينصـبون حلقـة للشعـر، وتكون أشعارهم فى ذم الواعظين والزاهدين ,وإذا ما تجـمع فى ركن آخر الزاهدون والواعظون فإنهم يكفرون الشعـراء. ويتجمع فى جانب ثالث عدد آخر ويتحدثون عن الأمور الدينية ويتنازعون فى مذاهب الشيـخية والمتـشرعة ويتـجمع فى مكان رابع عـدد آخر يشتـمون التجـار والأثرياء ويجدون فى نفس المكان مشـاركين لهم فى هذا القيل والقال وإثبـات خيانة البعض والتدليل عليهـا، ويتجمع فى

ناحية العلماء فيتحدثون عن الدولة ومساوئها، وفى ناحية ثانية يجأر البعض من ظلم الحكام، ويلعن الآخرون الظالمين ويسبونهم ويشكو الجوعى فى أحد الجوانب غلاء الغلة وعدم وصول الأطعمة ونقص الماء والخبز. ويفكر فى جانب آخر المحتكرون من أجل رفع قيمة السلع، ومن ناحية أخرى لو أن أحد الموظفين أو العسكريين دخل المجلس ولم يجد كرسيًا، فإنه يشد أحد الكراسى من تحت أحد المواطنين، ويجلس عليه بكل كبر وغرور، ويصب السم فى كأس ذلك المسكين، وهؤلاء الذين ذكرتهم هم أعقل الناس عندكم.

يا للعجب فلو دخل عدد من السوقة فى تلك المجموعة فالملجأ لله وسوف تصل تصرفاتهم وأعمالهم وأقوالهم عنان السماء.

(هم يتحدثون على طريقة، العشق والعشاق)

(ويذمون الشاب والكهل على السواء)

والجميع غرقى لجة الجهل ولكنهم يعتبرون أنفسهم أفلاطون الدهر وأرسطو الزمان.

قل الحقيقة هل هؤلاء الأفراد سجنوا أنفسهم وجعلوا منها كبابًا على نار ملتهبة أم أن الله تعالى كتب عليهم ذلك، ويمكن القول أن هذا النوع من المؤمنين قد سجنوا أنفسهم بأنفسهم، إن

الله لم يفعل بهم ذلك. ومع هذا الوضع غير المستحب فإن الدنيا سجن المؤمن قول غير صحيح وبالسلوك الذى سلكتموه فى نظرى أنكم جعلتم الدنيا والآخرة سجنًا لكم وليس هذا حال الدنيا إذ يقول علماؤكم من باب مدح أهل الشرق أن أهل الشرق أفضل الناس وإن شمس المعرفة بزغت من الشرق.

كما أنكم بهذه الكلمات الصبيانية تسخرون من أهل الغرب وتتكبرون، كما أن وجودكم فى الشرق ليس فيه فخر لكم ولا تفضيل لكم، لأنكم مع ظلمة الجهل قد أطفأتم الساحة النورانية.

نعم لا شك أن الإيرانيين فى العصور القديمة قد سكنوا فى تلك الأرض الطاهرة وكان لكم تفوق زائد على جميع الأمم، وفى الحقيقة فقد كانوا فخر كل إنسان، لأنهم تركوا خلفهم تاريخًا طيبًا، وأصبح دفع كل نوع من القبح هدفهم فى هذا العالم.

وفى الواقع يجهل الإيرانيون المعاصرون أحوال أجدادهم، وفى الوقت الذى كان العالم كله يعيش فى جهل وبربرية كان قد علم السلاطين الإيرانيون أهل إيران كل نوع من تهذيب الأخلاق. ولم يكن أى واحد من سلاطين إيران مستبدًا أو ظالمًا، بل كانوا جميعًا يتناقشون فيما بينهم، ولم يكن السلطان يرتدى تاج السلطنة حتى آخر العام طالما لم يرض بذلك العظماء والعلماء عن أمور الجمهورية، وحينما أنتم تتفاخرون بمفاخر إيران القديمة فى

الوقت الحاضر وفى المستقبل أمام أهل الغرب وتعتبرون أنفسكم أعزة فذاك هو أساس الخطأ.

(لا تفترض أن أباك كان فاضلاً)

(فما جدوى فضل أبيك عليك)

فماذا أقول لك غير هذا؟ قلت:

هذا القدر كاف، وعلى كل فإن شمس الحضارة المضيئة قد طلعت من ناحية الشرق، واستنار كل الغرب بنورها وتخلصوا من ظلمتهم وهذا فخر كاف لنا وأنكم أهل الغرب ونحن أهل الشرق وأنكم معشر الغرب قد استفدتم من نور أهل الشرق فى حياتكم، فضحك بصوت عال وقال: بهذا الشكل ينبغى أن يقول لكم أهل خطا وختن هذا الحديث إذ أنكم تقعون فى غربهم وأتأسف عن جوابكم الواهى. ولكن تلك الشمس الأخرى التى تقصدونها زاخرة بمجوهرات كثيرة وقد جىء بها فى غضون خمسة أعوام وهى ليست فى مملكتنا، وهم الآن يبددونها ويكون الغروب الأبدى لها. ومنذ ثلاثين عامًا أتى الغرب إلى تلك البلاد فعاثوا فى الأرض فسادًا وقسموا تلك البلاد وألقوا بالشرق فى قبضة وزراء ظلمة وأصبح الإيرانيون أسرى هؤلاء.

وفى كل عام تلك الشمس المتلألئة التى تفتخرون بها، يبددها الإيرانيون من أجل الفتيات الغربيات، علاوة على ذلك

الرمز (**الأسد والشمس**) والرموز الأخرى المرصعة والصناديق المملوءة بأموال الروس التى مُنحت لكم وهى فى وجودكم تبدد من أجل عيون تلك الفتيات، ولو أنك تتباهى برمز الأسد والشمس وتفتخر بذلك فهذا من حقك ولكن وجودكم بجوار بزوغ الشمس ليس ميزة لكم، لأن فيض الشمس يعم كل مكان ويصل إلى كل شخص. والآن هل أدركت حديثى أم لا؟ فإذا أردت أن تفتخر بشرقيتك فينبغى أن تعرف قدر الوطن، فأنفق عائدات الوطن فى الوطن، وزد ثروة الوطن، واعرف أعداء الوطن ولا تعطى ثروة البلاد إلى الأجانب تملقًا، وأنتم معشر الشرق عندما حرمتم أنفسكم من ميزة الحرية فقد أودعتم كل حرياتكم فى أيدى عدد من المغرضين والخونة وسنويًا تُسرق المليارات منكم وأنتم لا تشعرون بذلك قط.

وقد نقل ذهب مملكتكم عن طريق عدة أشخاص خونة إلى الخارج، ولم تشعر بذلك، وحل النحاس الإنجليزى محل الذهب فى بلادكم. وكنت قد سمعت أنهم يمارسون علم الكيمياء فى إيران، وهم بمساعدة الكيمياء يغيرون جوهر الفلذات ولم أكن أصدق ولكن الآن فقد رأيت بعينى ما شاء الله الأستاذة الغربيين المهرة والعلماء الذين يغيرون فى أقل فترة زمنية النحاس إلى الذهب بعد الغش فى عياره. والآن قولوا الحقيقة أن الغربيين أكثر تطورًا من الشرق بآلاف المرات لدرجة أنه لا يلحظ هذا النوع من

الكيمياء وذلك بسبب غفلة الشرق. وجميع شعوب الغرب يفكرون ليل نهار حتى يتزايد المال فى بلادهم، ولكن الشرقيين هكذا ناموا فى سبات عميق. وكل يوم يبيع وزراؤكم الجهلة للأجانب قطعة من البلاد فى مقابل حصولهم على لقب من الألقاب. وأنتم لا تستيقظون أبدًا من الغفلة والاسترخاء، ويضيعون كل تلك الأموال فى الغرب دون عناء، ولا تعتبرون أبدًا فهذه الرحلة الخامسة (١٣) من رحلات الشاه، ولا يحس أحد منكم بهذا ولا يدركه قط حتى يقول أين تذهب ولماذا تذهب؟ وإلى أى شىء تذهب؟ ومال من الذى تبدده؟ ولماذا تسرفون وتبذرون؟ ولا يقرأون إلا فقط (**إن المبذرين كانوا من إخوان الشياطين**)؟

وبمجرد أن يراكم المازحون والفتيات الجميلات الأوروبيات فإنهم يسرون ويضحكون، وهؤلاء الغربيون يفرحون لذلك ويقولون:

أتى الصديق ومعه الخير.

ولكن للأسف هم لا يقولون هذه الكلمات إلا للأشخاص الذين يغرقون فى نوم، فلا عين لكم ترى ولا آذان تسمع.

أيها الضيف العزيز، لعلك تغضب من هذه الكلمات ولكن هذه الأمور تؤلمنى أنا الذى أتحدث معك، وليس لى غرض فى

ذلك لأننى عشت فترة فى إيران. وقد رأيت من الإيرانيين كل مودة، وقد شاهدت مذهبهم ودينهم، وقرأت هذا المذهب وأخذت كثيرًا من رسوماتهم وأعجبت بكل هذا، وقد عجبنى دين الإسلام من بين جميع المذاهب، ولكننى لم أسعد بسبب هذه المنغصات، وعلى الرغم من أنكم تتبعون مذهب الدين الحنيف أى الإسلام والذى يسير وفق رسالة محمد (ص) وأئمة الهدى عليهم السلام، وعلى كل سوف تخضعون العالم الغربى كما فعل دين الإسلام فى أول الأمر، ولم تتفوق أية أمة عليكم قط، وأنا أعرف قوانين الإسلام كما تعلمت على يد رجاله العظماء حينما كنت فى إيران، وقد نشأت عليه فاعتنقت الإسلام وأقيم فى إيران، ولكن عندما رأيت أن لا أحد يتبع أوامر هذا الدين الحنيف، ويعتدون على حقوق الضعفاء فى منتهى التبجح، ويعتبرون ما للضعيف ملكًا لهم، حتى أن الحقوق الإنسانية قد ضاعت بينهم، ولم أكن أرى كل تلك المنغصات من قبل، لم أستطع أن أجعل دنياى جهنم أخرى فأساير هؤلاء، وبدت معيشتى بينهم أمرًا صعبًا، وفكرت مثل بعض الزهاد أن أنزوى، فرأيت أن ذلك يفوق طاقتى، وفى الحقيقة فإن المشرع فى الإسلام لم يغفل هذه النقطة ولم يترك شيئًا لم يوضحه فى سبيل السعادة فى الدنيا والآخرة لمتبعى هذا الدين، ولو أن الإيرانيين اتبعوا شريعتهم الغراء، ما فرطوا فى المساواة ولحظوا بالسعادة فى الدنيا والآخرة، والآن فإن حدائقهم أفضل

من هذه الحديقة وأحسن، وكانت دائمًا مقرًا للراحة العامة، كما كانت ممالكهم أكثر عمارًا مائة مرة من بلاد الألمان. وللأسف فإن المالك والمعلم غير موجودين بين الإيرانيين علاوة على أن الكتب السماوية والأحاديث النبوية والحكماء والناصحين والواعظين لم يتركوا لكم عذرًا أو حجة فى ذلك.

وقد قرأت كتاب الشيخ سعدى الشيرازى والذى هو محل اطلاع كل العالم وهو زاخر بالشعر، وترجمته باللغة الألمانية ولو تنظرون فيه بدقة تجدون أن كل كلمة تحمل قيمة للعالم.

(سمعت أنه وقت الاحتضار قال أنو شيروان لهرمز هذا)

(كن يقظًا وفقيرًا ولا تكن منعمًا)

(واحترس فالفقير فى حاجة إلى الدار كما أن الملك يحتاج الرعية)

(ولا ينبغى أن تُعجب بالقرب من العالم، فالراعى نائم والذئب وسط الخراف)

(يا بنى إن الرعية مثل الجذر والسلطان شجرة، واقتلاع الشجرة من الجذر أمر صعب)

(لا تطلب التوسع فى تلك الحدود، وأنت ترى الرعية ضائقة من الملك)

وأنا أفضل أمثال هذا الكتاب أكثر من الإنجيل، ولكنكم تعتبرون هذا نوعًا من الأساطير، ولا تعتبرون بهذه الكلمات الحكيمة، وبشتى الحيل سرقوا أموال الشعب وجمعوها وأتوا بها هنا لكى ينفقوها هباءً. وبالأمس جلس فى كابينة المسرح عدد من الأشخاص، وكانوا مشغولين باللهو وكانوا فى حالة من السكر والعربدة وكان بينهم كهل فى حالة سكر أيضًا، وكان يعشق إحدى الفتيات الجميلات، ولكن الفتاة لم تهتم به، وكان قلبها معلق بشاب وسيم ذى شعر أسود، وكانت تلك المسكينة ترقص أحيانًا فى عالم آخر. وأحيانًا كانت تبكى بدموع الحسرة وأخذت تتغنى بهذه الأشعار.

(ماذا فعلت حتى لا يعرنى نظرة مثل الأغراب ومن ينقض العهد)

(ولأفترض أن النار ليست فى قلبى ألا تنظر إلى بكائى مثل نهر الماء)

فتجمع الناس حولها وأخذوا يتهكمون ويضحكون ، قلت أيها الإيرانيون المساكين تعالوا وشاهدوا أن اقتراض الدولة جعل منكم رهينة حتى السداد واستولوا على الأموال، وانظروا فى أى شىء ينفقونها؟ وكيف تنفق؟ واليوم سمعت أنه هناك قد أنفقوا بالأمس (١٤٠٠) فرنك.

وبسبب هذه الأحاديث شعـرت بالغُصة وقلت فى شىء من التمسك:

(إن صلاح مملكتنا يعلمه الملوك)

(لا تبك تسولك على قارعة الطريق فهذا ذنبك)

وقال مبتسمًا: معلوم أنك تألمت من حديثى.

قلت: لا إن طريقـة الحديث جـاءت على هذا النحـو، ثم نهض وودعنا وقال: متى نـلتقى معًا ونتحـدث؟ قلت غدًا سوف أذهب إلى (وارسو)

وبعد سماع هذه الكلمات من هذا الغربى تغير وجه إبراهيم بيك حـتى بدا لونه كلون الزعـفـران، ولاحظت أنه لا يرغب فى الجلوس، فاستأجرت عربة وركبـتها، وأوصلته إلى البيت، فذهب هو مباشرة إلى غرفتـه، ولما لم يكن لديه استعداد للحديث ذهبت أنا أيضًا إلى حجرتى، لعله ينام ويستـريح، وبعد ساعة أتى الحاج مسـعود وقـال: الأم نامت، تعال لنرى لماذا يبكى السـيد ؟ فـقد ذهب ولم يدخل حجـرته، فاسترقت السـمع فرأيت، أن إبراهيم يكلم نفـسه قائلاً: إيران، إيران، إيران، أية مـصيـبة هذه حطت عليك؟ اللعنة عليك أيها الزمـن الغادر، وأية مذلة التى ارتضيـتها للإيرانيين؟ أيـها الوطن أيتهـا الأم العزيزة، أية نكبـة تسبب فيـها أبناؤك؟ هل أنت إيران التى كـانت فى العـهد القـديم بستـان إرم

وجنة وجه الأرض؟ هل أنت إيران التى كنت فى العصور القديمة مصدر المعرفة للآثار القديمة والتربية؟

ويعلم مؤرخو العالم أنه فى أيام سلاطين العجم الأولين كان لديك عادات حسنة ونظم محببة، وقد بقى من ذلك حتى الآن لم ينس قانون كيو مرث، هو شنكَ ، جمشيد فكان ذلك نموذج احتذاه الغرب فى ممالكهم ودولهم. والآن ماذا حدث تذم الصحف أبناءك فى أقصى بلاد الغرب؟ حتى أنهم يخافون من ذكر اسم إيران، والإيرانى. إيران ، إيران ، إيران، لقد أوصل أبناؤك السفهاء السمعة السيئة والفضائح إلى أهل الغرب، ويضحك الغربيون المحتالون على أولادك بشتى الحيل، ويضيقون الخناق على أولادك فى الحدائق، ويذمونهم بدعوى تمتعهم. واليوم ليس هناك أحد من أهلك يبكى لحالك؟

(بالأمس كان يبكى على ميت واحد مائتان)

(واليوم لا يوجد واحد فقط يبكى على مائه)

كان يقول مثل هذه الكلمات ويبكى، فقلت للحاج مسعود أسرع واحضر ميرزا عباس، فدخلت الحجرة، وعلى الفور وصل ميرزا عباس وقال:

ماذا حدث لك يا أخى؟ ولماذا البكاء؟ ولماذا تقتل نفسك. فالدنيا سعادة ولا مبرر لحزنك وينبغى أن تصبر إذ قيل الصبر

مفتاح الفرج. (**وليست هناك مشكلة ليس لها حل ، ينبغى أن لا يكون المرء فزعًا**)

فتغاضى عن الإساءة وتفاءل خيراً.

(**الأمور تتحسن ولكن مع الصبر**)

وسرى عنه قدراً من الوقت وقال:

دعهم يربطون الخيول بالعربة لنخرج، إذ يقول العظماء : اذهبوا إلى المقابر أثناء الحزن والألم، والليلة الجمعة سنذهب إلى المقابر لنقرأ الفاتحة على أهل القبور.

وأعدت العربة وركبنا وذهبنا مباشرة إلى قبر المرحوم والد إبراهيم بيك، وجلس بجوار قبره وأخذ يبكى ويقول: أبى العزيز ما أطيب أيامك... إنك لم تر هذه الأيام الحزينة. لقد أخذت بكل وصاياك وعملت بها، ولكن لم أستطع أن أكون مثلك، أبى العزيز لقد ذهبت بنفسى ورأيت بعينى، ووجدت أن كل ما كان يقوله الآخرون فى شأننا صحيح وصادق. أبى العزيز ليت قدمى تعثرت ولم أذهب، وقد انتهى الأمر حتى أن أبناء وطنى يسيئون إلينا، والآن فإن أهل الغرب يفضحوننا.

أبى العزيز:

(**ما هو الوصال فى يوم القيامة**)

(**ليت وصال الحبيب يجدى مع الانتظار**)

أجب يا أبى فأنت المسئول، ولى عندك طلب وأنا لا أستطيع العيش مع هذا الصراخ، ولا أستطيع أن أسمع شماتة القريب والغريب فى شأن وطنى. فأضيق بحياتى وقد طال لسان الجميع علىّ، فخلصنى يا إلهى واقبض روحى.

وفى تلك الأثناء أمسك (**ميرزا عباس**) يد إبراهيم بيك وقال ناهضًا بينما هو بجوار القبر:

يا أخى لقد جننت تمامًا. فالمرء يفكر فى السعادة ويجهزون لزفافك وأنت تفكر فى الموت.

(فانظر الاختلاف من أين وإلى أين)

وما هذا التضرع؟ وما قيمة هذا الدعاء؟ فانهض، انهض لنذهب.

وخرجنا قسرًا من المقبر وركبنا العربة، ووصلنا إلى البيت، وكان الجميع فى صمت، ولم يكن أحد منا مهيأ للحديث ولا حتى للقدرة على التنفس.

فجاءت الأم قائلة ما الخبر؟ قلت:

ليس هناك خبر، فقد عاد الحزن وهو نفس الحزن القديم.

فجلس ميرزا عباس قليلاً ثم انصرف.

وكانت محبوبة منتظرة وأنا آخرج، وبعد قليل خرجت فسألت بعين باكية وقلب محترق ماذا حدث؟ قلت: لم يحدث

شيء، قرأ فقط صحيفة حبل المتين فحزن، قالت: بع . هذا لا تسمحوا لهذه الصحيفة أن تدخل بيتنا، وفى الماضى كانت حبل المتين تأتى وكنت أقرأها من وقت لآخر ومع ذلك لم أكن أفهمها، حتى أن بعض مقالاتها كانت تجعلنى مضطربة وباكية، وكأن مدير هذه الصحيفة هو مقرئ الروضة (١٤) أو فى مكان مقدس، وكأنه لم ير فى أى وقت من الأوقات خبراً ساراً يزفه لإيران، ومعلوم أن قراءة مثل هذه الأخبار بالنسبة لإبراهيم فى حكم إعطائه السُم.

قلت : صدقًا ما تقولين، فأنا لن أقرأ هذه الصحيفة بعد ذلك، ولكن هذا ليس ذنب كاتب الأخبار، والمفروض فيها أن تكون هذه الصحيفة مثل المرآة فتظهر القبيح قبيحًا والحسن حسنًا، ولكن إذا لم يكن هناك عمل حسن من أعمال الإيرانيين. فكيف تجعله حسنًا؟!

ولم يكن إبراهيم يرغب فى تناول الشاى والعشاء، وكان يعانى من حالة اضطراب، وكان مطأطئ الرأس ويتألم ألمًا شديدًا، وظل على هذه الحال شهراً كاملاً جالسًا فى البيت لم يخرج منه.

وكلما أصرت والدته أن تأتى له بالطبيب كان يرفض، وكل يوم كان يشرب فنجانين أو ثلاثة من القهوة والحليب، وأحيانًا كان يشرب الشاى، ولكن كان يدخن كل يوم ما يقرب من أربعين أو خمسين سيجاراً. وكان الأحباء يزورونه كل يوم ويتسامرون معه،

ويومًا فيومًا، كان جسمه ينحف ويضعف، حتى أنه أصبح لا يقوى على الحركة، وكان دائم التفكير.

وذات يوم جلس عدد من الأشخاص وأخذوا يتحدثون أحاديث ضاحكة مازحة لعله يُسر أو يُسعد. وفجأة أتى الحاج مسعود (غير المسعود) داخلاً من الباب حيث أحضر عدة خطابات فأشرت له أن يعود فلم يفهم وتركها كلها، فرآها إبراهيم بيك، وأعطانى أحدها وقال فى صوت ضعيف: اقرأ، فرأيت أنه خطاب مشهدى حسن الكرمانى، وكلما حاولت أن أتباطأ لم يجد، وأصر، فأردت أن لا أقرأ الأخبار السيئة له وابعده عنها، إلا أنه قال: اعرف حيلتك، هذا يقتلنى وقال اقرأ كل ما هو مكتوب من البداية إلى النهاية دون تحريف، ولا مناص من أننى بدأت فى القراءة.

(صورة خطاب مشهدى حسن الكرمانى)

نفسى فداؤك. السبب فى أننى لم أكتب لك هو أنه لم تبدو فى الأفق أخبار سارة، فكنت أنا نفسى مضطربًا لهذا توجهت إلى أرض مشهد المقدسة حتى أحظى بشرف الزيارة.

وبعد وفاة (الحاج خان)، فقد توقف دخلى وأنا أعيش فى عسر من أمرى واضطراب حتى أننى بعت كل ما أمتلكه، وهذه آخر رسالة أكتبها لكم من طهران.

أما أخبار الغرب فأنت تعرفها أفضل منى. لقد طلبت صحيفة حبل المتين والآن تمر سنة كاملة، ولم ترسل لى نسخة منها، ولو كنت أستطيع أن أحصل عليها بطريقة أخرى لفعلت وما شققت عليك وألححت فى طلبها، ولعلك قد أرسلتها فلم تصل إلىّ وتحفظوا عليها فى البريد. وسمعت أنهم يفتحون بعض المظاريف بهذه الحجة ولكن للصدر الأعظم غرضًا آخر، غير هذه الأسباب التى قد تكون مانعًا فى مجىء حبل المتين.

لقد سمعت من مصادر موثوق فيها، أنهم يضعون كل أعداد صحيفة حبل المتين فوق مكتب الملك الخاص، وأنا لا أعلم كيف يحدث هذا، إلا أن الصدر الأعظم له باع طويل فى هذا الأمر، وتعقبها، وأبشرك بخبر طيب وهو أن أخبار حبل المتين تصل إلى الملك ويقرؤها.

الخلاصة : أنه منذ عدة شهور كتبت أن جلالة الملك قد وصل بحاشيته بالسلامة والظفر إلى أرض الوطن، وأقيم حفل كبير لهذا، ولكن يقال أنهم يفكرون بعد خمسة شهور فى السفر ثانية إلى الغرب، ولهذا يطلبون من جديد عشرة مليون كقرض من دولة روسيا، ويبدو كما يقال أن الصدر الأعظم قد أُعد العدة لهذا السفر بحيله الخاصة.

وكما قيل قبل ذلك أن الأعيان يفكرون فى عزل الصدر الأعظم من منصبه، ويدرك الصدر الأعظم هذا الأمر جيدًا، وهو

يعتبر أن العرش الملكى يكره الحزم فيما يتعلق بإصلاح أمره شخصيًا، فإذا ما حان الوقت استأصل شأفتهم واحدًا بعد الآخر، ولكن مما هو واضح أنه غير مستعد لذلك وربما يحدث أسوأ من السيئ.

وفى المقابل فقد أسس المعارضون - للصدر الأعظم - صحيفة (**المساء**) وراحوا يوزعونها فى الأحياء والأسواق ويلصقونها على الأزقة، حتى أنهم أوصلوها إلى جلالة الملك نفسه بطرق غير معروفة، وهم راضون عن الملك. وهم يشيرون فى صحيفة المساء إلى مفاسد الصدر الأعظم بالأدلة القاطعة بأنه سبب خراب إيران وأنه فى الثلاثين عامًا الماضية قد تقدمت جميع دول العالم من الحضيض إلى عنان السماء، وعلى النقيض فإن إيران تتجه نحو الانحطاط يومًا فيومًا، حتى أن ظلام الجهل قد غشى كل أنحاء الأرض، وقد زادت الفوضى والاضطراب عن الحد، حتى أن الصدر الأعظم أصبح يعين من يريد ويستبعد من لا يريد. علاوة على هذا فإن جميع نجباء إيران وعلمائها يعلمون هذا.

وقد ضاق الأمراء العظام بأفعال هذا الرجل وظلمه. ومنذ فترة عندما كان الملك وليًا للعرش، أرسل أحد الأشخاص تلغرافًا يشكو فيه أحد الأشخاص ممن يحملون الألقاب موجهًا هذا الخطاب إلى الصدر الأعظم. ولما علم بذلك الصدر الأعظم ازداد

غرورًا وشرورًا حتى أنه حشا هذا الخطاب فى فم حامله، وشاعت بعـد ذلك هذه المقـولة: **(إن الصـدر الأعظم [١٥] هو ملك إيران بالفعل وكأن الملك ليس موجودًا)**

(الملوك أسماء فقط وكأن ملك إيران ليس موجودًا)

وأول شىء تحتاجه إيران هو المدرسة، وقد وقف هذا الرجل ضد المدرسة وقال للملك، لقد لاحـظتم نتيجة المدرسة، وكم من الثورات قام بها طلاب المدارس فى روسـيا، فطلاب المدارس هيئة ضارة بالنسبة للدولة، وهو بهذا أغلق جميع المدارس.

وأول معـارض له هو وزير البلاط، وقد موقع الاثنان مـعًا وهما يتبادلان الأحاديث الصـادقة والكاذبة على حد سواء، وهما ينتظران الإيقـاع لبعـضهـمـا، فذلك فى صف الصـدر الأعظم، والبـعض الآخـر يسـاند وزيـر البـلاط خـاصـة الأتراك، والذين يعتـقدون أنه هو الأفـضل، ولكن قسمًـا بالله لا هذا مناسب ولا ذاك، فهم سـواء، ويمتلك الصدر الأعظم حـديقة وقصرًا، كـما يقال أنه سوف يصـبح أفخم قصر، ولا ينفق عليـه أقل من مائتى ألف تومان، أضف إلى هذا أنه لديه مـشتى وعربة بخـارية، وقد أنفق على ذلك آلاف التـومانات، فـهو يجعـل الرعية تعـيش فى شظف من العـيش بينمـا هو يؤسس الأبراج والقـصـور من أجل راحته.

وإجمالاً فإن الأشخاص الذين حرموا من السفر إلى الغرب، وكذلك حرموا من خير مرافقة الشاه، كان رد فعلهم إما أن يلحقهم معه بالسفر أو يتحدثون حسداً عن قصور الصدر الأعظم وبزخه، ويظنون أنهم بذلك يسدون خدمة للشعب.

ويقال أنه دار حديث فى الغرب من باب التسلية أنه سوف يؤسس مجلس شورى فى إيران، فأجاب شخص من حاشية الملك هو (**قائد الحربية**) وقال: لو يفعلون هذا فسوف أمزق بالخنجر بطون أهل المجلس فهؤلاء يريدون أن يحدوا من استقلال السلطنة وأنا أمير وذو غيرة.

فانظروا هذا رد وزير الحربية، وهو يعتبر الشجاعة فى تبديد سعادة إيران وأن يصبح ذا كرش، ولننظر لشجاعة هذا الرجل وغيرته؟! فأهل المجلس يريدون أن يزيدوا عزة الملك وقوته وعظمته بينما هو يريد أن يبقر بطونهم، وهو ينطبق عليه المثل المشهور فى الصداقة:

(عدو عالم خير من صديق جاهل)

إذ أن الصديق الجاهل لا يريد أن يكون ملكه مثل (فيلهالم) إمبراطور ألمانيا، فهو يريد أن يكون ملك إيران اسمًا بلا مسمى، وأن لا يكون صاحب أمر ونفوذ.

الخلاصة : حقيقة الأمر أن إيران خربة، وفى كل إقليم وصل غلاء السلع إلى أعلى درجة، حتى أن الفقراء العاطلين

والجوعى يهجمون على بيوت الحكام قائلين الله الله ويستولون عليها، ويُحبس هؤلاء الأفراد فى مشهد وشيراز وأصفهان ويزد بسبب غلاء الأسعار وبتشجيع من جماعة البابية، لدرجة أنه فى بعض المناطق يرسلون الجيش لذلك، ولكساد السوق يخرجون التجار والحرفيين مقيدين من أرجلهم، فأحرقت نار الجهل إيران، ومع هذا لا يخشى الصدر الأعظم من هذه الأحداث، فهو يفعل ما يحلو له فى خراب إيران، وهو يسحق جميع أعدائه. ومن المسلم به أنه إذا أراد الله أن يمتحن عبده أوصله إلى أعلى درجة فى الطغيان، ولكن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يقرب عبده منه فإنه يذيقه الذلة اختباراً له. وقد يجعل الذبابة الضعيفة دماراً عليه، ولكن الآن فإن الحظ مقبل عليه - الصدر الأعظم - فهو يفعل ما يريده، واحسرتاه على اليوم الذى يجىء ويكون فيه إدباره، ويتبدل الحظ بالنحس حينئذ سيحيق به العذاب والبلاء.

عندما أقبل الحظ، كان جعفر البرمكى (١٦) يمارس الرذيلة مع كثير من النساء ولا يسأله أحد، وحينما أدبر هذا الحظ وتزوج بحليلته، حرقت نار غضب الخليفة جميع البرامكة فأصبحوا طعمة لسيف الخادم، وقد شمل هذا الانتقام الغنى والفقير والوضيع والشريف العالم والجاهل، الغريب والقريب وكل من استفاد منهم، ونُسب إليهم، فى لحظة بسبب - إدبار الحظ - قضى عليهم جميعًا، فجعل (**بيوتهم عاليها سافلها**) فلم يبق لهم أثر

ولم يعد لنفوذهم رسم، كل شىء هالك إلا وجهه. صدق الله العظيم

الخلاصة : إن جناب الشيخ فضل الله نورى كان أحد رؤساء الجماعة الذين اشتركوا فى عزل الصدر الأعظم وحتى لا يعزل الملك صدره الأعظم أخذ الشيخ فضل الله نورى مبلغ ستة آلاف تومان وكان من العلماء المعروفين فى طهران، وبلغ عن جميع شركائه فى التآمر على رئيس الوزراء السابق، وانطبق عليه القول الشهير: (**إذا فسد العالِم فسد العالَم**)، فتم حبس الجميع من جديد، حيث ألقى القبض على ميرزا سيد حسن شقيق مؤيد الإسلام مدير حبل المتين، وأخذوه إلى مكان غير معلوم، وهذا لإرهاب الأفراد وإغلاق حبل المتين، وسعوا وديًا لدى السفير الإنجليزى حتى يغلقوا جريدة الحبل المتين فى كلكتا، والآن وصل الخبر بأنه قد تم إلقاء القبض على تسعين شخصًا من الكبراء. ونفوا كل شخص فى مكان.

والسوق مكان خصب للسجن والحبس، ووصل الأمر إلى أن كل شخص له عداوة مع شخص آخر بلغ عنه الصدر الأعظم لكى ينتقم منه.

(كل من يريد الانتقام منا كان يفعل)

(وليته كان يأتى من بعيد ويتفرج علينا)

(اعتذار من العلماء الأعلام أكثر الله من أمثالهم)

والأمل الصادق والرجـاء الواثق أن القراء الأعـزاء والأخوة المحترمين لا يسيئون الظن قط فى شأنى أنا الكاتب - المراغى - إذ أن بعض الظن إثم.

ومن المسلم به أن ذم عـلمـاء الدين المبـين نوع من الكفـر والضلال، وكل من يؤمن بالله ورسـوله لا يرتكب مثل هذا النوع من الجرأة إذ أن فى ذلك كـفراً وردة. والأشخاص الذين مـدحهم الرسول (ص) قال فى شأنهم ودرجتهم:

(علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل)

وإطاعـتـهم وتوقيـرهم أمـر واجب على كل مـؤمن بأمـر الرسول (ص) وكذلك إطاعـة الأئمة سلام الله عليهم حـتى آخر الزمان. وعدم التـأدب وعصيان هؤلاء العلمـاء هو سبب للخلود فى نار جـهنم. فاللهم احـفظنا من شـرور أنفسنا، وبدون اتبـاع علماء الدين وخلفهم من الأئمـة كيف يكون حال الشعب والدولة والسلطنة وما هو الإيمان وما هو الإسلام؟

وهذه الدعوة والجهد من قبل الكاتب هو بغـية التعصب والمحافظة على الإسلام وبقاء اسـم الشعب وقوميتـه، ولن يكون هناك تقدم إلا بالمحافظة على الدين والشريعة لأى شـعب من الشعوب ونشر الشريعة وإعلاء كلمة التوحـيد مرتبط بوجود علماء الدين. وبدون

العالم ما قيمة المسجد والمنبر والشريعة والطريقة؟ فلن تقام دولة أو ينشأ شعب فى ظل عدم وجود دين، فما هو هذا المذهب الباطل الذى قد يصل إلى المذهب الطاهر الأحمدى أو الشريعة المحمدية المطهرة والذى يشهد كل العالم بصفائه وسموه.

ولا شك أن الحكم يعتمد على وجود العلماء الأعلام، وهم الأركان الأربعة والركن الركين للهيئة الاجتماعية وأساسها، وهم بمثابة العمود القائم وسط الخيمة، فلو تحطم هذا القائم لا قدر الله فإن أساس تلك الخيمة يسقط تمامًا، والسياسة فى كل شعب مرتبطة بتلك القاعدة الحكيمة كما هو متبع فى كل جنس من الأجناس البشرية، وقطاع الطريق الذى يلبس كل واحد منهم لباسًا، ويعتدون على أرواح الناس وأموالهم بل ويعتدون على دينهم وإيمانهم موجودون ولا يضيقون ذرعًا من أى نوع من الفحش والظلم.

ومنذ بداية الحياة حتى الآن يشاهد فى كل جنس الخير والسيئ والسعيد والشقى حتى فى ذرية الأنبياء والأولياء، وهناك جماعة من قطاع الطرق يعيشون فى شعب الجبال، ويقطعون طريق القوافل ويهاجمون بالسيوف والبنادق تلك القوافل، وبعض منهم يدخل المدينة ليلاً فى بيوت الأجانب ويسرقون كل شىء يقابلهم، وجماعة أخرى منهم فى ثياب التجار، يستولون على أموال الناس على الملأ العام ولا يعيدونها، وهناك جماعة أسوأ من

هذه، وأكثر شقاوة وهم الذين يسلكون طريق التزوير ويسيرون فى طريق الشريعة، ويسلبون أموال الفقراء والمساكين والأيتام، وقطاع الطريق الذين ذكروا أول الأمر يختلفون عن التاليين، إذ أن الصنف الأول إذا ما قبض عليهم فإنهم يلقون العقاب ويجلسون فى ذل وخجل، ولكن هؤلاء الذين يجلسون فى صدر المجلس ويتفوقون على الآخرين، وأول خصلة لهؤلاء الأشخاص من الصنف الثانى أنهم اغتصبوا زى العلماء وتزينوا به، وهم ينطبق عليهم (**كمثل الحمار يحمل أسفارًا**)، إذ أنهم حملوا عدة كتب، واعتبروا أن ذلك أساس التقدم.

وعندما أتى حضرة السيد (**العالم**) إلى الأعتاب المقدسة لم يكن يملك سوى العباءة والعصا وعليه مائتان تومان دين، ولكن عندما يصدر عدة أحكام ظالمة، فإنه يصبح فى أقل فترة مالكًا لعدة قرى كاملة، هذا فضلاً عن المظاهر المنزلية المبالغ فيها والمجوهرات والأنواع المختلفة من حلى النساء والخدم والحشم، غافلاً عن هذه الآية: " من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون" صدق الله العظيم، بل والفاسقون والظالمون، فهذا الأمر أساس الاسم الطيب والاسم السيئ.

وفقًا لمفهوم هذه الآية: "إنما يخشى الله من عباده العلماء"، فينبغى على العلماء أن يتحلوا بالخوف من الله وأن يرتدوا ثوب الخشية، وليس لكى يرثوا الموتى ويحموا الظالم

ويأكلون مال اليتيم ويهتكون شرف المظلوم، ويقول الرسول (ص) في حق هذا النوع من العلماء: من طلب العلم لأربع دخل النار، أى من طلبه ليباهى به العلماء أو ليمازح به السفهاء، أو ليصرف× وجوه الناس أو ليأخذنه الأمراء.

وإذا ما أضفنا النميمة إلى هذه الصفات الأربع المذمومة وجدنا أن هذه الصفات كلها موجودة فى علماء طهران. العلم بلا عمل وبال، والعالم بلا عمل كشجر بلا ثمر، ويقول حضرة عيسى عليه السلام:

(**ويل للعلماء السوء كيف تلظى عليهم النار**). يقول أبو عبد الله فى الحقيقة إن بعض العلماء يحصلون العلم ولكنهم لا يريدون أن يعلموا بما تعلموه، وهؤلاء فى جهنم، حتى إن البعض إذا نصح فإنه يغلظ القول فى النصيحة فمثل هؤلاء فى جهنم، والعالم الذى لا يعمل بعلمه فى الدرك الأسفل من النار.

إذ أنه ليس من يتعمم بالعمامة يكون عالمًا، وليس من يتزيا بزى العلماء عالمًا، فالعالم هو من لا يخالف قوله عمله.

(ليس عالمًا ذلك الذى تسمع منه قولاً يخالف تصرفًا)

(ليس ملكًا من أطلق على نفسه هذا الاسم ولا تعتبره ملكًا على الأشخاص)

(سواء يضع هذا الشخص تاجًا على رأسه أو لجامًا)

وقد نظم هذا الكلام (وفائى الشوشترى) رحمه الله تعالى:

(ليس كل من سمى سلمان يمكن أن نعتبره مسلمًا)

(إذ أنه كان فى البداية سلمان والآن أصبح مسلما)

(ولا تغتر بحسنك أن لديك جمال يوسف)

(فالصفات اليوسفية تخص يوسف بن يعقوب فقط)

(أنت تفكر فى مصلحتك الشخصية وتفكر فى العمامة)

(ومن يفكر هكذا منذ اليوم، فقد استقام تفكيره وأمره على هذا النحو)

(العالم هو ذلك الشخص الذى لا يفعل السوء ولا يقول للناس شيئًا ويفعله هو نفسه)

(العالم هو الذى لا يجعل علمه وسيلة لكسب المال والجاه)

(وليس باحثًا أو عالمًا من يحمل عدة كتب (ولا ينتفع بها)

(وأى علم لذلك الفارغ العاقل إنه كحامل الحطب)

فيا ليت لنا فى هذه الدولة شخصًا عالمًا قديرًا، لكنا سعينا فى إصلاح هذه العيوب منذ مائة عام، وحلّ الحسن محل القبح والخير محل الشر والجمال بدل الدمامة. ولانتهى أمر أولئك الأشخاص الذين تسببوا فى افتضاح الشعب والمذهب، وما الفائدة؟ إذ أن الوزراء والأمراء يأكلون حقوق الشعوب وخوفًا منهم لا يستطيع أفراد الشعب أن ينطقوا بكلمة واحدة. فليست

هناك إدارة نظيفة ولا ثقافة ولا مراقبة للدين، وكل عالم نكرة يكتب ما يحلو له، وإذا تحدث أحد هؤلاء المدعين للعلم أصبح كلامه لدى عوام الشعب مثل الكلام المنزلى، ومثل هذا المسكين ليس لديه قوة مميزة يستطيع من خلالها أن يميز الخير من الشر ولا يعرف الحق من الباطل، ولو كان هناك عالم عظيم وفاضل فريد ولكنه لا يرتدى العمامة، ولم يرتد الملابس الفضفاضة لرجل الدين، وتحدث بآية من الآيات، فإن الجميع يسخرون منه، ويرمونه بعدم الفهم والجهل، ولكن لو أن أحد الجهال يرتدى عمامة، فإن حديثه مسموع ومطاع، فإذا ما صعد المنبر فإنهم يصلون وراءه دون توقف بل ويملأون المسجد لكى يستمعوا إلى ترهاته، وقطعًا فإنهم يقبلون يده، ويتمسحون به ويطيعونه إطاعة عمياء فإذا ما اعترض أحد على ذلك اعتبروه شقيًا وكافرًا، ليتهم لا يهتمون بقبعة العالم، ولا يتصورون أن الفضيلة قاصرة على الطربوش، فلو الفضيلة فى الطربوش لوصلت قيمة القبعة التى هى من الجلد البخارى إلى ٢٥ تومانًا، ولوصلت قيمة العمامة المنسوجة من القماش الرقيق الأبيض إلى ستة آلاف دينار، إذن الفضل فى الرأس الذى به العقل والوعى والإدراك والتمييز، فالفرد يخشى الله بحكم هذا العقل.

وأسفاه فإن رؤساء الشعب لم يفكروا فى هذا حتى الآن، وهذا الأمر هو أساس الامتياز والاعتبار وليس فى العمامة الكبيرة، هدانا الله إلى طريق الصواب فقد طال الحديث.

(وليساعدنا الله على مصاعبنا)

وعلى كلٍ فإن الكاتب قد اضطر إلى أن يدون ما فى نسخ الكتب دون نقص أو زيادة، ولما أن الموضوع كله صدق وخال من الأغراض ومتوفر فيه النية الخالصة فقسمًا بالله وبحق علماء الأمة المحمدية أن القلم قد تجاوز عن كثير من مساوئنا. وأطلب من القراء المحترمين بأن يكونوا موضوعين فى النقد ولا يكونون مثل أدعياء العلم.

الخلاصة : بعد طلب المعذرة من العلماء الكبار فإننا نقوم بأداء الموضوع (**إذا فسد العالِم فسد العالَم**).

ومنذ ذلك اليوم أى أن الحكام يلقون القبض على الأشخاص ويسوقون واحدًا إلى كاشان وآخر إلى **(أردبيل)** والثالث إلى **(قزوين)**، ويرسلون كل واحد إلى مكان ما، ويصدرون الحكم فى واحد، وينفون الآخر، ويجعلون من يوم إلقاء القبض على الناس كأنه يوم الحشر.

إن قيمة ما يشتريه رجال البلاط - فى الغرب أكثر من التجار إذ أن السادة المحترمين يجمعون الأموال فى صناديق عديدة ويضيعونها، فإذا ما اعترض أنصار الحق والخير على ذلك بقولهم لماذا اقترضتم ولماذا استدنتم فإن مصير هؤلاء الهلاك، وقد يُزج بهم فى مكان غير معلوم. وقد قلت لقد صدر أمر بأن صحيفة

حبل المتين وباقى الصحف الفارسية لا تدخل إيران قط، وتذكروا أن أنكم ذات يوم انتزعتم صحيفتى إطلاع وإيران من يدى وألقيتم بها إذ أن الظلم قد شمل العالم وهؤلاء الأخساء يتملقون بمدح الظلمة والفساق.

وتصور ماذا كتبت صحيفة الحبل المتين حتى منعوها من الدخول إلى إيران سوى ظلم الحكام وغلاء طهران وأسباب ذلك وانتشار الرشوة بين الأمراء والأعيان من المحتكرين، وإرشادها للناس والدولة إلى الصراط المستقيم. ولا شك أن (**صحيفة إيران واطلاع**) فى مأزق، حتى أن المسئولين فى الدولة يسيطرون على كل شىء فى البلاد، ولكن فى البلاد الأجنبية فإن كتاب الصحف لديهم مكانة أهم من الوزراء ورؤساء الوزراء، أما فى طهران فليس لهم أية قيمة، وقد أصبح لليابانيين فى غضون ٣٠ عامًا خمسة عشر ألف كاتب صحيفة، وقد بلغت هذه الصحف شأنًا عظيمًا أدهش العالم، والآن يحظرون علينا صحيفة الحبل المتين من الدخول إلى إيران، تلك الصحيفة التى تبعد ألف وستمائة فرسخ عن الوطن، ونحن بسبب الذلة والتخلف ندهش العالم وكل هذا الذل والاضطراب فى حياتنا بسبب سوء الحزم وعدم تدبير وزرائنا المغرضين، ويمر ثلاثون عامًا وهم لا يفكرون إلا فى القضاء على بعضهم البعض، ودائمًا فى حالة نزاع، وليس لديهم وقت لبحث أمور الدولة والشعب، وعلى كل فإن الفوضى منتشرة

فى كل مكان، كما زاد البوليس السرى، ولا يُعرف الصديق من العدو والأجنبى من ابن البلد، والآن الدنيا مضطربة مثل أشعار شيبانى:

(الحبيب مضطرب وضفائره مبعثرة)

(المدينة مضطربة والأمير مضطرب)

(والريح مضطربة والسحاب والحديقة والجبل والصحراء)

(العبد مضطرب والربيع مضطرب)

(أذهان رجال البلاط الأذكياء مضطربة)

(وأنت مضطرب مثل ضفائر الحبيب مبعثرة)

(ولو لم يكن الحظ مضطربًا)

(لما جلس الملك على العرش المضطرب)

(حال الناس فى حالة اضطراب)

(وقلوب الناس فى هذه الحالة مضطربة)

(عندما يكون الرأى مضطربًا)

(يجلس الإنسان على قصر مضطرب).

كلب أبى نصر أكثر اضطرابًا من الجميع

وهذا الأمر له مضطرب أكثر من ذلك المعشوق.

الخلاصة : هذه هى أوضاعنا، على الرغم من أنى أخجل منها، ولو كان بالإمكان فأرسلوا خمسين تومانًا من أجلى إلى مشهد؟ ولكم السلامة، وسلامى للسيد ميرزا يوسف.

حسن الكرمانى

وأخذ ينظر إبراهيم بيك فى دهشة باكيًا، ثم أغلق الخطاب وقال:

مضطرب ، مضطرب، والله مضطرب، بالله مضطرب، وأخذ فى البكاء مثل امرأة ثكلى، وأخذت تعدو الحاجة وسكينة ومحبوبة التعسة، ووقفن خلف باب الحجرة ليقلن ماذا حدث؟ ما الخبر؟ فأشرت إلى الضيوف، فنهضوا ورحلوا ودخلت النساء.

ابنى العزيز ... ابنى العزيز، ما الموضوع، ماذا حدث؟ فأجاب يا والدتى مضطرب،مضطرب. والدة إبراهيم بيك : لنذهب نستطلع الأمر وسألت: ماذا فعل ضيوفك يا ميرزا يوسف؟ وماذا قالوا؟ حتى أوصلوا ابنى إلى هذه الحالة. ألا ترى أن ابنى مريض؟ ولماذا تجمع هؤلاء؟ قلت:

يا هانم يأتى هؤلاء من باب المحبة والمودة حتى يشغلوا إبراهيم بيك بالأحاديث الظريفة، ويزيلون غبار الحزن عن قلبه، ولم يصدر عنهم أى شىء عكس هذا، وكان قد جاء خطاب من

طهران وقد قرأت الخطاب لإصراره، فألقى إبراهيم قبتعه على الأرض مرة واحدة، وتقطعت أنفاسه وقال بصوت حزين عليك اللعنة أيها الزمان، اللعنة أيها الزمان المضطرب . . . المضطرب. نعم إنه حقًا مضطرب، وجلسنا تلك الليلة حتى الصباح على هذا النحو.

وفى الصباح أرسلت إلى الطبيب فجاء صالح أفندى وقال: لقد كنت في طنطا وأتيت أول أمس، وسأل عن الأحوال فقالوا لقد مرض إبراهيم بيك ثانية بعد شهر، وألقى الطبيب السلام على الجميع فأجاب فى صوت حزين، وعليك السلام،وسأل الطبيب ما الخبر؟ فخرج وطلب بالإشارة الماء فقال الطبيب، اغلوا الماء فى الإناء وأحضروه، وجاءوا به فشرب قليلاً، وقاس الطبيب نبضه فوجده ليس طبيعيًا، ورأيت أن حالته قد ساءت، فكتب الروشتة وأوصى بدواء للشرب. وعندما أراد أن يذهب أشرت إليه، فخرجنا معًا وقال لا تقل لمحبوبة وأمه، وهذا المرض ليس بسيطًا، انتبهوا فى الواقع فقد أصبح المرض شديداً، وسوف آتى ثانية فى العصر الضيق، وقدموا له رمانًا، وذهب،ودخلت أنا حجرتى، قلت: يقول الحكيم إن البكاء عند المريض ممنوع، ولا يناسب حالة المريض،وهو مضر بصحته، فتوقفت محبوبة عن البكاء على الفور، وجففت دموعها، ولكن يومًا فيومًا أصبحت حالة المريض أسوأ لمدة أربعة أيام.

وحالة محبوبة معلومة، ولا تحتاج إلى تفسير أو بيان، وكيف أنها مشغولة بالبكاء وهذا الأمر يناسب نظم الشعر. وفى اليوم الخامس قام صالح أفندى بإجراء (**كونسلتو**) وقال: غداً سأحضر ثلاثة أو أربعة أطباء. وهم الشيخ يوسف السيد، ود. دولف، وأتى طبيبان آخران وفحصا المريض، وفحص كذلك الجميع المريض وذهبوا إلى الحجرة الأخرى وقد زادت درجة حرارة المريض عن أربعين درجة، وتحدثوا قدراً باللغة الفرنسية وسألنى أحد الأطباء والذى لم أكن أعرفه :

هل أنت والد المريض؟ قال صالح أفندى.

لا، هو معلمه وفى مقام أبيه، قال:

تحدثوا فليس هناك عيب فى ذلك، قال صالح أفندى يا سيد يوسف لقد قلت منذ اليوم الأول ويقول هؤلاء أيضًا أن أمل شفائه ٢٥٪، فضربت راسى وقلت احفظ يا الله . . احفظ يا الله أى مرض هذا؟ فقال الشيخ يوسف السيد : لا يمكن أن نسمى هذا المرض باسم آخر فهو مريض بالفعل. وقد قلت قبل ذلك أنه ليس عنده ألم أو مرض، ولكن الآن فهؤلاء الأستاذة الأطباء متفقون ولهم رأى واحد، وهو أنه يعانى من هزال وحمى ومااليخوليا، فهو مريض بهذه الأمراض الثلاثة، وإذا وصلت درجة حرارته إلى ٤١ درجة، فلا يمكن معالجته، ولكن لا يمكن أن نقطع الأمل،

ومهمـا كان المرض خطيراً فلا يجب قطع الأمل، بل والاسـتمرار فى العـلاج أمر لازم، وقـد شفى منـه مرضى أكـثر منه سـوءًا، وقـدموا نفس الدواء الذى ذكـره صالح أفندى وانصـرفوا، وبعـد مرور ثمانية أيام، ساءت حالته أكثر، ولم يدر بنفسه، فقال صالح أفندى: ضعوا السـرير جانبًا وأعدوا له الفراش فوق السـجاد حتى يستـريح، ونفذوا أوامر الطبـيب، وأمسكت محـبوبة إبراهيم من كتـفه، وأمسك الطبيب من قـدميـه وساعـدهما الحـاج مسـعود ووضعوه فوق الفـراش، وكانت الأم فى جانب وسكينة فى جانب آخر، ولم تكن محـبوبة قد نامت لمدة أسبـوع ولم تأكل حتى أنها أصبحت كالهيكل، وكـان التاريخ أول محرم. . وظهرت فى هذا البيـت آثار الفوضى، وأصبـحت أيام الجمع سـوداء، ولـم يذهب الطبيب إلى المريض ليلة فقط، فزادت درجة الحرارة حتى وصلت إلى واحد وأربعين، بل أنها تعـدت اثنين وأربعين، فأشار إلى أن اخرج محبوبة بهدوء، وأن يقول وصـيته لو كانت له وصية، قلت من المستحيل أن تخـرج، ولا تقل أنت هذا، وإلا ستكون مناحة، وسيصل العويل حتى سابع جار لهم.

ورأيت أن محبـوبة قد ألقت بنفسهـا فوق إبراهيم بيك مرة واحدة، وأخـذت تبكى يا حبيـبى، يا سيدى بشـكل يُبكى الباب والجـدار، وكانت تقـول فى صوت عـال: أين تذهـب يا روحى؟ أرحنى فأنا بـدونك بلا حبيب، وحـزينة؟ نفسى فـداؤك، سأبقى

بعدك؟ لا والله! الحياة محرمة علىّ، لن أعيش، قالت كل هذا واحتضنت إبراهيم بيك بقوة قائلة :

(لا أستطيع مفارقتك أبدًا)

(ولو تستطيع فأنا لا أستطيع)

(جلست سنوات فى انتظارك)

(حتى أكون بجوارك)

(لقد قتلك عشق إيران يا حبيبى)

(واعلم أننى لست أقل منك فى العفة)

وأتى الحاج مسعود وشد محبوبة من ضفائرها عنوة وقال: انهضى يا سيدتى، فقد قتلتنى، فصرخت محبوبة: ابتعد عنى يا قاتل حمزة أيها الجلاد الأسود، أتظن أن تفصل روحى عن جسمى؟ وألقت بنفسها ثانية على إبراهيم بيك فشدها للمرة الثانية فأخذت تقول هذه الأبيات :

واستمرت هذه الجبلة حتى الصباح وراحت النساء يبكين مثل نساء مصر، ويعددن، فكانت هذه الجلبة مثل يوم البعث، وقد أبكى هذا المشهد القريب والغريب، فقالت الأم : واحسرتاه عليك يا سندى يا صغيرى، واحسرتاه عليك وعلى شبابك هذا فى جانب، وفى جانب آخر جلست سكينة دون حركة مغمى

عليها وضفائرها مبعثرة ضاربة الجدار برأسها، وهى تقول واحسرتاه عليك يا أخى؟ لقد يتمتنى، بينما راح الحاج مسعود يضرب رأسه بيده لدرجة أن الخاتم العقيق الذى كان يلبسه قد سقط على رأسه، فجرحه فسال الدم الأحمر على وجنته السوداء وهو يبكى قائلاً يا سيدى.

أما أنا يوسف فقد ألقيت العمامة ومزقت الثياب ومزقت قميصى حتى آخر أطرافه، وأضرب تارة رأسى وتارة صدرى بينما أخذ ينظر الطبيب فى حيرة ودهشة واضعًا يديه تحت إبطيه، وأخذ الجيران فى النواح والبكاء وتصرخ محبوبة قائلة يا حبيبى يا سيدى.

(حياتى فى وصالك فأنت توأم روحى)

وتعلقت بإبراهيم، بينما يقول الحاج مسعود :

أيها الطبيب الكبير أين إيران؟ إيران ، إيران، ولمدة ربع ساعة لم تنطق محبوبة بكلمة ولا إبراهيم. فتقدم الطبيب وضرب كفًا بكف وقال:

إنا لله وإنا إليه راجعون ، فقد توفى الاثنان.

(بعد التألم ثلاثة أعوام فى عذاب)

(رحل وكأن ذلك كان حلمًا)

(وبسبب الحب ارتفعت ستارة المحبة)

(ثم عادت ثانية شيئًا فشيئًا)
(وفى المشهد الثانى (تُرى) قصص العشق)
(وحديث العشاق وعادات العشق)
(وهذا أمر العاشق مع المعشوق)
(وذلك تصرف العاشقين مع المرض)
(وقد سافر ذلك إلى كل مدينة وكل الديار)
(وراء معشوقة فى حالة من العذاب)
(قصة المعشوق ومرضه)
(حادثة العاشق وحبيبه)
(ويتألم ذلك المسكين فى الذهاب إلى هذا وذاك)
(بسبب أعمال الأخساء)
(قصة حلم ذلك الشخص المحترم)
(والذى هو الآن مستريح فى حديقة ارم)
(لا أمل فى الأمل الجديد)
(والعودة ثانية يأس)
(وفى فراشى اليأس الوجه شاحب)
(وسقوطى بسبب مرضى)
(لقد عاش فى فراش الحزن ثلاثة أعوام)
(ومات بسبب كثرة الحديث والكلام)
(أنين ألم ذات القلب المحروق)
(والتى رأت ابنها يموت أمامها)

(تلك حكايات محبوبة الأصيلة)
(وحُرقتها لفراق وصال الحبيب)
(الاحتراق فى ليل الهجر مثل الشمع)
(يجعل الليل نهاراً للعاشق)
(يتألم ذلك قائلاً يا حق يا مدد)
(فربما يدركه الملك فى الفجر)
(وقد فقد ذلك الأمل فى الجميع)
(وهو يموت ليل نهار من التألم)
(وتلك تنظر بعين الحسرة)
(تحتضن من يموت)
(أيها القمر احمل رغبتى فى الوصال)
(حتى لا يكون فى وصلى مثيل)
(لقد تركت الروح فى طريق عشق الوطن)
(فلو كنت من الأوفياء فاتبعنى)
(إن ثبات ذلك العاشق)
(جعل محبوبة فى حالة انهيار)
(أحيانًا تتوحد الأرواح)
(ويتجمد دمها لتجمد الدماء)
(وتجمدت فى عروقها وسقطت ميتة)
(وفى عالم الأجسام تتلاقى الأرواح كروح واحدة)
(تحكى قصص المجنون من جديد)

(تعيد وجه العشق القديم)

(عندما أراد أن يقوم بإجراء عمليـة الفصد، فقد ارتعش مما يفعله)

(فقـالـت أيها العم إنك تقـطع عرقى، قال لا تهـذى إنه من ليلى)

(قالت هذه اليد يدى أنا، قال أنا أعلم بما أقوم به)

(أنا ليلى وليلى أنا مثل روح واحدة فى جسدين)

(وعندما تذهب الروح من ليلى، تذهب روحى)

(وأنا لا أبقى حيثما لا تبقى روحانا)

(اطو كتاب العشق القديم)

(إذ أن هذا المعشوق أتى بكل غريب ومدهش)

(هذا عشق ملك والجميع عشاق للملك)

(واعلم أن من يعشقه على صواب)

(يتمنى عاشقك الوصال)

(وقد أسلم روحه فى التفكير والتخيل)

(لقد ضحى بروحه فى سبيل معشوقه)

(ووقت وصاله حدث الانفصال)

(حزنًا على مرض معشوقه)

(مات فى سبيل عشق جارح القلب)

(إذا وُجدت المحبة وُجد العشق)

(لمثل هذا المعشوق وهذا العاشق)

(عاشقنا عاشق لتراب الوطن)

(وقبلته تراب الوطن الطاهر)

(هو يائس وقد انتهى أمره)

(لكن حبيبه الآن أصبح صحيح البدن)

(كان يظن أنه أسلم الروح)

(فطلب أن يموت أمام معشوقه)

(لو أن أحدًا يقول أن حبيبه بلا وفاء)

(ما أصبح معشوقه الآن بلا عاشق)

(وأقول له إن هذا الحبيب وفى)

(ويستحق كل تضحية من أجله)

(ولو انفصل عن العاشق بشكل من الأشكال)

(فهو باق على العهد والوفاء)

(ولو تنظر بدقة أيها العم)

(سترى أن عاشقنا كان يعشق ويتمنى على هذا النحو)

(إنه يضحى فى سبيل معشوقه)

(حتى يفنى هو ويمنحه البقاء والخلود)

(إذا ما مات مثل هذا العاشق)

(فإن اسمه يبقى دومًا)

(وهذا عشق من نوع خاص)

(لا يوجد لدى الرومى أو التركى أو لدى أهل خطا)

(هذا عشق التراب المقدس)

(الذى كان لون وردة من الدماء الطاهرة)

(مضجع أولئك الأجداد الغيورين)

(الذى لم تستطع الأسود العبور منه.)

(عشق ذلك التراب الذى أنا منه)

(الذى أفكر فى أمر فراقه ليل نهار)

(عاشق للتراب واستقلاله)

(عاشق لتقبيل هذا التراب)

(عاشق للتراب وقانونه)

(عاشق لليلى والمجنون على هذا التراب)

(عاشق للتراب ولكن ترابه هو)

(وصدرى ممزق لكن التمزق بسببه هو)

(عاشق لموسى والطور وقيس)

(عاشق للحارس واللص والعسس)

(عاشق على ذلك الجبل)

مرحبًا بالعشق

(عاشق، عاشق باليقين)

(وبرهانى لسان نارى)

(وا حسرتاه على ذلك العاشق الجريح)

(الذى لا يعرف رأسه من أخمص قدميه)

(لقد انفصلت عن بريق الأمل)

(وقد أثرت فى علاجه الحيل)

(لقد بحثت عن نفس المسيح بين الأطباء كعلاج)

(لمداواة هذا المرض)

(ومظفر الدين شاه هو الطبيب الوحيد لهذا الدين)

(وهو الرحيم والمدرك لأسرار الحبيب)

(فشلت كل الطرق فى معالجته)

(وترفق به عندما فحص نبضه)
قال لقد بحثت فى ألمه وعلاجه
حتى أخلص روحه من الموت
وفى علاجه سار سيرًا صحيحًا
حتى أن قده قد استقام بعد أن كان كالقوس
خرج إلى النهر ماؤنا الجارى
فظهر تورد وجهه وفاحت رائحته
شيئًا فشيئًا اعتمدت على العصا
وكنت تمشى بعون الله
فى ذلك الزمان سوف أسافر إلى (مصر)
لأعرف ما حقيقة الأمر عند قبر ذلك العاشق
انهض أيها العاشق إذ أن البعث قد حان
وأسكب السكر أيها الببغاء مرة ثانية
وأت ببشرى الصحة والشفاء من العراق
وأت بالعلاج الجيد المناسب
ومثل أنفاس المسيح
تنفس طاووس حظنا ثانية

استلقى حبيبك المريض على الفراش
فأتى له من ألطاف الحق من قال له
اعلم أنت يا قائل الحق إن المدد قد جاء
فانهض حتى تصل يدك إليه
فقبل قدمه ويده ورأسه
واجعل الروح تنهل من تلك الأنفاس
ذلك الذى كان يريده هذا الطبيب
غير موجود فى قولى المباشر
(انهض أيها العاشق فإن يد المصير)
(قد خطت لإيران كتابًا من جديد)
(وفى المشهد الثالث يجيب العاشق)
(إن لدى أملاً قويًا يأتى فى المنام)
(أيتها الدنيا لديك قلب مشتعل)
(وقد تعلم العشق على هذا النحو)

الخاتمة *

ولما أن لكل كتابًا خاتمة، لهذا لم أر في هذا الكتاب الجيد الذى يتحدث عن حب الوطن، خاتمة أنسب من تقدم الدولة اليابانية، وفى هذا الموضوع لدينا عدة موضوعات جديرة بالاهتمام.

الأول: أن أبين بعض أحاديث رضا خان المازندرانى التى حكاها.

الثاني: أوضح أن قوة فى بنى الإنسان وطبيعته ولو أنه فى كل عمل يجتهد فيه فسوف ينجزه على أكمل وجه، وأن أبين الهدف الأساسى والفرق بين ملك إيران وإمبراطور اليابان حتى يدرك الشعب أن استقرار اليابان من الإمبراطور وأن اضطراب إيران من ملك إيران.

وينبغى العلم أن الشعب اليابانى كان غارقًا فى ظلمة الجهل والخرافات، وأسير البهيمية المطلقة ولا يعلم شيئًا عن الإنسانية ولم

* لما أن الخاتمة لم يجعلها المؤلف لاستطلاع نتائج هذه الرحلة وتطرق إلى نفس الموضوعات المتمثلة فى الصراع الإنجليزى الروسى حول إيران والهند، كما أعاد تكرار الحديث عن تقدم الشعب اليابانى، ولما أن هذه الموضوعات بعينها قد عرض لها المؤلف فى خاتمة الجزء الأول والذى قمت بترجمته ثم عرض لها خلال متن الجزء الثانى، فقد آثرت أن ألخص (خاتمة) هذا الجزء (الثانى) حتى تكون أكثر تنسيقًا وترتيبًا مع الجزء الأول. (المترجم)

يكن يعرف شيئًا عن العلم والتمدن. وكان جميع أفراد الشعب الياباني يتبع الخرافات وأساطير السابقين الكاذبة والقصص القديمة. ولم يفكروا فى جنسهم باعتبارهم مثلاً أفضل المخلوقات فى نقل الحضارة وخدمة عالم الإنسانية وكشف الحقائق وأسرار المدنية والسياسة.

وعندما كانت معظم الأمم الجاهلة تعتبر أنها خلقت من أجل التكاسل والعبث بمجرد أن وصلت السلطة إلى (**ميكادو العظيم**) تبددت كل هذه الخرافات، وفى سن الخامسة عشر جلس على العرش هذا الإمبراطور وقام بالإصلاحات اللازمة والتى تتناسب مع ذلك العصر، وتخلص من الأفكار العتيقة لأجداده طيلة ألفى عام، وأخذ بسرعة فائقة فى تطبيق الأفكار المستنيرة والأعمال العائدة بالخير على البلاد. وعلى الفور ألغى أعمال أجداده وأفعالهم السيئة وغير المناسبة فى المجالس قائلاً لم يكن أجدادى فلاسفة ولا علماء ولا شعراء.

وقد اعتبر شعراؤنا أنفسهم أثناء المدح والثناء فلاسفة بل سادة الدنيا وأبناء الله، وفى هذا الشأن قد بالغوا إلى أقصى حد، ولهذا فقد ضللوا الممدوح وشيئًا فشيئًا ظنوا المجاز حقيقة، فإذا ما تحدثوا مع رجال البلاط وغلمانه ارتدوا قناعًا على وجوههم، ثم سرعان ما تبطروا على الطعام وزهدوا ثانية الثياب.

والآن أول بشرى لكم هى: اعلموا اليوم أنا فرد من أفراد الشعب اليابانى، ومن هذا التاريخ فصاعدًا لن يبقى شىء بينى وبينكم سوى المساواة والأخوة. وأدرك هذا الملك الشاب ذو العقل الكبير أن الرعية هى بمثابة الأبناء له، ولا مكان للغرور والتكبر فهما بعيدان عن طريق الإنسانية والحضارة، وفى هذا الوقت فإن شجرة التكبر لا تثمر إلا حنظل الخذلان، وكان الحكم آنذاك يقتضى الاستيلاء على الدول ولم يكن ذلك ممكنًا، إلا بالعلم والعمل، وهذا لا يجدى إلا بالفعل والأدب، وقد قضى وقته فى القضاء على جنود الجهل والديكتاتورية فى بلاطه، وأبدل ذلك بجيش العقل والحضارة وأرسى بين أفراد الشعب قانون المساواة والعدل، واستأصل شجرة النفاق والشقاق من جذورها من المملكة، إذ أن هذه الأشياء قد أعاقت طريق الرقى والحضارة وكانت مانعًا عظيمًا.

وبمساعدة أفراد الشعب هيأ كل هذه الأمور إلى الأفضل، فأحضر لذلك من أجل انتشار التعليم والتربية والصناعات والفنون المعلمين المهرة والأساتذة العظام، وبهذه الوسيلة أصلح سلطنته وحكمه، فخلد اسمه فى سجل التاريخ وأثبت أن قوانين المساواة والحرية يمكن تحقيقها وأنها ليست مستحيلة فى قارة آسيا.

وما كان يفكر فيه من إصلاحات حققها فى أقل فترة زمنية، فاستبدل الاستبداد بالدستور.

وبداية فقد اعتبر نفسه عبداً وليس إلهاً فأصبح نموذجًا للسلاطين المجاورين، فأدهش حكام العالم كله، وأثبت للجميع أن قواعد الحكم أساسها العدل والإنصاف وهى تنافى السلطة المركزية الشخصية. وعلى الرغم من أن شخصًا واحدًا لا يُعفى من الخطأ كنموذج للوعى والدهاء والعقل والذكاء لسبب من أسباب الحضارة والإنسانية، فقد عجز مضطراً أن يقوم بمهام الحكم الجمهورى، وسوف يرى الكثيرون من الحكام أن هذا التجديد بدعة من البدع المشينة وذلك حفاظًا على مصالحهم الشخصية، وهم يستعملون السم مكان الترياق، ويجنحون للسلم وقت الحرب، ويستعدون للحرب وقت السلم،

ثم أن قانون الشريعة والطبيعة مثل مجموع أفراد بنى الإنسان ينبغى عليهم أن يعملوا معًا فى تعاون وتكاتف لقضاء حوائجهم ولهذا الطريق فإن إدارة شئون السلطنة تحتاج إلى فئة ذات كفاءة ومهارة، تستطيع أن تضطلع بمهام الملك والدولة حتى تستطيع أن تنهض تحت رئاسة شخص الملك بتلك المهام المتمثلة فى الدستور والحرية والفكر الواحد لحل مشكلات شئون الجمهورية لأن آراء الجماعة بعيدة عن الخطأ والخلل ومحفوظة من الفناء والانقراض، إذ أن الشخص لو انتهى فإنه يحمل معه الذكاء والعلم ولكن الجماعة لا تفنى قط.

(هذا يذهب وذلك يأتى مكانه)

وقد ترتب على هذه التصورات الحكيمة لميكادو أنه استبعد تمامًا الكبر والمظاهر الجوفاء وتحلى بالبساطة، فكان دائمًا مع الجميع بشوشًا مسرورًا، ودعا الأمراء وعظماء الدولة وكل الجيش إلى مجلسه والتفت إلى الرعايا وجميع الطبقات فأدهش الناس جميعًا، لأنه لم يتصور أحد أن يطلع على هذا **(الجمال الإلهى)** فكان ذلك للبعض حلمًا وللبعض الآخر خيالاً، ولفئة أخرى يقينًا، فكان للفئة الأولى تمثال، ولم يتصوروا أبدًا أنه بهذا المعنى أن يظهر لهم جلالة الملك دون حجب أو أستار حتى ينير هذا الشعب التعس بنور الحرية، ويستدعى الجميع إلى بلاط السلطنة، فيحقق للدولة والشعب السعادة الأبدية، ويمنح الحرية والاستقلال فى المملكة ويأخذ بآراء الرعية، ويشركها فى شئون البلاد وفقًا للسلطات المخولة له يحفظ الوطن وأبناءه من اعتداء الأجنبى ويقوم بكل هذا بهمة ملكية وحمية سلطانية، ويضحى فى سبيل استقلال الهيئة الاجتماعية حتى آخر قطرة من دمه. وطوبى لذلك الشخص الذى سار فى طريق السعادة وضحى بدمه فى سبيل هذا الأمر المقدس.

وبمجرد أن رأى هذا الملك الشاب لليابان **(موتسو هيتو)** رعاياه وأمراءه فى حالة من السعادة والفرح لشمولهم بهذه

العاطفـة، ولما رآهم أيضًا سكرى هذه السعادة الجـديدة، لم يبخل عليهـم بالموعظة الحسنة والنصـائح المفيـدة ونصح الجميـع بالعدل والمحبـة والوحدة الـتى هى أساس السلطنة والدولة وبـقاء الرعـية والشعب، فأوصى بالإحسان للجـميع وأوصى كذلك أن يحسنوا لبعضـهم البعض، ونبهـهم إلى أن فناء الدولة والشعب فى أيدى جنود خونة جهل ونفاق، وأن بقـاء الدولة والشعب مرتبط بجيش متعلم ومـتعلق أيضًا بالوحدة. وآمل أن أسعى فى تحـقيق المصالح العامـة خلافًا لما كان يفـعله أجدادنا وأسلافنا الذين كانوا يـسعون دائمًا إلى تحقيق المصالح الشخصية والجاه الشخصى.

وبعد أن تسقط سحـابة ربيع العلم والمعرفة ويتلاشى الجنود الجهلة إلى غيـر رجعة، سوف أحث الجميع على المصـالح العامة والبـعـد عن الأغراض الشـخـصـية فـى ظل الوحدة والـسعـادة الاجتماعية.

وأعـاهدكم بقلـب صـاف أن أكـون دائم الخـيـر للشـعب ولمصلحة المملكة، وأن أقدم شئون الدولة على المصـلحة الشخصية فأنا لـم أقدم شئـون الشعب والدولة على شئونى الشخـصية، فإذا أهملت حـقوق المملكة والشـعب والدولة المتـعلقة بعـزة السلطنة وشوكتها وسلطتى، وتساهلت فى مـراعاة هذه الأمور واحترامها، ولن يبـقى لى احتـرام أو اعتـبار. لأن الدولة عـبارة عن الهـيئـة الاجتـماعية لـلشعب. ولأن كل فرد من أفـراد الشعب يمكن أن

يكون ممثلاً للدولة، وأن الشاه لا يمكن أن يسمى بشخصه فقط دولة إذ أن لفظ الدولة يطلق على الهيئة الاجتماعية، لأن أمور الدولة حينما تنظم، وتصبح المملكة متحضرة فإن جل الدولة والشعب سوف يختلف كثيراً مثل روح وجسد وقد امتزجا معًا، وسيتوحدان معًا كقلب واحد ونية صافية وخيال خال من شوائب الأغراض. وسوف يسعى الشعب والملك فى إصلاح أمور الدولة والشعب وصد العدو ويسعيان كذلك فى التعمير وازدهار الوطن، ولكن حينما يتفرق شمل الهيئة الاجتماعية للشعب، فسوف ينفرط عقد الدولة وتنقرض تمامًا.

يقارن المراغى فى هذه الصفحات من خاتمة الجزء الثانى من رحلة إبراهيم بيك بين تقدم اليابان وتخلف إيران، ويرجع الكاتب هذا السبب إلى عدم الأخذ بالمؤسسات الحديثة فى الحكم من قبيل عدم وجود مجلس شورى فى البلاد وعدم وجود مجلس وزراء حقيقى، ويرى أن هذه الأمور مرتبطة بوجود العلم والمعارف فإذا ما وجد العلم وجد الشعب السعادة، كما اعتبر أن أساس التقدم فى البلاد أساسه العدل، وتعميم الصحف فى البلاد التى تنتقد كل عيب فى البلاد.

وقد وصلت اليابان بفضل العلم مرحلة تفوق الغرب وأوروبا وذلك بإنشائها للمصانع والاهتمام بالعلم والتعليم ففاقت فى نظر الكاتب ألمانيا وتفوق أساتذتها على أساتذة أمريكا.

كما اهتمت كذلك مثلاً أوروبا بالزراعة والفلاحة وتجميل البلاد بالحدائق الغناء، كما بلغت مراكز مرموقة فى شأن الحرب والقتال وصنع الأدوات الحربية من بنادق وبارود وسفن وسكك حديدية واهتمت بالمهندسين والأساتذة، ولم تنس أوروبا أو الدول الأوروبية بمعنى أدق أن تحسن من أحوال العمال فى البلاد فوفرت لهم المأكل والملبس وما يحقق لهم حياة كريمة، ويكفى أن ندلل على عظمة هذه الشعوب الأوروبية بما قاله إمبراطور فرنسا نابليون من أنه يجب محو كلمة مستحيل من كتب اللغة تمامًا.

ويأمل زين العابدين المراغى أن تأخذ إيران بتقدم اليابان فى شأن تأسيس الصحف وتحصيل العلوم وتقدم النظام الإدارى والحكومى، ويرى أن مظفر الدين شاه ملك إيران آنذاك لا يقل بحال من الأحوال عن عبقرية إمبراطور اليابان، ولكن هذا متعلق بمساعدة الوزراء والشعب له، وأن إيران يمكنها أن تحظى بهذا التقدم إذا ما أصلح أمر الزراعة والتجارة وأخذ بالعلوم الغربية الحديثة آنذاك.

ولكن وا أسفاه فإن الوزراء الخونة على حد قول الكاتب يعوقون مسيرة التقدم فى البلاد ولا يفكرون إلا فى أنفسهم وذلك بسبب جهلهم وعدم وجود علماء فى البلاد، إذ أن هؤلاء الوزراء يقصرون اهتماماتهم بجمع الثروات والاستيلاء على الأراضى من المواطنين واقتناء قطع الأثاث الفاخرة المستوردة من أوروبا.

ويقارن المراغى بين إيران وألمانيا وأن إيران والدول الإسلامية عمومًا لم يظهر فيها شخصية مثل شخصية **(بسمارك)** الذى أنعش الأحوال الاقتصادية فى بلاده فازدهرت بها التجارة وزادت ثروة ألمانيا عن كثير من البلاد الأخرى.

ولهذا السبب خلد اسم بسمارك فى التاريخ ونسى تمامًا شعراء عديدون فى العالم الإسلامى مثلهم مثل أسرة البرامكة.

ويرى المراغى أن حال البلاد قد وصل إلى أن أصبح مواطنوه متسولين وفقراء وذلك بسبب جهل وزراء إيران وتقصيرهم فى إدارة البلاد، وأبرز مثال لذلك ظهور طبقة **(السادات)** أو الأشراف على حد قولهم والذين يعتقدون أن لهم خمس ما يمتلكه أفراد الشعب الإيرانى، ويقول الكاتب فى هذا الصدد: لماذا هؤلاء السادات لا يحملون البنادق لكى يحافظوا على البلاد ويزودوا عن العباد؟ وهم بذلك يحققون العمل بالمثل الشائع رئيس القوم خادمهم.

والآن بسبب تخلف وزراء إيران لا يوجد مصانع فى البلاد ولا جنود أو مهندسون أو معلمون ليس فيها إلا التشرد والبطالة فى المقاهى والمساجد والحمامات.

فقد هلك قارون وكان أغنى العالم ولم يعد يذكر فى شىء ومات أنو شيروان ملك إيران وترك وراءه الاسم الطيب بسبب عدله. فالعدل أساس الملك، ولا ملك مع الظلم والجهل.

ويرى الكاتب أن مظفر الدين شاه ملك مثالى بالنسبة للشعب الإيرانى وأن اضطراب البلاد وانتشار المفاسد فيها أساسه وجود وزراء إيران الجهلاء الذين لا يأخذون بتقدم البلدان الأخرى الغربية فى الإدارة.

ويتعرض الكاتب إلى موضوع الامتيازات وأضرارها البالغة على البلاد فيشير بالتحديد إلى امتياز **(الدخان)** الذى حصلت فى مقابله الحكومة الإيرانية على مبلغ ثلاثين ألف تومان وليت الحكومة هى التى حصلت على هذه الأموال بل ذهبت كرشوة لبعض الأفراد.

ويطرق الكاتب موضوعًا آخر ألا وهو التفاخر بالماضى العريق للشعب الإيرانى، ويرى أنه على الرغم من أن إيران كانت مهد الحكماء كما كان فلاسفة اليونان فى العصور القديمة ولكن لا ينبغى التفاخر بهذه الأمور بل ينبغى التفاخر بعدل إمبراطور اليابان وعدل أنوشيروان فقط وأن يعيش الشعب حاضرة بما فيه.

ويتحدث الكاتب فى الحرية فيرى أنه ينبغى أن يطلب الحرية ويحظى بها مثل دول فرنسا وأسبانيا واليابان حتى لو تطلب هذا الأمر منه أن يثور على الدولة والحاكم، ويرى أن النموذج المثالى للحكام يتمثل فى **(بطرس الأكبر وميكادو والسلطان محمود)**

وينتقد الكاتب الوزراء وعلى رأسهم أمين السلطان الصدر الأعظم فى عصر ناصر الدين شاه رابع الحكام القاجاريين الذى

يرى أنه رجل خائن باع إيران فى سبيل الامتيازات والرشاوى التى كان يحصل عليها من الأجانب مما أفسد حال البلاد وجعلها مستعمرة للإنجليز والروس.

ويعرض الكاتب إلى موضوع آخر ألا وهو الدستور، فيرى أن إيران لم تقم لها قائمة إلا بتطبيق الدستور والأخذ به فى الحكم، ففيه إنصاف للمظلوم وفيه أيضًا ردع للظالم.

أما الأمر الآخر والمهم لإصلاح حال البلاد فهو التعليم، يرى الكاتب أن الطالب والتلميذ لا يعرف شيئًا عن الدين والمذهب، ولا يعرف شيئًا عن الصرف والنحو واللغة.

الجدير بالذكر أن السبب الرئيسى فى إهمال التعليم وعدم الأخذ به هو أن الوزراء يصورون التعليم بأنه ضد الحكم وأن الطلاب أساس الثورات، وبالتالى يصرفون النظر عن الاهتمام بالتعليم والعلم.

ويرى الكاتب كذلك أن هؤلاء الطلاب الذين أرسلوا من إيران إلى الخارج يجهلون دينهم وعلومهم الفقهية وعاداتهم وتراثهم وهم فى الغرب للأسف لا يجيدون إلا تعلم اللغات فقط وهذا أمر مؤسف وضار بالدولة إلى حد كبير. فهؤلاء الطلاب لا يدرسون مثلاً فى الغرب وأوروبا القانون ولا الهندسة ولا الإدارة ولا أسس التجارة والأمور المتعلقة بالجمارك مثلاً، أما جل

اهتمامــهم معرفة اللغة والاســتهزاء باللغة الفارســية ويدرسون فى كتب الغرب بطلان الدين والمذهب.

فماذا سـيفعل هؤلاء الطلاب عندما يـعودون إلى إيران وما قيمة نفعهم لوطنهم أن هم تبرأوا منه وعابوا على لغته؟

فلم يتعلم هؤلاء الطلاب علوم الغـرب الحقيقـية وآدابها بل تعلمـوا اللغة فـقط، فهـذا الطالب الذى أوفد إلى أوروبا يتـصنع الحديث مثل أهل الغرب، ويترك شاربه ولحـيته كما يفعل الغرب، ويلقى التحيـة مثل الغرب ويقلد الأمور السطحيـة مثل الأوروبيين تقليداً أعمى ويقص شعره مثل الأوروبيين أيضًا، أما ما ينفع البلاد من علوم وفنون فهو لا يهتم بها مطلقًا.

ومـثل هذا الشـخص المتفـرنج لا يتـعلم إلا بضع كلمـات فرنسية وألمانية أو إنجليزية ويتعلم رذائلهم ومساوئهم فقط، وينسى أن أهم شيء والذى هو أوفد من أجله هو تحصيل العلم والأدب، وللأسف فإن هذه العلوم لم يفكر فـيها حتى ينفع وطنه وشـعبه، وليت هذا الطالب المبعوث اكتفى فـقط باستبدال ملابسه ونهل من علوم الدول الأوروبية مثل أسبانيا وفرنسا وألمانيا فأفاد بلده واستفاد هو من فضل هذه العلوم والفنون.

وقد وصل حال هؤلاء المتـفرنجين أنهم لا يلقون التـحية إلا بكلمة (بنجور) ولا يصافحون بأيديهم إلا على الطريقة الغربية،

هذا حال هؤلاء المتفرنجين والذين ذهبوا للتعليم فى الخارج فى ذلك الوقت.

(حكاية)

يحكى المراغى إحدى مقابلاته مع أحد الجنرالات الذى قابله أثناء رحلته، وقد وصف هذا القائد العسكرى مظفر الدين شاه بالجهل لاستعانته بالمترجمين فى بعض اللغات الآسيوية، ويقول الكاتب إن هذا الحوار الذى أجراه ذلك القائد معه قد نشر فى إحدى الصحف بعد شهرين من هذا اللقاء.

وفى هذا المقام يقول الكاتب: أيها السادة الوزراء متى ذلل العلماء عقبة فى سبيل الإصلاح فى الدولة؟! ومتى طبق هؤلاء العلماء قانون المساواة فى محكمة العدل؟! إن إصلاح أمور المملكة مرهون بجهد العلماء، أضف إلى هذا أن أعيان المملكة وحكامها أصبحوا فى ظلمهم مثل الحجاج، فهم يفعلون ما يريدون، ويضربون التجار ويعذبونهم.

وإصلاح المجتمع بطبقاته مرتبط بالقضاء على الظلم. موضوع آخر من قال إننا لسنا فى حاجة إلى المدارس؟ هذا قول باطل وافتراء وقد قال الرسول (ص) : اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد. والعلم علمان: العلم بالأبدان وعلم بالأديان، ألا تعرفون كما وصلت أوروبا واليابان فى العلوم والفنون؟! ولا شك أن

الملك الرءوف الرحيم يعلم جيدًا أفعال هؤلاء الوزراء والأمراء. ولا شك أن الملك مسئول عن الرعية وفقًا للحديث: كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته. ومن كلمات الملوك: لولا السلطان لأكل الناس بعضهم بعضًا.

(ولا ملك إلا بالرجال، ولا رجال إلا بمال، ولا مال إلا بالعمارة ، ولا عمارة إلا بالعدل والسياسة)

وإصلاح أمر إيران مرتبط بقانون المساواة، واضطراب إيران فى عصر الدولة القاجارية بسبب غيبة القانون والمساواة، ولدينا (عمر الفاروق) أو عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان نموذجًا عظيمًا لموضوع العدل بين أفراد الرعية.

والعدل باعث على دوام الحكم، والغفلة عن أحوال المملكة والشعب سبب كثير من المفاسد، والعدل هو اليقظة والوعى بأمور الدولة والشعب وإعداد العدة للمحاربة من أجل المحافظة على الشرعية والرعية، على أن يكون الوزراء علماء وحكماء وخبراء بشئون البلاد.

أما الظلم ففيه خراب البلاد والعباد وزوال الدولة والشعب، والتاريخ خير شاهد على هذا، ويستشهد الكاتب فى هذا الموضوع بإيراد كثير من الأمثال والأحاديث النبوية والآيات القرآنية ليؤكد صدق كلامه.

(أفضل الأعمـال كلمة حق عند سلطان جائر)، " يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون". صدق الله العظيم.

(عودة لأحداث الهند)

سبق أن ذكـرت فى المؤلف الأول من رحلـة إبراهيم بيك حديثًـا عن الهند وتصـارع روسيا وإنجـلترا لاحتـلالها والسـيطرة عليها.

ولا شك أن الهند تمثل لدى هاتين الدولتين اهتمـامًا كبيرًا، وقد جاءت إنجلترا إلى مصر، ودخل نابليون مصر وتنازع الإنجليز والفرنسـيون من أجل الوصول إلى الهند والمحافظة على مـصالح الإنجليـز بالذات فى الهـند، ولم يكن صـراع الإنجليـز مع الدول العثمانية وغيـرها من الدول المنافسة فى هذه الفترة سوى من أجل الدفاع عن الهند والتى يطلق عليـها المراغى اسم المعشوق ويعـتبر إنجلترا وروسيا عشاقها.

أضف أن الإنجليز كانوا فى قلق بخصوص جزيرة **(كريت)** وكان العثـمانيون فى ذلك الوقت على علاقـات طيبة مع الروس فأقلق هذا الأمر إنجلتـرا إلى حد كبير، حتى أن العثـمانيين آنذاك فكروا فى أن يتنازلوا لهم أى الروس عن هذه الجزيرة.

لهذا ليس غـريبًا أن تلجأ إنجلتـرا للتعاون مع اليابان وعـقد معاهدة مع إمبراطورها (**ميكادو**) بعد أن فشلت إنجلترا فى تحقيق أهدافها السابقة، وذلك لتأمين الهند وإبعادها عن الدب الروسى.

ولا شك أن مجىء الـسير جـون ملكم إلى إيران من أجل المحافظة على الهند، ولا شك أن تعاون إيران مع إنجـلترا قد أضر بالسياســة الإيرانية بل وأخرها مائة عام تقريبًـا، أو على حد قول المراغى الســاخر: إن تهـافت العاشـقين (**روسيـا وإنجلترا**) حول (الهند هانم) معشوقتهما قد كلف العالم أضراراً لا حصر لها.

وإذا ما أدركنا كم كانت إيران مـتخلفة فى ذلك الوقت وكم كان جـهل وزرائها أدركنا حجم الأخطار الـتى حاطت بإيران فى هذه الفترة، وقد واكب هذا غـيبة القانون وظلم الحكام، وتخلف الإدارة فى البلاد.

وحتى تستطيع إيران أن تتخلص من هذه المساوئ كان لزامًا عليها: أن تطـبق الدستور، وأن تأخذ بالبرلمـان ومجلس الشورى وأن يتعـاون الملك مع المواطنين حتى تشـفى إيران من هذا المرض الذى عانت منه على حد قول الكاتب.

يتحدث الكاتب فى هذه الأشـعار عن تردى حال الشعب، والفساد المتردى بين الأمـراء، ومن فى أيديهم أزمة الحكم وكذلك كثرة اللصوص الذين نهبوا إيران وتسببوا فى انهيار الجيش الإيرانى

فلم تعد إيران تأمن جـانب الأعداء المتربـصين بالوطن من الروس والإنجليز على حد سواء.

ويلخص الكاتب هذه القضـية فى أحد أبيات الشـعر الذى أورده بقـوله : أين ذهبت كل كنوز البـلاد التى جُـمعت بمعـاناة الشـعب، هل أقـول أنه لم يكن هناك خـزانة للوطن أم سـرقهـا اللصـــوص؟! وهنا يحـاول الكـاتب أن يلفت نظر الـقـارئ إلى الأموال التى يبددها الإيرانيون خارج إيران عبثًا، والوطن فى أمس الحاجة لهذه الأموال.

وفى موضوع آخر يتحدث الكاتب عن القروض والامتيازات التى كانت تمنح للأجـانب من الروس والإنجليز، فأصـبحت إيران كسلعة فى المـزاد لا يستفيد منهـا إلى قلة من الوزراء الخونة الذين لوثوا تاريخ إيران.

ولا ينسى كذلك أن يشير إلى الإيـرانيين الذين سافروا إلى أوروبا وقضـوا أوقاتهم فى اللهو والعبـث، ولم يفكروا مطلقًا فى تسليح الجيش من مـدفع وبندقية، ولم يحـاولوا أن يأتوا بالقوانين والنظم التى من شـأنها أن تسـاعـد على تطوير إيران مثل سـائر الشعـوب المتحـضرة، حتى التـجارة والزراعة والصنـاعة لم يأتوا بشىء مفيد للبلاد يخص هذه الحرف.

وللأسف تفكيـرهم منحـصـر فى القـروض والملايين التى يأخذونهـا من وراء السمسرة فـى هذه الامتيازات للأجـانب، أما

الفكر والحضارة والقانون والمساواة فهى الأشياء التى خلت عقولهم منها ونسوها تمامًا، وبذلك أضروا البلاد والرعية إلى حد كبير، وبمعنى آخر لم يلفتوا مثلاً نظر الحكام إلى نشر العدل والحرية بين أفراد الشعب مثل الشعب اليابانى والدول الأوروبية.

ثم يختتم الكاتب هذه الأشعار التى أوردها بالتنويه بمساوئ أمين السلطان الذى بقى فى صدارة الوزارة واحدًا وثلاثين عامًا، ويرى أن رجال البلاد لا يقلون سوءًا فى إفساد البلاد من الوزراء أنفسهم.

إجمال ما سبق تفصيله

لقد تحدث الكاتب فى هذا المجلد عن الوزراء والسفراء والموظفين ورجل الدين والشعراء وطبقة السادات والأطباء والمنجمين والتجار والمحاسبين وقراء التعزية والدراويش والبابية وكان حديثه عنهم صراحة أو كناية، ولا شك أن نقد الكاتب لهؤلاء الأفراد وتلك الطبقات قد أثارهم إلى أبعد حدود بل وهاجموه ولكن الشىء المسلم به على حد قول الكاتب نفسه أن كل ما ورد فى هذا الكتاب وهو المجلد الثانى وكذلك ما ورد فى المجلد الأول هو الحقيقة دون تزييف أو كذب.

وأساس حديث الكاتب فى هذا المجلد الذى بين أيدينا هو غيبة القانون وعدم وجود مساواة واختفاء العلم وتفشى الجهل

وعـدم وجود حـرية فكرية، وتخلف البـلاد التى كانت يومًـا من أزهى البلاد وأكثرها تحضراً فى يوم من الأيام.

ولم يغـفل الكاتب أن يدون كل ما شـاهده من تحضـر فى بلاد الغرب وتخلف فى مـدن إيران المختلفة فقـد قام بالرحلة فى باريس، وألمانيـا، وإنجلترا وأسـبانيا، كـما تنقل فـى مدن إيران: مـشهـد قزويـن، أصفـهان، مـراغـة المنسوب إليـهـا، شيـراز، طهران. . .

ولا ينسى الكاتـب أن يعـقد المقـارنة بـين إيران فى الماضى والحاضر وبين حاضر دول الغرب وتقدمها المذهل، ويرى الكاتب أن إيران لن تقوم لها قـائمة بدون القانون وقد كـرر كلمة القانون آلاف المرات ولهذا ليس غـريبًا أن قلت إن كلمة القانون هـى أكثر الكلمـات التى رددها الكاتب فى مجـلدات الرحلة بشكل ملفت للنظر، ولا ترى ذلك عند أى كـاتب آخر، ربما لإدراكـه لما تحمله هذه الكلمة من خير للشعب الإيرانى.

(محاكمة الضمير)

يتحدث فى هذه الفقرة الكاتـب عن مساوئ إيران ويجعلها فى شكل حوارى كما هو أسلوب كثير من الكتاب المعاصرين له، ويرى أن فساد البـلاد بسبب عدم وجود مـدارس فى البلاد وعدم وجود حرية فكرية، واخـتفاء الصحف ذات الفكر السـياسى الحر

كل هذه الأمور وغيرها حرم إيران من كثير من فوائدها والتى نراها عند الدول الأخرى فى ملايين الأموال التى تدخل خزائن شعوبها وذلك بفضل الأخذ بالعلوم الحديثة.

ويحمل الكاتب رئيس الوزراء أمين السلطان الوزر الأكبر فى فساد البلاد، ولعل تردى هذه الأحوال فى إيران قد عُبر عنه ببعض الحركات الثورية التى اتخذت شكل الاضطرابات فى المدن الإيرانية من قبيل غلاء الأسعار والقحط وظهور البابية والاضطرابات والنزاعات بين العلماء والحكام فى المدن، واعتداء الدول المجاورة على الأراضى الإيرانية.

ويشير الكاتب فى خاتمة هذا المجلد إلى الموضوع الذى ذكره قبل ذلك فى نفس هذا المجلد وهو تواطؤ أمين السلطان مع المسئول عن سك العملة فى البلاد ومحاولة سك عملة جديدة مع إنقاص عيار الفضة فيها مما أضر بكثير من التجار وخسر الدولة كثيرًا من الأموال، ويشير الكاتب أيضًا إلى اقتسام أمين السلطان أرباح هذا التزييف مع الحاج محمد حسن المسئول الأول عن سك العملة.

ثم يتساءل الكاتب من أين للصدر الأعظم وأقاربه بكل ما لديهم من أموال أليست هذه الأموال لأبناء الشعب وأموال جميع الحرفيين والمهنيين فى جميع المدن الإيرانية؟!

ولا ينس الكاتب أن يذكر حسنات (**ميرزا تقى خان أتابك)** وإصلاحاته القيمة فى البلاد، فيقول إن هذا الرجل خلص إيران من التسول وجعل الصناعة متطورة، ولم يجعل فى البلاد أى نفوذ للأجانب، وتطور الجيش واهتم بوزارتى المالية والحربية اهتمامًا كبيرًا.

ويلفت الكاتب نظر القارئ إلى تطور الدولة الروسية واهتمامها بمنطقة القوقاز حتى أنها لتنفق بسخاء من خزينة بطرسبورج على تلك المنطقة وذلك لما لها فيها من معادن وبترول.

ويرى أن أبناء إيران عليهم أن يحذو حذو روسيا والدول الأوروبية فى تقدمها من **(منطلق حب الوطن من الإيمان)**.

ويتحدث الكاتب أخيرًا عن الظلم وتجاوز الحكام تجاه الرعية، ويرى أن هؤلاء الظلمة قد قتلوا الشعب الإيرانى وسلبوه الغيرة والحمية أو على حد قوله : **(لعنة الله على القوم الظالمين)**، وفى نظر الكاتب إن ازدياد الظلم له نتائج وخيمة وأولها زوال الملك وهو يستشهد بأشعار الشاعر (**سنائى**) فى هذا الصدد.

ويتطرق المراغى إلى الحديث عن عصر ناصر الدين شاه وأن هذا الملك هو السبب الرئيسى فى إفلاس خزينة إيران الملكية بسبب تورط هذا الملك فى القروض والامتيازات الممنوحة للأجانب بإيعاز من رئيس حكومته أمين السلطان فى ذلك الوقت.

وأخيراً يتحدث عن افتقاد إيران للمدارس وعدم وجود الصحف التى تدعو إلى الفكر الحر، وتدهور حال إيران على الرغم من اتساع رقعة أرضها التى تبلغ ثلاثة أضعاف أرض فرنسا، ومع كل هذا فلا يوجد بها المصانع التى تشاهد فى فرنسا والبلدان المتحضرة.

ويحمد المراغى الله أن وفقه فى إتمام هذا الجزء الثانى من رحلة إبراهيم بيك، ويرجو القراء أن يتغاضوا عن العيوب التى قد تكون وردت فى هذا الكتاب عفواً وذلك بسبب تعصبه الزائد لوطنه إيران.

ويرى أن استقامة الحكم مرتبط بوجود القانون فى البلاد وإلا فإن هذه الدولة سيكون حالها الاستبداد والديكتاتورية ويضرب المثل فى ذلك بأسرة آل برمك.

وآخر كلمة يوجهها الكاتب فى هذه الخاتمة هى أنه سوف يشرح أوضاع الدولة المستبدة فى الغرب، ونتائج هذا الاستبداد فى إيران أو فى الغرب أو فى الشرق.

ويختتم هذا الجزء بالأهمية الكبرى لوجود القانون والمساواة فى حياة كل شعب.

رمضان عام ١٣٢٦ هـ.

هوامش:

١) حدث هذا الأمر إثر حوار تشاجر إبراهيم بيك مع أحد رجال الدين الجهلة حيث اتهمه الأخير بالردة.

- سياحتنا مه إبراهيم بيك ج١ : ترجمة : محمود سلامة علاوى

(٢) الكرور : يساوى ٥٠٠,٠٠٠ جنيه

(٣) الجملة الأصلية: بجهة اجراء أن كرورها بول لازم

الكرور : يساوى ٥٠٠,٠٠٠، والألف تومان يساوى عشرة آلاف ريال الآن فى إيران.

الألف تومان = ١٠ آلاف ريال = ٤ جنيهات مصرية.

(٤) الكاتب هنا يتهكم على الوزراء الإيرانيين ولا يثنى عليهم بقدر الاستهزاء بهم (المترجم).

(٥) الكاتب هنا متأثر إلى حد كبير بكتابات ميرزا ملكم خان، انظر محمد محيط طباطائى: مجموعة آثار ميرزا ملكم خان. المترجم.

(٦) هنا يبين الكاتب الفرق الكبير بين جهاز إيران المتردى ونظام ديوان الغرب المتقدم. المترجم.

(٧) كلمة تقال كثيراً بين الإيرانيين عند التهكم.

(٨) يوافق هذا عام ١٨٥٣ م حيث تولى العرش هذا الملك سنة ١٨٤٨م. المترجم

(٩) حكم ناصر الدين شاه إيران عام ١٨٤٨ وقتل عام ١٨٩٦م. المترجم

(١٠) هكذا يكتب المؤلف: الحاج ... التبريزى دون أن يكمل الاسم. المترجم

(١١) ترجمان الحديقة. المترجم.

(١٢) هذا الحديث مكتوب باللغة التركية فى الصحيفة المذكورة. المترجم.

(١٣) يقصد الكاتب الملك مظفر الدين شاه ورحلاته إلى الغرب. المترجم

(١٤) مقرئ الروضة فى المذهب الشيعى شخص يذكر مآسى آل البيت. المترجم.

(١٥) الصدر الأعظم هذا هو أمين السلطان. المترجم

(١٦) كان جعفر البرمكى الساعد الأيمن للخليفة العباسى هارون الرشيد وكان لهذا الخليفة أخت جميلة، وكان يحب أخته ويحب جعفر البرمكى، ثم عقد له على أخته بشرط أن لايواقعها، فحدث أن تزوجها جعفر فانتقم الخليفة منهم جميعًا. المترجم.

المشروع القومى للترجمة

١- اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت أحمد درويش
٢- الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت أحمد فؤاد بلبع
٣- التراث المسروق	جورج جيمس	ت شوقى جلال
٤- كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت أحمد الحضرى
٥- ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت محمد علاء الدين منصور
٦- اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧- العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت يوسف الأنطكى
٨- مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت مصطفى ماهر
٩- التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت محمود محمد عاشور
١٠- خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١- مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت هناء عبد الفتاح
١٢- طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت أحمد محمود
١٣- ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت عبد الوهاب علوب
١٤- التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت حسن المودن
١٥- الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت أشرف رفيق عفيفى
١٦- أثينة السوداء	مارتن برنال	ت بإشراف أحمد عتمان
١٧- مختارات	فيليب لاركين	ت محمد مصطفى بدوى
١٨- الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت طلعت شاهين
١٩- الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت نعيم عطية
٢٠- قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١- خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت ماجدة العنانى
٢٢- مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت سيد أحمد على الناصرى
٢٣- تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت سعيد توفيق
٢٤- ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت بكر عباس
٢٥- مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦- دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت أحمد محمد حسين هيكل
٢٧- التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت نخبة
٢٨- رسالة فى التسامح	جون لوك	ت منى أبو سنه
٢٩- الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت بدر الديب
٣٠- الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت أحمد فؤاد بلبع
٣١- مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢- الانقراض	ديفيد روس	ت مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣- التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت أحمد فؤاد بلبع
٣٤- الرواية العربية	روجر آلن	ت حصة إبراهيم المنيف
٣٥- الأسطورة والحداثة	بول ب. ديكسون	ت خليل كلفت

٣٦- نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت حياة جاسم محمد
٣٧- واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت جمال عبد الرحيم
٣٨- نقد الحداثة	الن تورين	ت أنور مغيث
٣٩- الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت منيرة كروان
٤٠- قصائد حب	ان سكستون	ت محمد عيد إبراهيم
٤١- ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢- عالم ماك	بنجامين باربر	ت أحمد محمود
٤٣- اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	ت المهدى أخريف
٤٤- بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت مارلين تادرس
٤٥- التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت أحمد محمود
٤٦- عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت محمود السيد على
٤٧- تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨- حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت ماهر جويجاتى
٤٩- الإسلام فى البلقان	هـ ت نوريس	ت عبد الوهاب علوب
٥٠- ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١- مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ م بينيا ليستى	ت محمد أبو العطا
٥٢- العلاج النفسى التدعيمى	بيتر ن نوفاليس وستيفن ج روجسيفيتز وروجر بيل	ت لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣- الدراما والتعليم	أ ف ألنجتون	ت مرسى سعد الدين
٥٤- المفهوم الإغريقى للمسرح	ج مايكل والتون	ت محسن مصيلحى
٥٥- ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت على يوسف على
٥٦- الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت محمود على مكى
٥٧- الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨- مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت محمد أبو العطا
٥٩- المحبرة	كارلوس مونييث	ت السيد السيد سهيم
٦٠- التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت صبرى محمد عبد الغنى
٦١- موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف . محمد الجوهرى
٦٢- لذّة النّص	رولان بارت	ت محمد خير البقاعى
٦٣- تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤- برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت رمسيس عوض
٦٥- فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت رمسيس عوض .
٦٦- خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧- مختارات	فرناندو بيسوا	ت المهدى أخريف
٦٨- نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت أشرف الصباغ
٦٩- العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠- ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١- السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت حسين محمود

٧٢- السياسى العجوز	ت س إليوت	ت فؤاد مجلى
٧٣- نقد استجابة القارئ	جين ب توميكز	ت حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤- صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل ا سيمينوفا	ت حسن بيومى
٧٥- فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت أحمد درويش
٧٦- جاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت عبد المقصود عبد الكريم
٧٧- تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨- العولمة النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت أحمد محمود ونورا أمين
٧٩- شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠- بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت مكارم الغمرى
٨١- الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت محمد طارق الشرقاوى
٨٢- مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت محمود السيد على
٨٣- مختارات	غوتفريد بن	ت خالد المعالى
٨٤- موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت عبد الحميد شيحة
٨٥- منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت عبد الرازق بركات
٨٦- طول الليل	جمال مير صادقى	ت أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧- نون والقلم	جلال آل أحمد	ت ماجدة العنانى
٨٨- الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩- الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠- وسم السيف	ميجل دى ثربانتس	ت محمد إبراهيم مبروك
٩١- المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت محمد هناء عبد الفتاح
٩٢- أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجل	ت نادية جمال الدين
٩٣- محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت عبد الوهاب علوب
٩٤- الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت فوزية العشماوى
٩٥- مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت سرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦- ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت إدوار الخراط
٩٧- هوية فرنسا مج ١	فرنان برودل	ت بشير السباعى
٩٨- الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات	ت أشرف الصباغ
٩٩- تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	ت إبراهيم قنديل
١٠٠- مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت إبراهيم فتحى
١٠١- النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت رشيد بنحدو
١٠٢- السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣- قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت محمد بنيس
١٠٤- أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت عبد الغفار مكاوى
١٠٥- مدخل إلى النص الجامع	جيرار جينيت	ت عبد العزيز شبيل
١٠٦- الأدب الأندلسى	د. ماريا خيسوس روبييرا متى	ت د أشرف على دعدور
١٠٧- صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة	ت محمد عبد الله الجعيدى

١٠٨- ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت محمود على مكى
١٠٩- حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	ت هاشم أحمد محمد
١١٠- النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	ت منى قطان
١١١- المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت ريهام حسين إبراهيم
١١٢- الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت إكرام يوسف
١١٣- راية التمرد	سادى پلانت	ت أحمد حسان
١١٤- مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت نسيم مجلى
١١٥- غرفة تخص المرء وحده	فرجينيا وولف	ت سمية رمضان
١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت نهاد أحمد سالم
١١٧- المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلى أحمد	ت منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨- النهضة النسائية في مصر	بث بارون	ت لميس النقاش
١١٩- النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠- الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت نخبة من المترجمين
١٢١- الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢- نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت منيرة كروان
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيل الكسندر وفنادولينا	ت أنور محمد إبراهيم
١٢٤- الفجر الكاذب	جون جراى	ت أحمد فؤاد بلبع
١٢٥- التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت سمحه الخولى
١٢٦- فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	ت عبد الوهاب علوب
١٢٧- إرهاب	صفاء فتحى	ت بشير السباعى
١٢٨- الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت أميرة حسن نويرة
١٢٩- الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠- الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت شوقى جلال
١٣١- مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت لويس بقطر
١٣٢- ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت عبد الوهاب علوب
١٣٣- الخوف من المرايا	طارق على	ت طلعت الشايب
١٣٤- تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت أحمد محمود
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ت ماهر شفيق فريد
١٣٦- فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت سحر توفيق
١٣٧- مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية	جوزيف مارى مواريه	ت كاميليا صبحى
١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت أسامة إسبر
١٤٠- حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت أمل الجبورى
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت نعيم عطية
١٤٢- الإسكندرية: تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت حسن بيومى
١٤٣- قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت عدلى السمرى
١٤٤- صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت سلامة محمد سليمان

١٤٥- موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت أحمد حسان
١٤٦- الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت علي عبدالرؤوف البمبى
١٤٧- خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت عبدالغفار مكاوى
١٤٨- القصة القصيرة (النظرية والتقنيه)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت علي إبراهيم على منوفى
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت أسامة إسبر
١٥٠- التجربة الإغريقية	روبرت ج ليتمان	ت منيرة كروان
١٥١- هوية فرنسا مج ٢ ، ج١	فرنان برودل	ت بشير السباعي
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكتاب	ت محمد محمد الخطابى
١٥٣- غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	ت أحمد مرسى
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	ت مى التلمسانى
١٥٧- خسرو وشيرين	النظامى الكنوجىٰ	ت عبدالعزيز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا مج ٢ ، ج٢	فرنان برودل	ت بشير السباعي
١٥٩- الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت إبراهيم فتحى
١٦٠- آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت حسين بيومى
١٦١- من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	ت صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع	جوردن مارشال	ت مجموعة من المترجمين
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت نبيل سعد
١٦٥- حكايات الثعلب	أ ن أفانا سيفا	ت سهير المصادفة
١٦٦- العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	ت محمد محمود أبو غدير
١٦٧- في عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت شكرى محمد عياد
١٦٨- دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت شكرى محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت شكرى محمد عياد
١٧٠- الطريق	ميجيل دليبيس	ت بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد	فرانك بيجو	ت هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس	مختارات	ت محمد محمد الخطابى
١٧٣- معنى الجمال	ولتر ت ستيس	ت إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت حصة إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت محمد حمدى إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب	أيسوب	ت إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت ب ليتش	ت محمد يحيى
١٨٢- العنف والنبوءة	و.ب ييتس	ت. ياسين طه حافظ
١٨٣- چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	ت فتحى العشرى

١٨٤- القاهرة حالمة لا تنام	هانز إيندورفر	ت: دسوقى سعيد
١٨٥- أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت: عبد الوهاب علوب
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت.إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧- الأرضة	بُزرْج علوى	ت علاء منصور
١٨٨- موت الادب	ألفين كرنان	ت.بدر الديب
١٨٩ - العمى والبصيرة	بول دى مان	ت.سعيد الغانمى
١٩٠- محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت.محسن سيد فرجانى
١٩١- الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت مصطفى حجازى السيد
١٩٢- سياحت نامه إبراهيم بيك جـ١	زين العابدين المراغى	ت محمود سلامة علاوى
١٩٣- عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت محمد عبد الواحد محمد
١٩٤- مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى	مجموعة من النقاد	ت. ماهر شفيق فريد
١٩٥- شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت.محمد علاء الدين منصور
١٩٦- المهلة الأخيرة	فالتين راسبوتين	ت.أشرف الصباغ
١٩٧- الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت جلال السعيد الحفناوى
١٩٨- الاتصال الجماهيرى	ادوين إمرى وآخرون	ت.ابراهيم سلامة ابراهيم
١٩٩- تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت جمال احمد الرفاعي وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠- ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت فخرى لبيب
٢٠١- الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت أحمد الانصارى
٢٠٢- تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت: مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣- الشعر والشاعرية	الطاف حسين حالى	ت: جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤- تاريخ نقد العهد القديم	م. سوارفيتشيك، ر. روفشوف	ت أحمد محمود هويدى
٢٠٥- الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى- سفورزا	ت. أحمد مستجير
٢٠٦- الهيولية تصنع علما جديدا	جيمس جلايك	ت على يوسف على
٢٠٧- ليل إفريقى	رامون خوتاسندير	ت محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨- شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت محمد أحمد صالح
٢٠٩- السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت. أشرف الصباغ
٢١٠- مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١- فرديناند دوسوسير	جوناثان كللر	ت محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢- قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣- مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	ت سيد أحمد على الناصرى
٢١٤- قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت: محمد محمود محى الدين
٢١٥- سياحت نامه إبراهيم بيك جـ٢	زين العابدين المراغى	ت محمود سلامة علاوى
٢١٦- جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت: أشرف الصباغ
٢١٧- عولمة السياسة العالمية	جون بايليس و ستيث سميث	ت. وجيه سمعان عبد المسيح
٢١٨- رايولا.	خوليو كورتازان	ت: على إبراهيم على منوفى
٢١٩- بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت. طلعت الشايب
٢٢٠- الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت: على يوسف على
٢٢١- شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت: رفعت سلام

المجلس الأعلى للثقافة

يحفل الأدب الفارسى بكثير من كُتّاب السياحة والرحالين الذين أثروا الأدب الفارسى بما دوّنوه فى مذكراتهم خلال رحلاتهم ، ومن أولئك الكُتّاب : ناصر خسرو فى القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى ، وناصر الدين شاه فى القرن الرابع عشر الهجرى ، التاسع عشر الميلادى ، وزين العابدين المراغى .

ورحلة إبراهيم بيك تضم أجزاءً ثلاثة ، حيث جعل كاتبنا من هذه الرحلة المهمة سجلاً تاريخياً صوّر فيه كافة المجالات السياسية والاجتماعية والفكرية فى المجتمع الإيرانى فى العصر القاجارى ، خاصة فترة حكم (ناصر الدين شاه) ، ثم حوت أخلاطًا من الشعر والأمثلة والمأثورات الدينية والشعبية . وقد عاصر المؤلف أحداث الثورة الدستورية بإيران فى بدايات القرن العشرين ؛ لأنه توفى عام ١٩١٠م عن عمر يناهر الثلاثة والسبعين .

ويعد هذا الكتاب أول رحلة تصف أحوال إيران فى الفترة ... يُقدم فى ثوبة العربى ، وقد تحلّى هذا الثوب بالأمانة والدقة و... فى آن ، أمانة النقل وجمال التعبير ، ولسوف يشعر القارىء ... بالمتعة العقلية والروحية إذا وقع هذا المؤلّف بين يديه .